سلسلة شرح الرسائل (١٢)

شرح أصول الإيمان

للإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب
١١١٥ - ١٢٠٦هـ

الشرح
لفضيلة الشيخ العلامة صالح بن فوزان الفوزان

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
عبد السلام بن عبد الله السليمان

سلسلة شرح الرسائل (١٢)

شرح
أصول الإيمان

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

١١١٥ - ١٢٠٦هـ

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة صالح بن فوزان الفوزان

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

عبد السلام بن عبد الله السليمان

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

صالح بن فَوْزان الفَوْزان(١)

نسبه:

هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبدالله، من آل فوزان من أهل الشماسية الوداعين، من قبيلة الدواسر.

نشأته ودراسته:

وُلد عام ١٣٥٤هـ، وتوفي والده وهو صغير، فتربى في أسرته، وتعلم القرآن الكريم، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة على يد إمام مسجد البلد ـ وكان قارئاً متقناً ـ وهو فضيلة الشيخ: حمود بن سليمان التلال، الذي تولى القضاء أخيراً في بلدة ضرية في منطقة القصيم.

ثم التحق بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية عام ١٣٦٩هـ، وأكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١هـ، وتعين مدرِّساً في الابتدائي، ثم التحق بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحه عام ١٣٧٣هـ، وتخرج منه عام ١٣٧٧هـ، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج منها عام ١٣٨١هـ ثم نال درجة الماجستير

(١) كتب الترجمة: عبدالعزيز بن عبدالكريم العيسى.

في الفقه، ثم درجة الدكتوراه من هذه الكلية في تخصص الفقه أيضاً.

أعماله الوظيفية:

بعد تخرجه من كلية الشريعة عُيِّن مدرساً في المعهد العلمي في الرياض، ثم نقل للتدريس في كلية الشريعة، ثم نقل للتدريس في الدراسات العليا بكلية أصول الدين، ثم في المعهد العالي للقضاء، ثم عُيِّن مديراً للمعهد العالي للقضاء، ثم عاد للتدريس فيه بعد انتهاء مدة الإدارة، ثم نقل عضواً في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال على رأس العمل.

أعماله الأخرى:

فضيلة الشيخ عضو في هيئة كبار العلماء، وعضو في المجمع الفقهي بمكة المكرمة التابع للرابطة، وعضو في لجنة الإشراف على الدعاة في الحج، إلى جانب عمله عضواً في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وإماماً وخطيباً ومدرساً في جامع الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود في الملز، ويشارك في الإجابة في برنامج (نور على الدرب) في الإذاعة، كما أن لفضيلته مشاركاتٍ منتظمة في المجلات العلمية على هيئة بحوث ودراسات ورسائل وفتاوى، جمع وطبع بعضها، كما أن فضيلته يشرف على الكثير من الرسائل العلمية في درجتي الماجستير

والدكتوراه، وتتلمذ على يديه العديد من طلبة العلم الذين يرتادون مجالسه ودروسه العلمية المستمرة.

مشايخه:

تتلمذ فضيلة الشيخ على أيدي عدد من العلماء والفقهاء البارزين، ومن أشهرهم: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وسماحة الشيخ عبدالله بن حميد، حيث كان يحضر دروسه في جامع بريدة، وفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي، وفضيلة الشيخ صالح بن عبدالرحمن السكيتي، وفضيلة الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، وفضيلة الشيخ محمد بن سبيل، وفضيلة الشيخ عبدالله بن صالح الخليفي، وفضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد العبد المحسن، وفضيلة الشيخ حمود بن عقلا، والشيخ صالح العلي الناصر. وتتلمذ على غيرهم من شيوخ الأزهر المنتدبين في الحديث والتفسير واللغة العربية.

مؤلفاته:

لفضيلة الشيخ مؤلفات كثيرة، من أبرزها:

١- [التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية] في المواريث، وهو رسالته في الماجستير، مجلد.

٢- [أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية]، وهو رسالته في الدكتوراه، مجلد.

٣- [الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد] مجلد صغير.

٤- [شرح العقيدة الواسطية] مجلد صغير.

٥- [البيان فيما أخطأ فيه بعض الكتّاب] مجلد كبير.

٦- [مجموع محاضرات في العقيدة والدعوة] مجلدان.

٧- [الخطب المنبرية في المناسبات العصرية] في أربعة مجلدات.

٨- [من أعلام المجددين في الإسلام].

٩- رسائل في مواضيع مختلفة.

١٠- [مجموع فتاوى في العقيدة والفقه] مفرّغة من برنامج (نور على الدرب)، وقد أنجز منه أربعة أجزاء.

١١- [نقد كتاب «الحلال والحرام في الإسلام»].

١٢- [شرح «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبدالوهاب]، شرح مدرسي.

١٣- [التعقيب على ما ذكره الخطيب في حق الشيخ محمد بن عبد الوهاب].

١٤- [الملخص الفقهي] مجلدان.

١٥- [إتحاف أهل الإيمان بدروس شهر رمضان].

١٦- [الضياء اللامع من الأحاديث القدسية الجوامع].

١٧- [بيان ما يفعله الحاج والمعتمر].

١٨- [كتاب التوحيد] جزآن مقرران في المرحلة الثانوية بوزارة المعارف.

١٩- [فتاوى ومقالات نشرت في «مجلة الدعوة»]، وهو هذا الذي نشر ضمن [كتاب الدعوة].

علاوة على العديد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو في طريقه للطبع.

نسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله في موازين حسنات شيخنا الجليل، إنه سميع مجيب.

* * *

في موكب الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله مع هذا اللقاء الجديد في برنامجكم (في موكب الدعوة).

ضيفنا في هذ اليوم هو صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء.

في مطلع هذا اللقاء لا أملك إلا أن أرحب - باسمكم جميعاً - بصاحب الفضيلة الشيخ صالح، شاكراً له تكرمه وتفضله بإجابة دعوة البرنامج، فحياكم الله يا شيخ صالح.

شيخ صالح حفظكم الله، مما اعتدنا عليه في هذا البرنامج أن نستمع في بداية كل لقاء من ضيفنا الكريم، بودنا أن نستمع منكم إذا تفضلتم لبيان موجز مقتضب عن مولدكم ونشأتكم أين كانت؟

- بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فالمولد هو في عام ١٣٥٤ للهجرة، في بلدتنا المسماة بالشماسية شرقي القصيم، والنشأة بين الأهل ومزاولة مهنة الزراعة، التي كانت هي عمل أهل البلد الغالبة للبلد في ذلك الوقت. وأما النشأة التعليمية فقد تعلّمت القراءة والكتابة على أئمة المساجد في بلدتنا كما هي العادة المتبعة قبل إيجاد التعليم النظامي، ثم في سنة ١٣٦٨ للهجرة فُتحت المدرسة الابتدائية في بلدتنا الشماسية فالتحقت بها، ثم أكملت الدراسة الابتدائية في عام ١٣٧١ للهجرة حيث نلت الشهادة الابتدائية. ثم تعينت مدرساً في الابتدائي لمدة سنة، ثم فُتح المعهد العلمي في مدينة بريدة، فكنت من أول الملتحقين به في عام ١٣٧٣هـ، وأكملت الدراسة المتوسطة والثانوية، ثم التحقت بكلية الشريعة في الرياض وأكملت الدراسة العالية فيها.

وبعد تخرجي من الكلية تعينت مدرساً في المعهد العلمي بالرياض لمدة سنتين، ثم نُقلت للتدريس في كلية الشريعة، ثم بعدها بفترة - وأنا في التدريس في هذه الكلية - نُقلت للتدريس بكلية أصول الدين لما فُتحت الجامعة وتعددت فيها الكليات، نُقلت للتدريس في كلية أصول

الدين وبالدراسات العليا فيها بالذات، ثم نُقلت مديراً للمعهد العالي في القضاء لمدة ست سنوات، ثم لما تمت المدة النظامية للإدارة بقيت فيه مدرساً للفقه، ثم نُقلت إلى عضوية اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ولا أزال والحمد لله.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح أثابكم الله، في الحقيقة خلال هذا المشوار المبارك من البدايات في التعليم، والتحاقكم بالكلية، وتعليمكم فيها يا شيخ صالح، لا بُدَّ أن هناك العديد من الشخصيات التي تأثرتم بها، والتي كان لها أثر على حياتكم وعلى توجهكم نحو طلب العلم الشرعي، أو على الأصح أن نقول: هناك العديد من المشايخ الذين أخذتم عنهم وتلقيتم عنهم، هل ممكن أن نستمع من فضيلتكم إلى بعض أو أبرز هذه الأسماء؟

- الحمد لله، أنا تعلمت على مدرسين كثيرين في مراحل التعليم، وانتفعت بهم - والحمد لله - وجزاهم الله عني وعن زملائي خير الجزاء، ولكن من أبرز من استفدت منهم من أهل العلم في المرحلة الابتدائية اثنان هما: شيخي الشيخ إبراهيم بن ضيف الله اليوسف في مدرسة الشماسية، ثم فضيلة الشيخ إبراهيم بن عبدالمحسن بن عبيد في بريدة عندما كنت في السنة السادسة الابتدائية، لأني أكملت الابتدائية

في المدرسة الفيصلية في مدينة بريدة، وكان مدرساً فيها. استفدت منه في علم الفقه والتوحيد، وقرأت عليه بعض القراءة في المسجد.

وأما في المرحلة المتوسطة والثانوية فاستفدت من مشايخ كثيرين، من السعوديين ومن غيرهم من المنتدبين للتدريس هنا، من أبرزهم: الشيخ صالح بن عبدالرحمن السكيتي رحمه الله، استفدت منه في علم الفقه والتوحيد، والشيخ محمد بن عبدالله السُّبيِّل حفظه الله، استفدت منه في علم الفرائض، والشيخ صالح بن إبراهيم البليهي رحمه الله، استفدت منه في علم الفقه، هؤلاء من أبرز من انتفعت بهم في الفقه والتوحيد.

وأما المرحلة العالية في كلية الشريعة فقد استفدت من فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله، فقد درسني في الكلية علم الفرائض والمواريث، ومن مشايخي في الكلية: العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في مادة الأصول، وكذلك استفدت من فضيلة شيخنا العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي - رحمه الله - في مادة الأصول وعلم العقيدة، وكذلك استفدت في الفقه - وإن كانت المدة معه قصيرة - من فضيلة العلامة الفقيه الشيخ عبدالله بن صالح الخليفي رحمه الله.

هؤلاء من أبرز من انتفعت بعلومهم.

واستفدت من مشايخنا المصريين في علم اللغة العربية وعلم الصرف

وعلم البلاغة والبيان، استفدت من شخصيات علمية فذة منهم - غفر الله لأمواتهم وحفظ أحياءهم - هؤلاء من أبرز من تأثرت بهم، وكنت أحضر في مدة دراستي في بريدة دروس العلامة الشيخ عبدالله بن محمد ابن حميد رحمه الله، وكانت دروسه في الفقه والتوحيد والنحو والفرائض تواكب دروسي في المعهد، ولذلك كنت أحضر دروسه وألازمها، لأنها شرح لدروسي التي أتلقاها في المعهد العلمي.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله، الشيخ صالح - حفظكم الله - هذه الأسماء المباركة والعطرة التي تفضلتم بذكرها وسردها، والتي كانت لها تأثير في حياتكم العلمية، لا شك أن من هذه الأسماء أحسب أن لكم علاقةً كانت خاصة مع سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله، وكانت بينكم علاقة أحسب أنها علاقة التلميذ مع شيخه. شيخ صالح، أجد أنه فرصة لأستمع من فضيلتكم ومع من يستمع إلى هذا البرنامج من الإخوة المستمعين إلى شيء من حياة ذلك العلم رحمه الله، خصوصاً وأنتم كنتم من القريبين منه، سواءً كان في العلم أو قبل ذلك في تلقيكم عنه في كلية الشريعة وغيرها؟

- الشيخ بن عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - علم من أعلام العلم والعمل والتوجيه في عصرنا الحاضر لا يخفى ذلك على أحد، وكنت ممن

انتفع بعلمه وتوجيهه، وهو أبرز من تأثرت بهم وتلقيت العلم على أيديهم، فمن ذلك أنني تلقيت عنه علم الفرائض والمواريث في كلية الشريعة، وكنت أحضر دروسه ومحاضراته ومجالسه وأستمع إلى برامجه في الإذاعة، وأحرص على ذلك، استفدت منه العلم الغزير والحمد لله، يعني سمعت منها العلم الغزير، وأما أنني حفظت منها شيئاً فحفظي قليل وذاكرتي ضعيفة، ولكن كنت أحرص على سماعها وحضورها والاستفادة منها، وأما مجال العمل فمنذ انتقالي إلى دار الإفتاء والعمل تحت رياسته رحمه الله، فقد استفدت منه الفوائد العظيمة في مجال العلم والإجابة عن الأسئلة والتثبت في الإجابة وتحري الصواب والدقة، كذلك استفدت منه الصبر والتحمل على مشاق العمل، واستفدت منه فوائد عظيمة في هذا المجال. استفدت منه أيضاً الحرص على بناء الفتوى أو الجواب عن الدليل من الكتاب والسنة وتحري الصواب، وأن المفتيَ حينما يفتي في مسألة فإنما يضع في ذمته حملاً ثقيلاً، لأن هذا الجواب سينسب إليه وسيُسأل عنه أمام الله سبحانه وتعالى، فكنت أستفيد منه التحري والدقة ومراعاة المسؤولية، والخوف من الله سبحانه وتعالى عند اختيار الجواب، بأن لا يكون فيه تساهل أو إخلال أو تفريط في ربطه بالدليل.

سؤال: أثابكم الله يا شيخ صالح، في الحقيقة بودنا أن ننتقل إلى الجانب الآخر، وهو أنكم - ولله الحمد - لكم نشاط مبارك ومشهود في العديد من المؤلفات والكتب والرسائل التي دونتموها وكتبتموها، وهي كثيرة منها منشور ومبثوث ولله الحمد. أجد أنها فرصة يا شيخ صالح لنستمع منكم إلى أبرز هذه المؤلفات التي كتبتموها ابتداء بأولها تأليفاً؟

- أنا ليس لي مؤلفات في الحقيقة، وإنما لي بعض الكتابات التي كتبتها لا بنية التأليف، ولكن كتبتها لمناسبة حصلت أو مشاركة في مؤتمر أو ندوة، أو مشاركة في مجلة أو مشاركة في برامج إذاعية. كتبت هذه الأشياء، ثم رأيت أنه من المفيد الاحتفاظ بها وإخراجها في صورة كتاب لا في صورة مؤلف، وإنما في صورة كتاب جمعت فيه ما صدر مني أو كتبته في هذه المناسبات، ومن ذلك: ما كتبته لنيل درجة علمية، ابتداءً من درجة الماجستير، فقد كتبت في درجة الماجستير في موضوع الفرائض والمواريث رسالة اسمها (التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية) وهي مطبوعة ولله الحمد، ومن ذلك: ما كتبته في رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه وهي رسالة (الأطعمة ما يحل منها وما يحرم بالأدلة)، وهي أيضاً مطبوعة ومتداولة.

ومن أقدم ما كتبت رسالة في الرد على الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه (الحلال والحرام في الإسلام)، فقد كتبت كتاباً سميتها (الإعلام لنقد كتاب الحلال والحرام) وعرضتها - من أولها إلى آخرها - على سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد رحمه الله، قرأتها عليه من أولها إلى آخرها، فأشار عليّ بإخراجها وطباعتها، وهي مطبوعة ومتداولة والحمد لله. ومن ذلك أيضاً: كتاب (الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد)، وهو عبارة عن حلقات في العقيدة كنت ألقيها في الإذاعة، فجمعتها في صورة كتاب وأسميته بهذا الاسم، وهو مطبوع ومتداول. ومن ذلك: (كتاب التوحيد)، وهو عبارة عن كتابة كُلفت بها من قبل وزارة المعارف لإعداد كتاب للثانوي في عقيدة التوحيد، فكتبته بموجب هذا التكليف وصار يتداول ويطبع الآن والحمد لله. ومن ذلك حلقات كنت ألقيها في إذاعة الرياض بعنوان (من الفقه الإسلامي)، وهي حلقات امتدت من أول كتاب الطهارة إلى آخر كتاب الإقرار، على ترتيب المتأخرين من فقهاء الحنابلة، فجُمعت هذه الحلقات تحت مسمى (الملخص الفقهي)، وهو مطبوع الآن في والحمد لله. ومن ذلك أنّي لما توليت الخطابة بجامع الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود - حفظه الله - في الملز، كنت ألقي الخطب وأدوّنها قبل إلقائها

في مسودات، فلما تجمع لدي عدد كثير من هذه المسودات رأيت، بعدما أشار عليَّ بعض الإخوة، تمحيصها وإخراجها في كتاب مطبوع ليمتد النفع به، ولأساعد إخواني الخطباء، فقمت بإخراج هذه الخطب، وسميتها (الخطب المنبرية في المناسبات العصرية)، وهذا المجموع يتكون من خمسة مجلدات، وهي مطبوعة ومتداولة والحمد لله. هذه هي أبرز ما ينسب إليّ من كتابات، وهناك كتابات متفرقة ومتنوعة تحت مسميات كثيرة لا داعي لذكرها الآن.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح أثابكم الله، بودي الحقيقة أيضاً أن نتناول جانباً قريباً من هذا، وهو النشاط العلمي الذي تقدمونه في الدروس في المسجد، هل من الممكن أن نستمع إلى أبرز هذه الدروس التي تلقونها في المساجد يا شيخ صالح؟

- مسألة الدروس التي في المساجد إنما اتجهت إليها أخيراً لما كثر الإلحاح من الشباب ومن طلاب العلم، فرأيت أنه لا يسعني أن أعتذر عن طلبهم وإلحاحهم، ففتحت لهم المجال في إلقاء ما أستطيعه من الدروس والتوجيه، وذلك في المسجد الذي أتولى الإمامة والخطابة فيه، والذي سبق ذكره آنفاً، وفي الطائف في الصيفية أيضاً تنتقل دروسي التي ألقيها بالرياض إلى الطائف هناك، وفي الأخير رتب لي درس في

المسجد الحرام في الأسبوع مرة تحت مسمى (دروس من القرآن الكريم) وسنواصل فيه - إن شاء الله - في المستقبل.

سؤال: العلوم والدروس التي تدرسونها يا شيخ صالح؟

- أنا أحرص على دروس العقيدة، لأن المسلمين بحاجة إلى معرفة العقيدة وتأصيلها؛ لأنها هي الأساس الذي يُبنى عليه جميع أمور الدين، ثم أيضاً دروس الفقه؛ لأن الفقه في الدين من أهم المهات، وكذلك درس في الحديث (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) ما زلت أواصل التدريس فيه، ونيتي إكماله - إن شاء الله - في الرياض وفي الطائف أيضاً.

سؤال: الشيخ صالح رعاكم الله، يلحظ اهتمام من فضيلتكم بمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ولكن لكم برنامج متميز في إذاعة القرآن الكريم، وهو (قراءة في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)، بودي أن تبدي لنا أهمية هذه الفتاوى التي كان لكم رحلة طويلة معها، وهل من الممكن إيجاد تعليقات مفيدة على بعض ما يوجد في هذه الفتاوى من المسائل المهمة التي ترون الحاجة إلى نشرها مع التعليق عليها؟

- لا يخفى ما لمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه ابن القيم، من أهمية عظيمة في تجديد هذا الدين وإحيائه، وإحياء السنة المحمدية، بعدما حصل على المجتمع الإسلامي من دخول أشياء أثرت

على العقيدة وعلى سلوك المسلمين، فجاء الله بهذا الإمام المجدِّد، فقام - رحمه الله - بتنبيه الأمة ودعوتها إلى الرجوع إلى الأصل الذي جاء به رسول الله ﷺ ونبذ البدع والخرافات والمحدَثات التي تجمعت في أفكار كثير من المسلمين، فأثرت عليهم حقبة من الزمن، فكان لدعوته ولمؤلفاته ولتلاميذه في إيقاظ المسلمين ما لا يجحده إلا مكابر أو ضالّ، ومن ذلك فتاواه، الفتاوى العظيمة المنبثقة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح في الاعتقاد وفي العمل وفي التعامل وفي الأخلاق، فهي فتاوى حافلة وسجل عظيم من سجلات هذا الدين الإسلامي العظيم. وفتاواه كثيرة، لكن الذي جُمع منها الآن هو هذا الكم الهائل الذي يبلغ خمسة وثلاثين مجلداً ضخماً، وهناك مؤلفات مستقلة مثل: (منهاج السنة النبوية)، ومثل: (اقتضاء الصراط المستقيم)، ومثل: كتابه (نقض التأسيس في الرد على الرازي)، ومثل: كتابه (الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح)، وهي كتب عظيمة. وكذلك رسالته العظيمة مثل: رسالة (الحموية) ورسالة (الواسطية) ورسالة (التدمرية)، وفي ردوده على القبوريين والخرافيين: كالرد على الأخنائي، والرد على ابن البكري، والرد على ابن سبعين، والرد على أهل وحدة الوجود، وعلى المتصوفة شيء كثير لا يمكن حصره، فنفع

الله - جل وعلا - بهذا الجهد العظيم نفع به المسلمين في مختلف العصور.

ويكفي من فضائل هذا المنهج العظيم هذه الدعوة المباركة التي قام بها شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، فإنها قامت على هذا التراث العظيم والمجد الأثيل الذي أصله شيخ الإسلام ابن تيمية، فالشيخ محمد بن عبدالوهاب قرأ هذه الكتب وهذه الفتاوى فانتفع بها وتأثر بها، وقام بالدعوة على ضوئها، وكان لها الثمرات العظيمة التي لا تخفى على كلِّ ذي بصيرة.

وقد طُلب مني من قبل الإذاعة، إذاعة القرآن الكريم، أن ألقي الضوء على شيء من هذه الفتاوى وإعطاء المستمعين فكرة ولو مختصرة عن هذه الفتاوى بالذات، وهذه الفتاوى إنما تمثل قسطاً يسيراً من جهود هذا العالم وهذا الإمام. ففرحت بهذا الطلب وقمت بقراءة هذه الفتاوى وكتابة ما تيسر من أجل تقريب ما فيها من علم وفقه في دين الله - عز وجل - ابتداءً من الجزء الأول، واستمر هذا البرنامج عدة سنوات، فكان برنامجاً أسبوعياً، فوصلت فيه إلى الجزء العاشر من مجموع الفتاوى، قدمت فيه حلقات خلال هذه السنوات، ثم إنه توقف هذا البرنامج لفترة، ولعله يعود النشاط فيه إن شاء الله.

وأما مسألة التعليق فإنني إذا سنحت فرصة ورأيت المناسبة وربط

الواقع بالماضي فإنني أعلق بعض التعليق لربط واقع الناس اليوم بما جاء في هذه الفتاوى، لأجل أن ينتفع بذلك من أراد الله - سبحانه وتعالى - من المستمعين.

سؤال: أثابكم الله، الحقيقة يا شيخ صالح إن من الملاحظ جداً لمن ينظر إلى واقع المسلمين، الجهل الذي يغشى مجتمعات المسلمين، خصوصاً فيما يتعلق بأمور عباداتهم ومعاملاتهم، ويظهر هناك حاجة ماسة نحو تعلم الفقه الإسلامي، خصوصاً بعد العلم بتوحيد الله - سبحانه وتعالى - وتحقيقه، وهناك محاولات من العديد من العلماء نحو إيجاد ما يسمى صياغة فقهية معاصرة تتناول النوازل والحوادث المستجدة، إلا أنها قد تكون في بداياتها. يا شيخ صالح، وأنتم قد كتبتم في العديد من المجالات الفقهية، وكان لكم إسهام مشكور ومذكور في ذلك، بل إنكم الآن تقررون وتدرّسون في دروسكم العديد من الكتب الفقهية، ولكم برنامج في إذاعة القرآن الكريم بشرح كتاب (زاد المستقنع). يا شيخ صالح، ألا ترون أن هناك حاجة ماسة لإيجاد موسوعة فقهية معاصرة بلسان معاصر كما يقولون؟ مع الاستفادة من الكتب التي تركها علماؤنا وسلفنا الكرام.

- لا شك أن ربط الناس بالفقه أمر مهم، لأن الفقه في الدين هو أساس العمل، فلا يمكن لغير الفقيه أن يعمل عملاً صالحاً ومستقيماً

إلا إذا كان على فقه في دين الله سبحانه وتعالى، ولذلك أمر الله بالتفقه في دينه وأثنى على المتفقهين، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ يعني للجهاد أو طلب العلم، لأن ذلك يعطل الأعمال ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ليتفقهوا في الدين، يعني ليتفهموا أمور دينهم.

فالفقه لغةً: هو الفهم، والفقه في الدين هو فهم أحكام الدين وشرائع الدين، وانظر كيف قدم (ليتفقهوا في الدين) على قوله: (ولينذروا)؛ لأن الإنذار والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يكون بعد الفقه والعلم، فلا يصلح الإنذار والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جهل، بل لا بُدَّ أن يكون ذلك عن فقه. ولذلك اتجهت همة السلف من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى وقت المسلمين الحاضر، اتجهت همتهم إلى العناية بالفقه وتفقيه الناس وتعليمهم أمورَ دينهم، وكان من ذلك هذه الحصيلة والثروة الفقهية العظيمة التي خلفها سلفنا الصالح، مقتبسة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فهذا الفقه الذي خلفه سلفنا الصالح إنما هو وسيلة تعينُ على فهم الكتاب والسنة والعمل بهما. والفقه في نظري ليس بحاجة إلى تجديد عبارة

أو صياغة جديدة، لأنه مصوغ بعبارة عربية فصيحة، والقدامى أفصح منا وأقدر منا على البيان، وأقدر منا على جمع المعلومات؛ لأن الله أعطاهم من المقدرة ما لم يكن لمن جاء بعدهم إلا من شاء الله سبحانه وتعالى، ففي نظري أن الفقه ليس بحاجة إلى تجديد عبارة أو صياغة، بل هو بحاجة إلى تعلم وعناية وإقبال عليه، وتعليم الناس إياه وتنشئتهم على فقه السلف الصالح، هذا هو المهم. أما مسألة الصياغة والتعبير الجديد هذا لو حصل ما كفى؛ لأن الناس في إعراض عن الفقه، فالآفة لم تأتِ من الصياغة أو العبارة، وإنما جاءت من انصراف الناس وجهلهم لهذا الأمر، فإذا وجهوا وعملوا حصل المقصود بدون أن نكلف أنفسنا وضع عبارة جديدة أو صياغة جديدة؛ لأننا لن نأتي بأفضلَ مما جاء به من سبقنا من أهل العلم والخبرة والمعرفة.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله، يا شيخ صالح ـ حفظكم الله ـ الفتوى في هذا العصر، بل في كل عصر، أحوج ما يكون الناس إليها، والوقت الحاضر شهد الكثير من الذين يتصدرون لمثل هذا الأمر وليسوا أهلاً لذلك، وأصبحت الفتوى في بحر يموج كلٌّ يدلي بدلوه بعلم أو بغير علم، هل هناك ضوابط يجب أن تضبط بها الفتوى لكي يسير كل واحد من المسلمين على نهج صحيح؟ ثم هذا التعدد في الفتوى، ألا يمكن أن

يجد بلبلة لدى كثير من عامة المسلمين؟

- لا شك أن أمر الفتوى أمرٌ مهم، والحاجة إلى الفتوى حاجة ضرورية؛ لأن الناس بحاجة إلى من يجيبهم عن تساؤلاتهم، وبحاجة إلى من يحل مشكلاتهم، وبحاجة إلى من يتناول قضاياهم. هم بحاجة إلى ذلك، ولكن لن يقوم بهذه المهمات إلا أهل العلم المختصونَ الفقهاءُ في دين الله عز وجل، فإذا قام بهذا الواجب وهذا العبء أهله من أهل العلم المختصين: حصل المقصود وحصل المطلوب، وانحلت المشكلات، ورجع الناس إلى أهل العلم وإلى أهل البصيرة، وإذا قام أهل العلم وأهل البصيرة بالنظر في مشاكل الناس وتقديم الحلول لها، على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: حصل المطلوب وانحلت المشاكل، كما كان ذلك في عصر سلف هذه الأمة لـمّا كان الناس يرجعون إلى العلماء الراسخين كانت مشكلاتهم تنحل، وكانت قضاياهم تُحل ببساطة على ضوء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والله أمر بذلك فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأمر الجهال بسؤال أهل العلم؛ لأن أهل العلم هم الذين يقدرون على إجابة الأسئلة الفقهية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، فأمر

الناس عندما يحصل إشكال أو يحصل أخذ وردّ في أمر من الأمور المهمة أن يرجعوا إلى الرسول ﷺ، وأن يرجعوا إلى أولي الأمر منهم أهلِ الشأن والمنزلة، وهم أهل الرأي وأهل الفقه وأهل الخبرة والتجربة، فحينئذٍ يخرجون إلى نتيجة مرضية: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

لكن حينما تكون الأمور فوضى، ويتولى الإجابة كل من هبَّ ودب ممن ينتسب إلى أهل العلم وهو جاهل، أو مَن عنده علم ولكن ليس عنده عمل، وإنما يتبع هواه ورغبته ورغبة الآخرين وإرضاء الآخرين، حينئذ يحصل الفساد، كما حصل لبني إسرائيل لما ضل أحبارهم ورهبانهم، فحرّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وأطاعهم عامة الناس، فهلك الجميع: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. فإذا صارت الأمور في أمور الفتوى وأمور العلم فوضى يجيب عنها الجهال الذين لا علم عندهم، أو يجيب عنها فساق العلماء الذين لا يتبعون ما أنزل الله على رسوله، وإنما يتبعون رغباتهم أو رغبات غيرهم، ويلتمسون للناس ما يرضيهم ولو بسخط الله عز وجل، فحينئذٍ يحصل الفساد في الأرض، وما هلكت بنو إسرائيل إلا بمثل هذا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ

لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾.

فلا يجوز الرجوع إلى أهل الأهواء وأهل البدع، ولا الرجوع إلى الجهال، وإنما يجب الرجوع إلى أهل العلم والعمل، أهل العلم النافع والعمل الصالح، وهذا هو الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فإن الله - سبحانه وتعالى - بعث رسوله بالهدى ودين الحق، فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فلا بد من اجتماع الأمرين: العلم النافع والعمل الصالح، أما إذا انفرد أحدهما عن الآخر فكان عمل بدون علم فهذا طريق أهل الضلال، أو كان علم بدون عمل فهذا طريق المغضوب عليهم. والله أمرنا أن نستعيذ به من الطريقتين: طريق المغضوب عليهم، وهم الذين عندهم علم وليس عندهم عمل، وطريق الضالين، وهم الذين عندهم عمل وليس عندهم علم، وأمرنا باتباع طريق المنعم عليهم، وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح. فلا تنضبط الفتوى إلا بهذا، يعني بأن يتولاها أهل العلم الراسخ والعمل الصالح، فإذا اختل شرط من هذين الشرطين حصل الفساد في الأرض، ولن يقتصر فساد هؤلاء على أنفسهم، وإنما يتناول هذا عامة الناس، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذا الأمر خطير والواجب التنبه له، والواجب على كل أحد حينما

يُسأل أن يتقي الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يتسرع إلى الجواب، فإن كان هناك من هو أعلم منه فليُحلِ السؤال إليه. ولقد كان السلف يتدافعون الفتوى وهم على علم، لكن يريدون أن يتولاها من هو أكبر منهم وأوثق منهم، وهذا من ورعهم ومعرفتهم بصعوبة الموقف، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، ويقول لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وإن كان ليس هناك من يتولى الفتوى فمن هو أعلم منه عليه أن يتقي الله وأن يتحرى في إجابته ما ينجيه عند الله هو أولاً ثم ينجي السائل أيضاً، فيعتبر نفسه أول من يتضرر بالفتوى الخاطئة.

سؤال: يا شيخ صالح ـ حفظكم الله ـ ننتقل الآن إلى جانب مهم، أو سؤال آخر، أعتقد وأحسب أنه من المتعين أن نطرحه على فضيلتكم. يا شيخ صالح، لا شك أن للإعلام دوراً مهماً في توجيه الناس والتأثير عليهم سلباً وإيجاباً، كيف ترون أهمية المشاركة من قبل طلبة العلم والعلماء في وسائل الإعلام، لا سيّما في هذا الوقت الذي يسمى عصر الإعلام فحسب؟

ـ لا شك أن توجيه الأمة في العصر الحاضر أهم ما يتولاه الجهتان، الجهة الأولى: جهة التعليم، والجهة الثانية: جهة الإعلام، فالواجب على هاتين الجهتين أن تعرف كل منهما مسؤوليتها وتأثيرها على مجتمع

المسلمين، فعلى جهة التعليم أن تتقي الله سبحانه وتعالى، وأن توجه شباب المسلمين وأبناء المسلمين إلى ما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم، وأن يعتنوا بتوجيههم الوجهة السليمة في عقيدتهم وفي عباداتهم وفي معاملاتهم وفي أخلاقهم، وذلك بالمحافظة على المناهج المستقيمة التي وضعها أهل العلم واستمرت سنين طويلة، وهي يستفاد منها في مجال التعليم.

على المسؤولين عن التعليم أن يحافظوا على هذه المناهج السليمة التي وضعها أهل العلم وأهل الخبرة ليستمر العطاء النافع والعطاء الخيّر.

والناحية الثانية جهة الإعلام، والإعلام أيضاً أهم، من ناحية أنه شامل للشباب وغيرهم، للحاضرة والبادية، ولأنه يدخل البيوت ويدخل في الدكاكين ويدخل في المراكب: البرية والبحرية والجوية، هو يصاحب الإنسان في كل حالاته، حتى على فراشه. فالإعلام جهة مهمة تنفذ إلى البيوت وإلى أي مكان، وتصاحب الناس، والذكور والإناث، والكبار والصغار، والحاضرة والبادية. فعلى المتولين لناحية الإعلام أن يتقوا الله سبحانه وتعالى، وأن يمحِّصوا برامج الإعلام ويوظِّفوها فيما هو نافع ومفيد للناس في دينهم ودنياهم، وأن يُجنبوا

برامج الإعلام ما هو سيىء وما هو منحرف وما هو مضيعة للوقت، فإن الإعلام إذا صلَح وجَّه الأمة خير وجهة، وإذا حصل فيه خلل حصل الخلل على جميع الناس، ويتولى كبر الإثم في ذلك من يقومون على وسائل الإعلام، وإنهم هم مسؤولون أمام الله سبحانه وتعالى، والنبيُّ ﷺ يقول: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

فلا شك أن القائمين على الإسلام رعاة على ما استرعاهم الله عليه، وأنهم سيسألون يوم القيامة، فالإعلام إذا وجِّه وجهةً سليمة صار أداة نافعة ومفيدة، وإذا وجه توجيهاً سيئاً امتد ضرره على جميع الناس.

وأما العلماء والدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ فيجب عليهم الدخول في هذا المجال، يجب عليهم الدخول في البرامج الإعلامية وأن يشاركوا فيها؛ لأنها وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فعليهم أن ينتهزوا هذه الفرصة وأن لا يتركوها لغيرهم، بل ينتهزون الفرصة ويدخلون في هذا المجال ويشاركون فيه بأكبر إسهام ممكن، ليحصل بذلك النفع للمسلمين في تعليمهم والإجابة عن مشكلاتهم، وفي توجيههم لما فيه صلاحهم وصلاح دينهم وفي تحذيرهم من الشرور ومن الفتن الزاحفة، والدعايات المضللة، فإن هذا مجال أهل العلم ومجال أهل الدعوة.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله يا شيخ صالح. يا شيخ صالح ـ حفظكم الله ـ الحقيقة يسود العالم الإسلامي في الوقت الحاضر العديد من مظاهر العودة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وهي مظاهر مبشرة ولله الحمد. البعض ينظر على هذه التوجهات بحذر وأنها ليست مرتكزة على علم شرعي أصيل، ولذلك من الممكن أن تزول وتتلاشى بين وقت وآخر، والبعض ينظر إلى هذه الرجعة، أو ما يعرف في مصطلح البعض: (بالصحوة الإسلامية) نظرة تفاؤل كبير، يا شيخ صالح، ما هو تعليقكم على مثل هذا الأمر؟

ـ لا شك أن هذا الدين سيظهر مهما تكالب الأعداء ومهما وقف ضده أهل الشر، فإنه سيظهر ويتغلب بإذن الله، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾، فلا بد أن يظهر هذا الدين بسلطته ونفوذه، أو بسلطانه ودليله ووضوحه على ما خالفه من الأديان، وعلى من عارضه من المعارضين، فلا بد أن تتضح الحقيقة أمام العقلاء مهما زيف الأعداء ومهما روَّجوا ضد هذا الدين، فإن شمس الحقيقة ستكشف هذا الضباب الذي روجه أعداء الدين حول هذا الإسلام وحول هذا الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ يُرِيدُونَ

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، لا بُدَّ من هذا.

وأمّا ما تفضَّلت به من صحوة الشباب ورغبتهم في الخير، وكثرة التائبين والراجعين إلى الله، فهذا من هذا الباب الذي ذكرنا، هذا من ظهور الدين وظهور الحقيقة، وأن الناس ملّوا الآن من المناهج والمباهج الأخرى والمغريات، وملوا من الكذب والدجل، اتجهوا إلى الحقيقة، وليس أمامهم حقيقة إلا هذا الدين، وغيره كله زخرف وكله بهرج وكله كذب، فرجوع الناس إلى هذا الدين أمر حتمي، وهذا شيء أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

هذا حقيقةٌ شيء ثابت، وتوجه الشباب وتوجه الناس نحو الدين هذا مما أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه، ولكن الشأن في استغلال هذا التوجه، فإن استغل هذا التوجه في الشباب وغيرهم نحو الدين استغلالاً حسناً، وفقهوا في دين الله عز وجل، ورجع هؤلاء الشباب وهؤلاء التائبون إلى أهل العلم واسترشدوا بآرائهم، صار هذا الرجوع حقيقياً واستمر وأفاد، أما إذا استغل هذا الرجوع أهل الشر وأهل النفاق،

فوجهوا هؤلاء الراجعين إلى الدين توجيهاً سيئاً، وزيفوا عليهم الحقائق باسم الدين، فإن العاقبة ستكون سيئة.

فالخوارج من قبل كان عندهم دين وعندهم حماس وعندهم محبة للجهاد في سبيل الله وغيرة على الدين، وعندهم عبادة عظيمة من صيام وصلاة وقراءة القرآن، ولما لم يكونوا على وجه صحيح، ولم يرتكز توجيههم على دين صحيح وفقه في دين الله، صار وبالاً عليهم، وحصل عليهم من النكبات ما حصل، كل هذا بسبب عدم التوجه الصحيح، وعدم الرجوع إلى أهل العلم، وعدم الرجوع إلى أهل الفقه في دين الله ـ عز وجل ـ لما استقلوا برأيهم واستثارهم الأشرار باسم الدين والغيرة، فحصل عليهم وعلى غيرهم من النكبة ما حصل.

فالواجب على أهل الصحوة وعلى الراغبين في دين الله ـ عز وجل ـ نسأل الله أن يزيدهم من الخير وأن يزيدهم من الثبات، لكن نريد منهم وننصحهم أن يتوجهوا إلى العلم الصحيح، وإلى أهل العلم وإلى تلقي العلم عن أهله، وإلى استغلال فرصة وجود العلماء لينهلوا من علمهم وتوجيههم، وأن يستشيروا أهل الرأي وأهل العقول السليمة من كبار السن ومن أهل الخبرة، وأن لا يستقلّوا برأيهم، أو يستغلهم أعداؤهم من الأشرار باسم الدين، الذين يمكن أن يفسروا الدين بمحاربة الدين.

هذا شيء واقع يمكن أن يوظف اسم الدين لمحاربة الدين والقضاء عليه، كما فعل المنافقون من قبل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

المكر قديم، واستغلال هذا الدين باسم الدين قديم، فعلينا أن ننتبه لهذا الأمر، فهذا الرجوع وهذه الصحوة إن وجهت توجيهاً صحيحاً أصبحت خيراً على أهلها وعلى غيرهم، وإن استغلت استغلالاً سيئاً من قبل أهل الشر وأهل النفاق ودعاة الضلال، أو أن أهل الصحوة هؤلاء اعتمدوا على أنفسهم وعلى علمهم وزهدوا بما عند غيرهم من علم، حصل الشر وحصل الفساد باسم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سؤال: أثابكم الله، أحسنتم يا شيخ صالح. يا شيخ صالح حفظكم الله، المرأة المسلمة في هذا الوقت تواجه العديد من السهام المسمومة التي تحاول المساس بكرامتها وعفتها، وابعادها عن الطريق السوي والصحيح، المرأة المسلمة أعتقد أنها من أحوج الناس إلى أن تستمع إلى كلمة من فضيلة الشيخ صالح الفوزان في هذه المناسبة.

- المرأة المسلمة لا شك أن لها مكانةً عظيمة في الإسلام، وفي التربية والتوجيه، وفي القيام بعبء من أعباء الحياة، فالمرأة عون للرجل،

فالرجل لا يستطيع الاستقلال بنفسه وبمهمته إلا وبجانبه المرأة تقوم بدورها وبمهمتها، فمنذ أن خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ خلق منه زوجه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: يحصل بينهما السكن، قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ومن أعظم فوائد المرأة بجانب الرجل حصول السكن بين الزوجين، السكن: يعني السكينة والطمأنينة، وأن يطمئن كل منها للآخر، فهما شريكان يؤسسان شركة عظيمة وهي البيت المسلم الذي ينشأ عنه الجيل والأجيال المسلمة، فالرجل يكتسب ويكد ويكدح ويسافر ويتعرض للأخطار في طلب العيش، والمرأة في البيت تربي وتصلح أعمال البيت وتحفظ البيت حتى يأتي صاحبه، تربي الأولاد وترعاهم، وإذا جاء الزوج متعباً ومثقلاً بالأعمال وجد أمامه الزوجة التي يسكن إليها، والتي هيأت له الراحة وهيأت له ما يحتاج إليه، وبذا حصل التعاون بين الرجل والمرأة. وأيضاً الأولاد الذين يحصلون بين الرجل والمرأة، من الذي يتولاهم؟ الرجل يسافر لطلب الرزق ويغيب المدة الطويلة، من الذي يتولى هؤلاء الأطفال إلا المرأة، إلا أمهم التي تربيهم وتقوم عليهم وتسد غيبة والدهم. ولهذا قال ﷺ: «والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»،

مسؤولة عن بيت الزوج وما فيه ومن فيه من الذرية، هي المسؤولة عن ذلك، فهي مسؤولية عظيمة، ولها مكانة عظيمة ولها أجر عظيم، إذا أطاعت زوجها وصلّت فرضها وأطاعت ربها دخلت جنة ربها، فهي عليها مسؤولية عظيمة، وهي تؤدي دوراً مهماً في المجتمع، ولها أجر عظيم إذا قامت بوظيفتها في الحياة.

أما إذا ضيعت وظيفتها، ضيعت رعيتها التي هي راعية لها ومسؤولة عنها، وخرجت إلى عمل غير عملها فإنها مسؤولة أمام الله، فيسألها الله يوم القيامة عن هذه الرعية التي ضيعتها وخرجت لطلب الأعمال هنا وهناك، وضيعت عمل البيت. المرأة لا شك لها دور عظيم، فإنها هي الأم وهي الزوجة وهي القريبة، وهي محلُّ الأمانة ومحلُّ الذمة في غياب الزوج، وحتى في حضرة الزوج هناك أعمال لا يقوم بها الزوج ولا يدري عنها؛ لأنها هي من عمل المرأة، فمهمتها عظيمة.

وأعداء الإسلام يحاولون أن يصرفوا المرأة عما هُيِّئت له، وأن يولوها مهمةً غير مهمتها، وبهذا يحصل الفساد في المجتمع والنكسة العظيمة، فالمرأة إذا خرجت عن طورها وتولت عملاً غير عملها، هي أولاً لا تنتج في هذا العمل كما ينبغي، وثانياً هي تضيع مسؤوليتها ورعيتها المسترعاة عليها أمام الله سبحانه وتعالى، بالتالي يضيع المجتمع بأسره

وبيوته، فإذا ضاعت البيوت والأسر ضاع المجتمع كله، وهذا ما يريده أعداء الإسلام، يريدون أن يتخذوا من المرأة، سلاحاً يطعنون به المسلمين وهم لا يشعرون بحجة تثقيف المرأة، وأنها قرينة الرجل، وأن...، وأن... إلى آخره.

نعم، نحن نقول: المرأة قرينة الرجل، المرأة لا شك أنها إنسان وأن لها كرامتها، وأن لها احترامها، وأن لها أعمالها الخاصة بها، وإذا ضيعت هذه المهمات خسرنا نصف المجتمع كما يقولون. أما إذا أخرجناها من بيتها وولّيناها عملاً غير عملها، هنا ضاع المجتمع كله، فيجب التنبه من هذه الدعايات المغرضة، وهذه الأفكار الخبيثة التي تريد إفساد المسلمين بسلاح المرأة.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح أثابكم الله. يا شيخ صالح، لا شك أن هناك في الوقت الحاضر العديد من المفاهيم التي حاول البعض المساس بها أو تأكيدها، وهناك قضيةٌ أو ما يعرف بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، والعلاقة بين ولاة الأمر والرعية، حاول البعض إيجاد شيء من اللبس والتشكيك في هذه العلاقة، وظهر في الساحة العديد من المفاهيم والأغلاط في هذا الأمر، بودي من الشيخ صالح الفوزان أن يتفضل ويتكرم مشكوراً ببيان البيان الشرعي لهذه المسألة المهمة.

- لا شك أن هذا جزء من المكر الخبيث الذي يحوكه أعداء الإسلام،

هم حاكوا قضية المرأة، وحاكوا أيضاً قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم؛ لأنهم يعلمون أنه إذا حصل الوئام بين الحاكم المسلم والرعية المسلمة حصل الاجتماع، حصلت القوة، فحصلت المواجهة مع الأعداء، فهم يريدون أن يقوضوا هذا البنيان، وأن يفصلوا بين الحاكم وبين المحكومين حتى يتنافر المجتمع، وحتى يسهل عليهم ابتلاع المسلمين والتدخل في شؤونهم، الله جل وعلا أولى هذا الأمر عناية عظيمة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾. عندنا آيتان كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، آيتان: واحدة للراعي وواحدة للرعية.

فالتي للراعي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، هذه توجيه للرعاة: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

والآية التي بعدها في الرعية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، فلو أن الرعاة والرعايا

عملوا بهاتين الآيتين لحصل الخير الكثير، لانسد على دعاة الفتنة ودعاة الشر كل طريق للإفساد، ولذلك كتب شيخ الإسلام ابن تيمية على هاتين الآيتين كتاباً مستقلاً أسماه: (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، وهو كتاب مطبوع ونافع ومتداول يجب الرجوع إليه في هذا الأمر المهم.

فلا شكَّ أن طاعة ولاة أمور المسلمين هي أمر مهم، وهي طاعة لله وطاعة للرسول ﷺ.

قال ﷺ: «من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني»، وأمر بطاعتهم ولو جاروا ولو ظلموا ما لم يرتكبوا مكفراً ناقضاً من نواقض الإسلام، لما في ذلك من المصلحة العامة، ولما في الخروج عليهم من المفاسد العظيمة، وإن كان بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنّ ما يترتب على الخروج عليهم من سفك الدماء وتفريق الكلمة وتسلط الأعداء أعظم مما يحصل من إنكار المنكر الجزئي، وإنكار المنكر إذا ترتب عليه منكر أعظم فإنه لا يجوز، بل يجب ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما.

فالواجب طاعتهم إلا إذا أمروا بمعصية الله، فإنهم لا يطاعون في المعصية، لكن يطاعون في غيرها من الأوامر، قال ﷺ: «لا طاعة

لمخلوق في معصية الخالق»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الطاعة في المعروف» يعني تجتنب المعصية، لكن يطاعون في غيرها مما ليس فيه معصية، لما في ذلك من جمع الكلمة وحزم الرعية. ويقول شيخ الإسلام كلاماً معناه: ما خرجت أمة على رعاتها إلا حصل من الفساد ما هو أعظم من مفسدة البقاء على طاعتهم مع ما فيه من المعصية. هذه قاعدة معروفة.

وإذا تتبعت واقع العالم وجدت هذا صحيحاً حتى عند الكفار، فالكفار إذا أطاعوا رؤساءهم وانقادوا لولاتهم حصل لهم الأمن، وإذا حصل منهم نزاع بينهم وبين رعاتهم حصل الفساد، فكيف بالمسلمين؟ وإذا استقرأت التاريخ وجدت ما يحصل من المفاسد في الخروج على الولاة أعظم من المفاسد في البقاء على طاعتهم مع معصية جزئية.

أما إذا وصل الأمر في الولاة إلى الكفر، بالخروج عن الإسلام، فإنها لا تجوز طاعتهم: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. والنبي ﷺ يقول: «اسمعوا وأطيعوا إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم عليه من الله فيه برهان».

فإذا قرأت تاريخ المسلمين، وما حصل من الخوارج والمعتزلة في منازعتهم لولاة الأمور، وما حصل من الويلات والحروب، وما

حصل من تسلط الأعداء وسفك للدماء، عرفت قيمة أوامر الله وأوامر الرسول ﷺ بالسمع والطاعة واجتماع الكلمة.

أسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يوفقنا جميعاً، وأن يوفق المسلمين لما فيه الخير والصلاح في دينهم ودنياهم، وعلى المسلمين جميعاً أن يعرفوا وقتهم وأن يعرفوا مكانتهم ويعرفوا زمانهم، ويعرفوا العدو من الصديق، عليهم أن يعرفوا العدو من الصديق، وأن يقبلوا من الناصح وأن يرفضوا العدو ولو تظاهر لهم بمظهر الناصح ومظهر المشفق ومظهر الصديق، فإن العدو لا يكون صديقاً أبداً مها تظاهر، ولكن الناصح هو الصديق في الحقيقة وإن رأيت منه ما لا تقبله في أول الأمر، يعني لو واجهك بشيء تكرهه من أخطائك فإنه خير لك ممن يمدحك ويثني على جميع أعمالك، فالذي يذكر لك شيئاً من عيوبك هذا هو الناصح، وهذا خير لك، فإنْ تكرهْ بعض مصارحته لك خير لك من هذا الذي يتملق لك ويمدحك ويزكي جميع أعمالك، هذا هو الصديق في الحقيقة. والمنافق والغاش هو عدو وإن تظاهر لك بمظهر الصديق والناصح، وعواقب الأمور تبين هذا. فعلى المسلمين أن يقبلوا من الناصحين، ولهذا لما حصل الهلاك على قوم صالح عليه الصلاة والسلام وأخذتهم الصيحة ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ هكذا، فالواجب على المسلمين أن يعرفوا هذا.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاهُ، أمّا بعد:

فإنَّ الإيمان هو أحد مراتب الدين، لأنَّ دين الإسلام على ثلاث مراتب كما جاء ذلك في حديث سؤال جبريل ـ عليه السلام ـ للنبيِّ ﷺ، حيث سأله ﷺ عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ولمّا انتهى وخرج قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «أتدرون مَن السائل؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا جبريلُ أتاكم يعلِّمكُم دينَكُم»[1]، وكان قد أتاهم في صورة رجلٍ طالبٍ للعلم، فدلَّ هذا الحديث على أن الدِّين يتكون من ثلاث مراتب:

الأولى: الإسلام.

الثانية: الإيمان.

الثالثة: الإحسان.

وكلُّ مرتبة أعلى من التي قبلها، والمقصود الآن هي المرتبة الثانية

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهي الإيمان، فقول الشيخ رحمه الله: «أصول الإيمان»؛ أي: أدلَّته؛ لأن الأصل عند الأصوليِّين هو الدَّليل، ففي هذا الكتاب ذكر الشيخ فيه أدلة الإيمان من الأحاديث الواردة عن النبيِّ ﷺ.

والإيمان في اللغة: التَّصديق، يقال: آمَن له ؛ أي: صدَّقه، وكذا في قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، أي: صدَّقه، حيث صدَّق لوطٌ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمصدِّقٍ لِما قلناه لك. هذا مفهوم الإيمان لغة.

وأمّا الإيمان شرعاً فقد عرَّفه أهل السُّنة والجماعة بأنه: قولٌ باللسان، واعتقاد في القلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وهذا التعريف مأخوذ من الكتاب والسُّنة، فتعريفه بهذا التعريف إنما هو من باب الحقيقة الشرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عُرفية. والحقيقة الشرعية هي التي جاء بها الشرع، وقد جاء الشرع في أنَّ الإيمان يتكون من هذه الأشياء الثلاثة: نُطقٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، ولا بدَّ من اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

فليس الإيمان هو نطق باللسان فقط كما تقول الكرَّامية، وليس

هو اعتقاد بالقلب فقط كما تقول الأشاعرة، وليس هو النُّطق باللسان والاعتقاد بالقلب كما تقول الحنفية، وإنما هو بمجموع الثلاثة معاً: نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ فإذا عمل الإنسان الطاعات زاد إيمانه، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]؛ وكلما عمل الإنسان طاعة زاد إيمانه حتى يعظُم هذا الإيمان، وكلَّما عمل معصية، فإنه يضعف إيمانه وينقص حتى إنه ليصل إلى مقدار حبَّة الخردل أو أقلَّ كلما ازداد في عمل المعاصي، فالناس ليسوا في الإيمان سواء. فمنهم مَن إيمانه عظيم، ومنهم مَن إيمانه قليل. وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَن رأى منكم منكراً فليغيِّرْهُ بيدِه، فإن لم يَستطعْ فبلسانِه، فإن لم يَستطعْ فبقَلبه؛ وذلك أضعفُ الإيمان»(١)؛ فدلَّ هذا على أنَّ الإيمان يكون ضعيفاً ويكون أضعف.

وكذلك جاء في الحديث أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «أخرجوا

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

مِن النار مَن كان في قلبه مثقالُ حبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ من إيمان»[١]؛ يعني: أقلَّ الناسِ إيماناً، فإنه يخرج من النار، ولا يبقى في النار إلاّ مَنْ ليس في قلبه إيمانٌ أصلاً، من الكفّار والمنافقين والملاحدة، وأمّا من كان في قلبه إيمان ولو عُذِّب في النار ومكث فيها مدّة، فإنَّ الله يخرجه منها بإيمانه ولو كان ضعيفاً.

والشاهد من كل هذا هو بيان أن الإيمان قد يكون ضعيفاً؛ قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فدلَّ هذا على أنَّ هناك إيماناً ضعيفاً يكون أقرب إلى الكفر، هذا معنى قولهم: «وينقص بالمعصية»، وهذا تعريف دقيق مأخوذٌ من النصوص.

والإيمان له أركان بيَّنها النبيُّ ﷺ بقوله: «أن تؤمنَ بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرِّه»[٢].

والإيمان كذلك له شُعب تزيد عل ستين أو سبعين شعبة كما قال ﷺ: «الإيمان بِضعٌ وسبعون، أو بضع وستون شعبة: أعلاها

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان»[١]؛ فشُعب الإيمان وخصاله كثيرة. وهذا الكتاب بيَّن فيه الشيخ رحمه الله ما ورد عن الرسول ﷺ من خصال الإيمان وشُعبه.

وأول هذه الشُّعب: معرفة الله سبحانه وتعالى، وذلك بأن يعرف العبد ربَّه بأسمائه وصفاته الواردة بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، لأن الله تعرَّف إلى عباده بأسمائه وصفاته، وهو أعلم بنفسه ـ سبحانه وتعالى ـ فما سمّى الله تعالى به نفسَه وجب الإيمان به، وبه يُعرف جلّ وعلا، فمثلاً يُعرف تعالى بأنه الله الذي لا إله إلا هو الحيّ، القيوم، الرَّحمن، الرَّحيم، العزيز، الحكيم، فهذه كلها أسماء لله جلّ وعلا، وأما صفاته فكل اسم من أسمائه يتضمَّن صفة، فالعليم يتضمَّن العلم، والحكيم يتضمَّن الحكمة، والرحيم يتضمَّن الرَّحمة، والكريم يتضمَّن الكرم، والعظيم يتضمَّن العظمة، وهكذا، فأسماء الله تعالى ليست أسماء مجرَّدة، وإنما هي أسماء حُسنى وعظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فوصفها بأنها حُسنى، فكل اسم منها يتضمَّن صفةً من صفاته جلّ

(١) أخرجه مسلم (٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وعلا، حيث قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فالإنسان يعرف الله جلّ وعلا ويدعوه بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

وهذه الأسماء والصفات توقيفية، فلا أحد يسمّي الله إلاّ بما سمّى به سبحانه وتعالى نفسَه، أو سمّاه به رسولُه، فلا أحد أعلم بالله من الله جلَّ وعلا، ولا أحد أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ؛ فلذلك لا يجوز وَصفُ الله تعالى أو تسميته إلا بما ورد في كتاب الله جل وعلا، وسُنَّة رسوله ﷺ، لأنَّ الله جلَّ وعلا أعلمُ بنفسه وبغيره، وأحسنُ حديثاً من خَلْقه، فنحن نعرف الله بأسمائه وصفاته ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال الشيخ الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

باب معرفة الله تعالى والإيمان به

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه» رواه مسلم(١). [١]

---

[١] هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهو ما يرويه النبيُّ ﷺ عن ربِّه، فلفظه ومعناه من الله جلَّ وعلا، فتكلَّم الله به ورواه رسوله ﷺ وبلَّغه لأُمته.

وقوله: «قال الله تعالى» فيه إثبات القول والكلام لله تعالى، وهذه صفة من صفاته جلَّ وعلا.

---

(١) برقم (٢٩٨٥).

وقوله: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك» فيه إثبات الغِنى لله عزَّ وجل، فالله جلَّ وعلا يقول: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٦٨]؛ فالله تعالى غنيٌّ عن خلقه لا يحتاج إلى مُعين ولا إلى شريك ولا إلى ظهير، فهو غنيٌّ عن خَلقه، وخلقهُ محتاجون إليه؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] فهذا فيه وصف الله بالغنى، وفيه نفي الشِّرك عنه جل وعلا؛ إذْ ليس له شريك في الملك وليس له شريك في العبادة، ولا في أسمائه وصفاته، فالله واحد أحد، فَرْد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤]، هذه صفة الله جلَّ وعلا. ولما قال المشركون للنبيِّ ﷺ: صِفْ لنا ربَّك، أنزل الله هذه السورة[(١)].

ففي هذا تنزيهُ الله ـ تعالى ـ عن الشِّرك، وأنَّ العمل الذي يقع فيه الشِّرك لا يتقبَّله الله؛ ولهذا قال كما في هذا الحديث القدسي: «تركته

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٧٤٠ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه موقوفاً.

وشِرْكَه»، فالعمل الذي فيه شرك لا يقبله الله تعالى، وهو مردود على صاحبه وباطل، فهو ـ سبحانه ـ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، وكان صواباً على سُنَّة نبيِّه ﷺ.

[نفي النوم عن الله تعالى]

٢- وعن أبي موسى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلماتٍ فقال: «إن الله تعالى لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفضُ القِسطَ ويَرفعُه، يُرفع إليه عملُ اللَّيل قبل عملِ النَّهار، وعمل النَّهارِ قبل عملِ اللَّيل، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لأحرقتْ سُبحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصرُه مِن خَلقِه» رواه مسلم(١). [٢]

[٢] هذا حديث عظيم، فيه تعريفٌ بالله جلَّ وعلا، فقوله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينام» فقد نفى الله تعالى عن نفسه النوم في القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأن النوم موتة صغرى، ولأن النَّوم ضعف في النائم، والله يُنزَّه عن ذلك، وذلك لكمال حياته ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهو سبحانه لكمال حياته ولكمال قيُّوميَّته ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾: وهي النُّعاس الخفيف ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ مُستغرِق، فهو سبحانه منزَّه عن ذلك؛ لأنَّ النَّوم من صفات البشر والمخلوقين، وهو صفةُ نقص.

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

وقوله ﷺ: «ولا ينبغي له أنْ ينامَ» يعني: لا يليق به ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينام، لأنه الكامل في حياته وقيُّوميَّته جلَّ وعلا، فهو منزَّه عن هذه الصفة، فلا ينبغي له أن ينام.

وقوله: «يَخفِضُ القِسطَ ويَرفعُه»، قوله: «يَخفض القسطَ» بمعنى أنه ينزِّل على عباده أرزاقهم وما كتبه سبحانه لهم، والقِسط: العدل والميزان، وقوله: «ويرفعه» بمعنى أنه يُرفع إليه العمل الذي اكتسبه بنو آدم، والله جلَّ وعلا ـ دائماً هذه صفته، يُنزِّل الأرزاق والمقادير على عباده، وتُرفع إليه الأعمال، خيرُها وشرُّها، صالحها وسيئُها؛ فهذا فيه تنزيه الله سبحانه عن النَّوم، ووَصفُه بالحياة الكاملة، ووصفُه جلَّ وعلا بأنه يُدبِّر أمور الخلق، ويُحصي أعمالهم؛ ليُجازيَهم بها يوم القيامة.

وقوله ﷺ: «يُرفع إليه عملُ اللَّيلِ قَبل عملِ النَّهار، وعمل النَّهار قبل عمل اللَّيلِ» هذا من عمل الحَفَظَة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وفي الحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلون وأتيناهم وهم يُصلون»[(١)]، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ أي: محضوراً، تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر كما في الحديث، ولهذا كانت هاتان الصلاتان أفضل الصلوات الخمس، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [ق: ٣٩] أي: الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، أي: العصر، ففيهما فضيلة على غيرهما لحضور الملائكة فيهما.

وقوله ﷺ: «حِجابُه النُّور لو كَشَفه لأحرقتْ سُبحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بَصرُه من خَلْقِه» هذا فيه وصف الله جلَّ وعلا بالنُّور؛ والنُّور على قسمين:

١- نورٌ هو من صفات الله جلَّ وعلا؛ أي: نور الله سبحانه وتعالى.

٢- ونورٌ مخلوق، كنور الشمس ونور القمر.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٩)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهناك نور آخر وهو نور الوحي؛ فالله جلَّ وعلا هو النور، ومنه النور، ونور الله جل وعلا قد حَجَبه عن رؤية عباده له، لأنهم لا يستطيعون رؤيته جل وعلا في الدنيا، ولو تجلّى لشيء من خلقه لاحترق، وفي قصة موسى عليه السلام لمّا جاء لموعد الله له يتلقّى منه التوراة أوضحُ الدليل على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فهذا الجبل الجماد الصّلب لما تجلّى الله له اندكَّ وصار تراباً وعندها ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، أي: مغشيّاً عليه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يرى الله سبحانه وتعالى؛ لأن حجابه النور، وفي ليلة المعراج سئل النبيُّ ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه»[1]؛ وذلك لأنه سبحانه حجابه النور، فلا يراه أحد في هذه الدُّنيا لا النبي ﷺ ولا غيره؛ إذ الخلق لا يستطيعون رؤيته لعظمته

(١) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

سبحانه وتعالى، ولهذا قال: «ولو كشفه» أي: لو كشف الحجاب «لأحرقت سُبحاتُ وجهه» أي: نور وجهه وجلاله «ما انتهى إليه بَصرُه من خَلقه».

فهذا فيه وصف الله سبحانه وتعالى بأنَّ له حجاباً يحتجب به عن المخلوقات؛ لأن المخلوقات لا تطيق رؤية الله سبحانه وتعالى في هذه الدُّنيا.

وفي الحديث إثبات البَصَر لله سبحانه وتعالى؛ لقوله ﷺ: «ما انتهى إليه بَصرُه»، ولقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]. فهو سبحانه وتعالى يرى ويُبصر عباده فلا يحجبه عنهم شيء، لا جدران ولا حصون، ولا ظُلمة ولا ستائر ولا أيُّ شيء، فيراهم أينما كانوا.

فهذا الحديث حديث عظيم فيه إضافةً إلى ما سبق وصفُ الله جلَّ وعلا بالحجاب، وأنه نور، وأنه لو كشف هذا الحجاب لاحترق ما ينتهي إليه بصره من خلقه، وبصر الله جلّ وعلا لا يحجبه شيء، وفيه بيان الحكمة من الحجاب وهي كما جاء في هذا الحديث خشيةَ أن يحترق ما انتهى إليه بصره سبحانه من خلقه، وأن المخلوقات لا تستطيع مقابلة جلال الله سبحانه وتعالى لعظمته.

وأمّا في الآخرة، فإن الله جلّ وعلا يُعطي أهل الجنة قوة يستطيعون بها رؤيته سبحانه، وهذا من إكرامهم لما عبدوه في هذه الدنيا ولم يَرَوْهُ، بل عبدوه إيماناً به سبحانه فأكرمهم الله بأن يتجلّى لهم يوم القيامة في الجنّة ويرونه جلَّ وعلا، فيرونه في عَرَصات القيامة ويرونه في الجنّة[1]، لأنه سبحانه يعطيهم قوة ليست لهم في هذه الدنيا، وإنما هي لهم في الآخرة، فيستطيعون بها رؤيته سبحانه ويتلذّذون بها، وهذا من كرمه سبحانه وتعالى لهم.

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

[ما جاء في أن لله يميناً]

٣- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «يمينُ الله ملأى لا تَغيضُها نفقةٌ، سَحّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خَلق السَّماوات والأرضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَمينِه، والقِسطُ بيَدِه الأخرى، يَرفع ويَخفضُ» أخرجاه(١). [٣]

[٣] هذا الحديث فيه وصفٌ لله جل وعلا بأنَّ له يدين، وهو سبحانه أثبت هذا في القرآن الكريم فقال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أي: لآدم عليه السلام، خلقه الله بيديه، ففيه إثبات اليدين لله، وأنَّ له يميناً.

وفيه وصف الله تعالى بالجود والكرم، وأنه هو الذي ينفق على عباده، فيَدُه «سحّاءُ اللَّيلَ والنهارَ»، والسَّح: الصَّبُّ الدائم؛ أي: دائمة بالعطاء والجود والكرم.

وقوله: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه» أي: لا تنقص خزائنه سبحانه وتعالى بالإنفاق؛

---

(١) البخاري (٤٦٨٤)، و(٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣) وفيه عندهما «القبض» بدل «القسط».

لأنه الغنيّ؛ قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧] فجميع الأرزاق التي للآدميِّين وللبهائم وللحشرات وللطيور وللوحوش كلها من رزق الله وإنفاقه على مخلوقاته، وعلى كثرة هذا الإنفاق لا ينقص ما عنده سبحانه وتعالى، بخلاف المخلوق، فإنه وإن كانت عنده ثروة هائلة فإنه إذا ما أنفق منها فإنها تنقص حتى تنفد؛ قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

وفي هذا الحديث إثبات اليد لله ووصفها باليمين، وجاء أيضاً وصف الأخرى بالشمال، وكلتا يديه تعالى يمين، فهي شمال ليست كشمال المخلوقين، بل هي شمال وهي يمين أيضاً، واحدة من يديه سبحانه فيها الإنفاق على العباد، والأخرى فيها القسط.

وقوله: «يَمِينُهُ مَلأَى» أي: يده سبحانه ملأى بالرزق والخير «لا تغيضها نفقة» أي: لا ينقص ممّا في يمينه سبحانه وتعالى بما ينفق على عباده.

وقوله: «سَحّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ» سحّاء؛ أي: كثيرة العطاء الذي

لا حدَّ له، فعطاؤه مستمر ليلاً ونهاراً، فلا يعطي في وقت ويمنع في وقت آخر كالمخلوقين، فعطاؤه دائم في جميع اللحظات والساعات.

وقوله: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يَغِض ما في يمينه» هذا تقريب لبيان سعة الرزق وكثرته من الله عزَّ وجلّ وغناه، وأنه مع كثرة إنفاقه فإنه لا ينقص ما في يمينه ولا ممّا في خزائنه، بخلاف المخلوقين فإنهم إذا أنفقوا فإنه ينقص مما عندهم فينفد، فإذا تأمّلت هذه المخلوقات في البرّ والبحر وجدتَ أنها كلها تعيش من رزق الله، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فهو سبحانه ينفق على هذه المخلوقات منذ خلق السّماوات والأرض، فلم ينقص ذلك مما عنده شيئاً، ولم ينقطع رزقه سبحانه وتعالى عن مخلوقاته، فهذا دليل على كمال غناه، وأن هذا الإنفاق في هذا الزمان الطويل لم يُنقص ما في يمينه جلّ وعلا.

قوله: «والقِسْط بيده الأخرى يرفع ويخفض» هذا فيه بيان أن الله سبحانه وتعالى يَدَين، اليد اليمنى فيها العطاء والكرم والجود والإنفاق على عباده، والثانية فيها القسط والعدل، «ويخفض»، أي: يرفع، ويخفض المقادير ويُنزلها على عباده، ويرفع أعمالهم ويُحصيها.

[ما جاء في وصفه الله تعالى بالعلم]

٤- وعن أبي ذرّ ﷺ قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين يَنْتَطِحان فقال: «أتدري فيمَ يَنتطحانِ يا أبا ذرّ؟» قلت: لا، قال: «لكن الله يدري وسيَحكم بينهما» رواه أحمد(١). [٤]

[٤] هذا الحديث فيه وصفُ الله تعالى بالعلم، وأنه سبحانه وتعالى يدري ما يدور بين مخلوقاته حتى الذي يكون بين البهائم.

فقوله: «شاتانِ ينتطحان فقال: أتدري فيمَ ينتطحانِ» أي: ما السبب الذي جعل بينهما هذا التضارب والتدافع؟ فقال أبوذر: لا، فقال ﷺ: «ولكن الله يدري» أي: الله يعلم ما بين هاتين الشاتين، وإذا كان هذا في الشاتين ففي غيرهما من باب أولى، فهو سبحانه يعلم ما يدور بين العباد من الاختلاف والنِّزاع والشِّقاق لا يخفى عليه شيء، وأنه تعالى يحكم بينهم يوم القيامة، حتى إنه جلَّ وعلا يحكم بين البهائم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، فالوحوش تُحشر وتُبعث يوم القيامة ويُقتصُّ من بعضها لبعض كما قال ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ حتى

(١) في «المسند» برقم (٢١٤٣٨).

يُقادَ للشاة الجَلْحاءِ منَ الشاة القَرْناء»(١)، فإذا جرى القصاص بين الحيوانات قال الله جلَّ وعلا لها: كوني تراباً، فتكون تراباً، فهي تُبعث من أجل القصاص فيما بينها، وإذا كان القصاص والحكم بالعدل يجري بين البهائم فبين غيرها من باب أولى، وهذا من عدله سبحانه وتعالى. والحديث فيه صفتان من صفات الله:

الأولى: علم الله جلَّ وعلا بما يجري بين المخلوقات على اختلاف أصنافها.

والثانية: الحكم، حيث إنه جلَّ وعلا يحكم يوم القيامة بين الناس وبين الحيوانات، فيقضي بينهم ويُنصف المظلوم من الظالم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى]

٥- وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ويضعُ إبهامَيه على أذنيه والتي تليها على عَينيه. رواه أبوداود وابن حبّان وابن أبي حاتم[(١)]. [٥]

---

[٥] الأمانات: جمع أمانة: وهي كل ما أُؤتمن عليه من الأموال والأسرار والأعمال المسندة إلى المؤتَمَن، وكلُّ المسؤوليات أمانة، فليست الأمانة خاصة بالوديعة كما يفهم بعض العوام، بل الأمانة عامة في كل ما يُؤتمَن عليه؛ فعلى الإنسان أن يؤدّي ما استُحفظ عليه إلى مَن ائتمنه وأن لا يخون الأمانة؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، فهي أمانة بين العبد وبين الله، وبين الفرد وولي الأمر، وبين الفرد وبين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، والآية عامّة في كلّ ما يتعلق بموضوع الأمانات وإن

---

(١) أبوداود (٤٧٢٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٥).

كانت نازلة في الوظائف وبأنه يجب على وليّ الأمر أن يُسند الوظائف إلى من يقوم بها من الناس ولا يُحابي فيها، لأن الآية نزلت في ردِّ مفتاح الكعبة إلى بني شيبة، فلمّا فتح النبيُّ ﷺ مكة، أخذ عليٌّ ﷺ المفتاح من بني شيبة؛ فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، فأخذ النبيُّ ﷺ المفتاح من عليّ ودفعه إلى بني شيبة[(١)]، ولا يزال في يدهم إلى يوم القيامة كما أخبر النبيُّ ﷺ بذلك، فسببُ نزول الآية خاص، ولكن اللفظ عام، والعبرة بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قرر ذلك علماء التفسير والأصول، فتشمل هذه الآية جميع الأمانات الحسّية والمعنوية، فكلُّ ما كُلِّف به العبد من الأعمال فهو أمانة بينه وبين الله عز وجلّ؛ فالوضوء أمانة، والاغتسال من الجنابة أمانة، فجميع الأعمال التي أوجبها الله تعالى على عباده أمانة. وجميع ما حرَّمه الله على عباده أمانة كذلك. وكذا جميع الأعمال والأموال والديون التي في ذمة الذين أؤتمنوا عليها إنما هي أمانة، فعلى العبد أن يحفظ الأمانة وأن يؤدِّيها في جميع أمورها، فلا أحد يخْلُ من الأمانة، فالأولاد أمانة في ذمّة وليّ

(١) انظر في ذلك ما أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤/ ١٤٧ عن ابن جريج والزهري.

أمرهم وهو مسؤول عنهم. فالأمانات كثيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

ومحلُّ الشاهد في هذه الآية قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، ففيها وَصفُ الله بالسَّمع والبَصَر، وبأنه سميع بصير، وهذان اسمان لله سبحانه وتعالى يتضمَّنان إثبات السمع والبصر له عزَّ وجلَّ، بخلاف فِرَق الضلال الذين يؤوِّلون الصِّفات والأسماء الذين يزعمون أن: هذا من باب المجاز، وعلى قولهم فليس لله سمعٌ حقيقة وليس له - سبحانه - بَصرٌ حقيقةً، وإنما هذا ونحوه من المجاز! ويُجاب على هؤلاء بأنَّ الرسول ﷺ أبطل هذا وبيَّن أنَّ السمع حقيقي، فوضع أصبعه على أذنه ليبيِّن أن هذا حقيقي، ووضع الأصبع الأخرى على عينه ليبيِّن أنه بصر حقيقي وليس مجازيًّا، وهذا فيه ردٌّ على الذين يؤوِّلون أسماء الله وصفاته، ويدل على أنَّ الواجب إثباتها كما جاءت، وكما دلَّت عليه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

٦- وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يَعلَمُها إلاّ الله: لا يَعلم ما في غدٍ إلاّ الله، ولا يعلمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلاّ الله، ولا يعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلاّ الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلاّ الله، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلاّ الله تبارك وتعالى» رواه البخاري ومسلم[(١)]. [٦]

---

[٦] هذا الحديث فيه إثبات العلم لله جلَّ وعلا، وأن الله عليم، وفيه أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ولهذا قال جلَّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، جاء تفسير هذه المفاتيح في آخر سورة لقمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، هذه المفاتيح الخمسة لا يعلمها إلا الله، فلا يعلمها مَلَك مقرَّب، ولا نبيّ مرسل، ولا أحد من خلقه تبارك وتعالى، فهي من الأمور التي اختص الله بعلمها، ولهذا لمَّا سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ وقال له:

---

(١) البخاري (١٠٣٩)، وبنحوه مسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلمَ منَ السائل»، يعني: أنا وأنت سواء لا نعلم هذا الأمر، لأن هذا من اختصاص الله سبحانه وتعالى؛ وقد ذكر هذا في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فلا يعلم أحدٌ متى قيام الساعة إلاّ الله، وأما هؤلاء الذين يحسبون ليقدِّروا عُمُرَ الحياة الدنيا إنما هم من الكَذَبة الذين يكذبون على الله جلّ وعلا ويُنازعونه في علمه.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقوله في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨]، فيه بيان أنه لا أحد يستطيع أن ينزل الغيث من السماء إلا الله جلّ وعلا، ولا أحد يدري أيضاً متى ينزل الله الغيثَ، فهو من اختصاص الخالق سبحانه وتعالى، وأمّا ما يُذكر في وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفاز من توقُّعات حول هبوب الرِّياح وما أشبه ذلك فهو ليس من باب الجزم، إنما هو من التوقُّعات المبنية على ظواهر جويَّة والتي من الممكن أن تصيب وأن تخطئ؛ فلا يقال: إن هؤلاء

يعلمون مما استأثر الله بعلمه من نزول المطر.

وقوله جل وعلا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: الأجنَّة التي في البطون، لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى، سواء التي في بطون الآدميّات، أو التي في بطون البهائم والحيوانات، فلا أحد يدري ما في بطونها من حيث كونه ذكراً أو أنثى، أو حيّاً أو ميّتاً، أو كامل الخِلْقة أو ناقص الخِلْقة، فلا يعلم كل هذا إلا الله جل وعلا، حتى المَلَك الموكَّل بنفث الرُّوح إذا جاء لينفخ الروح، فإنه يسأل الله عزَّ وجلّ عن أجله وعمله وهل هو شقيٌ أو سعيد فيكتب ما أخبره الله جلّ وعلا، أما بخصوص ما استُحدث الآن من صور الأشعة التي تُشخِّص الحمل على الأجهزة المصوَّرة فيخبرون بكونه ذكراً أو أنثى، فهذا ليس من الأمور الداخلة في علم الغيب، وإنما هو من علم الشهادة التي تحصل بواسطة الأجهزة التي تصور ما في البطون فتظهره، فهو ليس من علم الغيب، لأنه لا أحد يعلم حقيقة ذلك قبل التصوير التي تتم بواسطة الأجهزة المذكورة، ثم لو قُدِّر أنهم علموا بكونه ذكراً أو أنثى أو حيّاً أو ميّتاً، فهم لا يدرون شيئاً من أجله أو عن عمله،

أو هل هو شقيٌ أم سعيد، حتماً هم لا يدرون شيئاً عن ذلك كما لا يدرون شيئاً عن رزقه، فكل هذه الأمور من الأشياء التي استأثر بعلمها الله عزَّ وجل.

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، فهذا من الـمُسلَّمات التي أقرَّ بها الناسُ قبل نزول القرآن، ولهذا قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

وأعلمُ عِلمَ اليومِ والأمسِ قبْلَه ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ

هذا وهو إنسان جاهلي، بأنه لا يدري ماذا يمكن أن يجري في الغد أو في المستقبل، كون هذا الأمر من علم الله جلَّ وعلا، فمن باب أولى أن يُقِرَّ بذلك مَن جاء بعده على مَرِّ العصور!

وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ الموت لا بدَّ منه، ولكن المجهول مكانه وزمانه، هل هو في البر، أم في البحر، أم في الجو؟ فلا أحد يدري متى وأين يكون ذلك، لكونه في علم الله وحده جل شأنه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ففي هذا الحديث إثبات العلم لله جلّ وعلا، وفيه بيان مفاتح الغيب التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فهو تفسير للآية.

والغيبُ: ما غاب عن الناس؛ والشهادة: ما شاهدوه، والله جلَّ وعلا عالم الغيب والشهادة، أي: ما ظهر للناس وما خفي عليهم، فالله سبحانه عليم به.

[إثبات صفة الفرح لله تعالى]

٧- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أشدُّ فَرحاً بتوبة عَبدِه حين يتوب إليه مِنْ أحدِكم كان على راحلتِه بأرض فَلاةٍ فانفَلَتَتْ منه وعليها طعامُه وشَرابُه فأيِسَ منها، فأتى شَجرةً فاضطَجعَ في ظِلِّها وقد أيِسَ من راحلتِه، فبينما هو كذلك إذْ هو بها قائمةٌ عنده فأخذ بخِطامها فقال من شِدَّة الفَرح: اللهمَّ أنتَ عبدي وأنا ربُّك؛ أخطأ من شدَّة الفَرح» أخرجاه[١]. [٧]

[٧] هذا الحديث فيه إثبات صفة الفرح لله عزَّ وجلَّ، وأنه يفرح بتوبة عبده، وفيه إثبات التوبة، وأنه عزَّ وجلَّ يتوب على عبده إذا ما أقبل إليه بإخلاص.

والتوبة معناها: الرُّجوع، فالله جلَّ وعلا يعود على عبده بالرِّضا بدل الغضب، وبالمغفرة بدل العذاب. ومن أسمائه سبحانه وتعالى التوّاب، فقال: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]؛ أي: كثير التوبة على عباده. ففيه إثبات التوبة لله، وأنه يتوب على عباده ويرجع عليهم بالخير.

(١) البخاري مختصراً (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

وفي الحديث إثبات الفرح لله عزَّ وجل، وأنَّ الله يفرح بتوبة عبده، وفيه حثُّ العباد على التوبة وعدم القنوط من رحمة الله، وأنه سبحانه يفرح بهذا، وهذا من كرمه سبحانه، وهو ليس محتاجاً إلينا، فإذا تُبنا لم يَزِد في ملكه شيئاً، وإذا لم نَتُبْ لم نُنقِص من ملكه شيئاً، ولكن الله يفرح بذلك تكرُّماً ولطفاً منه سبحانه وتعالى بعباده؛ لأنه يريد لهم الخير والنجاة والفوز، ولا يحبُّ لهم الكفر والعذاب، وإنما يحبُّ لهم التوبة والمغفرة والنعيم، وهذا كلُّه من فضله سبحانه وتعالى.

فقوله ﷺ: «لَلّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده» فيه أنَّ الله يفرح فرحاً شديداً أشد من فرح المخلوقين.

ثم ضرب ﷺ مثلاً في رجل فقد راحلته في أرض مهلكة ليس فيها ماءٌ ولا طعام، وقد استسلم للموت ونام تحت ظل الشجرة بانتظار هلاكه، وبينما هو كذلك فإذا براحلته فوق رأسه وعليها طعامه وشرابه.

فهذا فيه أنه لا يجوز القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى مهما اشتدَّ الأمر والضِّيق بالعبد، بل عليه أن يعظِّم الرَّجاء بالله، فكلَّما

اشتدَّ العسر كان اليسر قريباً؛ لقوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأنَّ الفرَجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العُسر يُسراً»[(١)]، وكما في القرآن ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

ففرح هذا الرجل فرحاً شديداً حتى إنه أخطأ في التعبير عن فرحه من شدَّته فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك»، والله أشدُّ فرحاً من هذا الإنسان، ففي الحديث إثبات صفة الفرح لله سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقين.

وفي الحديث بيان أن المخطىء لا يؤاخذ، فهذا الإنسان أخطأ في التعبير من شدة فرحه، لكن الله لم يؤاخذه مع كونه وَصفَ الله جلَّ وعلا بأنه عبدٌ وَوصف نفسَه بأنه الرَّبُّ لكنه لم يتعمَّد هذا، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ولمَّا نزلت هذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله جل وعلا: قد فعلت[(٢)].

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٣/ ١٥٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فهذه الأحاديث فيها معرفة الله جلَّ وعلا، وقد اختارها الشيخ عن فقهٍ وعن معرفةٍ تامَّةٍ، لكونها تُعرِّف بالله عزَّ وجل، وتبيِّن أسماءه وصفاته المذكورة في ثنايا هذه الأحاديث الثابتة.

[ما جاء في أن لله تعالى يداً]

٨- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يَبْسطُ يَدَه باللَّيل ليتوبَ مُسيءُ النَّهار، ويبسطُ يَدَه بالنَّهار ليتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ من مَغرِبِها» رواه مسلم(١). [٨]

[٨] هذا الحديث فيه إثبات صفة اليد لله سبحانه وتعالى، وهي يدٌ ليست كأيدي المخلوقين، إنما هي يد تليق بجلال الله سبحانه وتعالى دون تشبيه، ولا تمثيل ولا تعطيل، وأنَّه يبسُطها تكرُّماً منه سبحانه وفضلاً.

قوله ﷺ: «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار» هذا فيه إثبات أن الله يتوب على عباده ليلاً ونهاراً متى ما تابوا، وأن التوبة ليس لها وقت محدَّد، ففي أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار فإنه سبحانه وتعالى يقبل التوبة من عباده، فهو جلَّ شأنه ليس على أبوابه حجاب، وليس لفضله حدٌّ، وليس للتوبة إليه وقت محدَّد؛ ولهذا قال ﷺ: «ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل» فهذا شأنه سبحانه وتعالى.

(١) برقم (٢٧٥٩).

وفي الحديث كذلك الحثُّ على التوبة والمبادرة إليها، وأنه على الإنسان أن لا يؤخِّرها، وفيه وصف الله بأنَّ له يداً، وأنها مبسوطة غير مقبوضة، وأنه يتوب على عباده سبحانه وتعالى دائماً وأبداً، في الليل والنهار، وأنَّ التوبة إليه سبحانه وتعالى لا تختص بوقت معين أو مكان معين كما هو شأن بعض المِلَل الأخرى.

وهذا جاء في الحديث القدسي قوله: «يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ ﷺ.

[ما جاء في إثبات صفة الرَّحمة لله تعالى]

٩- ولهما[1] عن عمرَ ﷺ قال: «قَدِمَ على رسول الله ﷺ بسَبْيِ هَوازِنَ، فإذا امرأةٌ منَ السَّبيِ تسعى، إذْ وَجدتْ صَبيّاً في السَّبْيِ فأخذتْهُ فألزَقتْهُ ببطنِها فأرضعَتْهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «أَتَرونَ هذه المرأةَ طارِحةً ولدَها في النَّارِ؟» قلنا: لا واللهِ! فقال: «لَلَّهُ أرحمُ بعبادِهِ مِنْ هذه بوَلدِها». [٩]

---

[٩] هذا الحديث فيه إثبات صفة الرَّحمة لله عزَّ وجلَّ، وأنَّ رحمته أشدّ من رحمة الوالدة بولدها، إذْ ليس هناك من الخلْق أرحم من الوالدة بولدها، والله جلَّ وعلا أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فرحمته سبحانه عظيمة شديدة.

وقوله: «بسَبْيِ هوازن» هوازن: هي قبيلة معروفة، وتسمى الآن عتيبة، وقصتهم: أن رسول الله ﷺ لمَّا فتح مكة عام ثمان من الهجرة ودخلت قريش في طاعته ﷺ كانت هوازن تُقيم قريباً من مكة، فخشوا من رسول الله ﷺ أن يغزوهم فاجتمعوا على غزو الرسول ﷺ قبل أن يغزوهم، فعلم ﷺ بذلك فجهَّز الجيش من

---

(١) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

الذين جاؤوا معه من المدينة ومن أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح، فخرج معه ﷺ جيش عظيم، والتقى الفريقان في وادي حنين، وحصل على المسلمين في أول الأمر ضيقٌ شديد بعدما كانوا معجبين من كثرة عددهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، لكن الرسول ﷺ ثبت ولم يتزحزح من مكانه، وجعل ينادي المسلمين حين أمر عمَّه العباس أن ينادي بصوته الجَهْوَرِيّ، فنادى المسلمين بنداء رسول الله ﷺ، فعاد المسلمون والتفُّوا حول الرسول ﷺ، ثم دارت المعركة من جديد فنصر الله المسلمين، وغنموا أموال هوازن ونساءها وأطفالها؛ لأن هوازن جاءت بأموالها ونسائها وأطفالها إلى أرض المعركة، فصارت غَنيمةً للمسلمين، فلما انتهت المعركة وغَنِم المسلمون مغانم هوازن، وجُمعت هذه الغنائم، رأى الرسول ﷺ امرأة مسرعة تَجوب العسكر مشفقة تبحث عن ولدها، فلما رأته أخذته وألزقته ببطنها وجعلت تُرضعه، فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قالوا: لا والله: فقال

ﷺ: «لَلَّهُ أرحم بعباده من هذه بوَلَدها». فهذا فيه إثبات صفة الرَّحمة لله عزَّ وجلَّ، وأنها أرحم من رحمة الوالدة بولدها، لكن هذا لمن تسبَّب في طلب الرَّحمة، وأمّا مَن ضيَّع العمل الصالح وعصى الله عز وجل وكفر به، فقد فرَّط وضيَّع نفسَه، وأمّا مَن أطاع الله وأطاع رسوله ﷺ وعمل بأسباب الرَّحمة فإن الله عزَّ وجل أشدُّ رحمةً به من هذه المرأة بولدها.

[مدى سَعَة رحمة الله تعالى]

١٠- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كتب في كتابٍ فهو عنده فَوقَ العرش: إنَّ رحمتي غَلَبَتْ غَضبي» رواه البخاري(١). [١٠]

---

[١٠] قوله: «لَمَّا خَلَقَ الله الخلق»؛ يعني: فرغ من خَلْق الخَلْق، السماوات والأرض والمخلوقات كلها كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وجاء تفصيل خَلقه في هذه الستة الأيام في سورة فصلت ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآيات، فلمّا خَلق الخلق سبحانه وتعالى كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش كما جاء في الحديث؛ والمقصود بالكتاب: كتاب القضاء والقدر، وهذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر وأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في غيره أيضاً ممّا شاء الله سبحانه وتعالى، فما مِن شيءٍ إلا وهو مكتوب، وهذه الكتابة بعد خَلْق السماوات والأرض، وهذه الكتابة غير الكتابة العامة في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة العامة في اللوح المحفوظ كانت قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وإنما هذه الكتابة المذكورة في هذا الحديث كتابة خاصة.

---

(١) برقم (٣١٩٤)، وهو عند مسلم (٢٥٧١).

فقوله ﷺ: «كتب في كتابٍ» هذا فيه إثبات الكتابة وأنها من أفعال الله جلّ وعلا.

وقوله: «عنده فوق العرش» العرش: هو عرش الرَّحمن سبحانه وتعالى وهو أعظم المخلوقات وأعلاها وأعظمها، فهو عرش عظيم، لا يعلم عِظَمَه إلا الله سبحانه وتعالى. والعرش في الأصل: السّرير الذي يجلس عليه المَلِك، والمراد به هنا: هذا المخلوق العظيم الذي استوى الله جلا وعلا عليه، وهذا فيه إثبات العُلوّ لله واستوائه على العرش، والإيمان به لأن الله اختصَّ هذا الكتاب عنده، وإذا كان عنده فهذا يدلُّ على أنَّ هذا الكتاب في مكان قريب من الله سبحانه وتعالى. وليس المراد بقوله: «عنده» أنه في ملكه؛ لأن كل المخلوقات في ملكه، ولكنه اختصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مثل بعض الملائكة المقرَّبين؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]؛ فخصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مقرَّبة، وهذا يدلُّ على أهمية هذا الكتاب ومكانته عند الله سبحانه وتعالى.

ومضمون هذا الكتاب ما عبَّر عنه ﷺ بقوله: «إنَّ رحمتي سبقت غضبي» هذا فيه وصف الله جلَّ وعلا بهاتين الصفتين: الرَّحمة والغضب، وهذا من صفات أفعاله جلَّ وعلا، فهي صفات فعلية، يرحم إذا شاء، ويغضب إذا شاء، فهما صفات لله عزَّ وجل تليقان بجلاله، ورحمته ليست كرحمة المخلوق، ولا غضبه كغضب المخلوق، وإنما هما صفتان تليقان بجلاله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث أنَّ الرَّحمة سبقت الغضب، فهو سبحانه يُحبُّ أن يرحم عباده إذا هم فعلوا الأسباب التي تُسبِّب الرَّحمة، وأمّا إذا فعلوا موجبات الغضب وأسبابه كالمعاصي والمخالفات، فإنه سبحانه يغضب عليهم، فالرحمة لها أسباب، والغضب كذلك، فالأعمال الصالحة سبب لرحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وللغضب أسبابه كالكُفر والشِّرك والمعاصي، فإن ذلك كله مّما يُغضب الله جلَّ وعلا.

وفي الحديث كذلك بيان أنَّ الله يُحبُّ أن يرحم عباده، ولا يُحبُّ أن يُعذِّبهم، وهذا من فضله وكرمه سبحانه على عباده، إلاّ إذا تركوا أسباب الرَّحمة وفعلوا أسبابَ الغضب، فهم الذين جَنَوا على

أنفسهم، وهو سبحانه لا يعذِّب أحداً وهو ظالم له، أو بدون سبب، وإنما يعذِّب على أسباب تقتضي الغضب منه سبحانه وتعالى وهي الكُفر والشِّرك والنفاق والمعاصي، ولكن الله يُحِبُّ أن يعفو وأن يغفر إذا ما تاب العباد إليه وأنابوا واستغفروا، فإنَّه سبحانه وتعالى، يقبل توبتهم ويغفر ذنوبهم، وهذا أحبُّ إليه سبحانه وتعالى، لأنه عفوٌّ يُحِبُّ العفوَ، كما جاء في دعاء النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ إنك عفوٌّ تُحبُّ العَفْوَ»[(١)]، وهذا من كرمه وجوده جلَّ وعلا، وإلاَّ فهو ليس بحاجةٍ إلى عباده، بل هم المحتاجون إليه سبحانه وتعالى، وهو يُحِبُّ لهم ما يُصلحهم، ويُحِبُّ أن يتوب عليهم ويغفر لهم ويُنعِّمهم بالجنة إذا هم تقرَّبوا وتابوا إليه واستغفروه؛ ولذلك حثَّ عباده على التوبة والاستغفار، ونهاهم عن المعاصي وأمرهم بالطاعات، وكل ذلك من لطفه سبحانه وتعالى ومن محبَّته للمغفرة وللعفو، وهو من صفاته سبحانه وتعالى العظيمة.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

١١- ولهما(١) عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «جعل الله الرَّحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تَتراحم الخلائقُ حتى ترفعَ الدابَّةُ حافرَها عن وَلدِها خَشيةَ أنْ تُصيبَه». [١١]

---

[١١] هذا حديث عظيم فيه بيان سعة رحمة الله سبحانه وتعالى كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، فالرَّحمة لها أسباب، وهي رحمة واسعة، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ومن هذه الرَّحمة المذكورة في هذا الحديث المتفق عليه أنزل الله منها رحمة واحدة في الأرض، وعنده تسع وتسعون رحمة قد ادَّخرها سبحانه ليوم القيامة، وهذه الرَّحمة التي أنزلها في الأرض تتراحم المخلوقات من آثارها، حتى إن «الدابة» أي: البهيمة التي ليس عندها عقل «ترفع

(١) البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» فهي رحمة طبيعية جعلها الله فيها، وهي من آثار هذه الرَّحمة التي أنزلها الله سبحانه تتراحم بها الخلائق فيما بينهم؛ فإذا كانت هذه آثار رحمة واحدة، فكيف ببقية الرَّحمة التي عنده سبحانه وتعالى! وفي يوم القيامة تنضم هذه الرَّحمة إلى ما عنده من الرحمة التي ادَّخرها سبحانه وتعالى لتكون مئة رحمة يرحم بها مَن يستحق الرَّحمة من عباده الذين فعلوا الأسباب الموجبة لها في هذه الدُّنيا، فتابوا واستغفروا وأنابوا ورجعوا إلى الله وأصلحوا أعمالهم.

فهذا الحديث فيه وصف الله جلَّ وعلا بالرَّحمة، وأنها رحمة عظيمة، وأن الله تعالى يرحم في الدُّنيا ولكن رحمته في الآخرة أعظم، فمَن لم تَسَعْهُ رحمة الله فإنه خاسر لا خير فيه، والله جلَّ وعلا يرحم من عباده الرُّحماء، ولهذا قال ﷺ: «ارحموا مَن في الأرض يَرحمْكم من في السَّماء»[1]، وقال: «مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتَراحُمِهم

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

وتعاطُفِهم مَثَلُ الجَسدِ إذا اشتكى منه عُضوٌ تَداعى له سائرُ الجَسدِ بالسَّهر والحُمّى»(١)، فإذا تراحموا رحمهم الله، فمن مقتضى هذا الحديث ذكر أن أسباب رحمة الله تعالى إنما تنشأ من تراحمُ العباد فيما بينهم.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

١٢- ولمسلم[١] معناه من حديث سلمان، وفيه: «كُلُّ رحمةٍ طِباقَ ما بَين السَّماءِ والأرضِ» وفيه: «فإذا كان يومُ القيامةِ كمَّلها بهذه الرَّحمةِ». [١٢]

---

[١٢] في الحديث بيان مدى سعة أن كلّ رحمة من المئة رحمة التي اتصف الله بها، فالرَّحمة الواحدةُ تَسعُ السَّماوات والأرض، فإذا كان يوم القيامة تكاملت الرحمة مئة رحمة، بانضمام الجزء الذي أنزله الله سبحانه وتعالى إلى الأرض إلى ما ادّخره في السَّماء، فصارت مئة رحمة في الآخرة؛ وهذا دليل على سعة رحمة الله عزّ وجلّ، وهذا أيضاً من شأنه أن يجعل الإنسان لا يقنط من رحمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه الصَّلاة والسلام: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي هذا الحديث وما جاء بمعناه من الأحاديث والآيات

---

(١) برقم (٢٧٥٣).

الكريمة بيان أنه لا ينبغي للمسلم أن يقنط من رحمة الله، حتى ولو تعاظمَ ذنبه، فإنه ينبغي أن لا ييأس من العودة والرُّجوع إلى الله وأن لا يعتقد بأنه لن يغفر الله له، وأن لا يترك التوبة وييأس من رحمة الله عز وجل، بل عليه أن يتوب ويرجو رحمة الله مهما كان ذنبه ومهما كانت معصيته، فإذا تاب منها تاب الله عليه، وكذا المشرك والكافر والمنافق والزاني والسارق وشارب الخمر وآكل الربا، فهؤلاء جميعاً إذا ما تابوا تاب الله عليهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٤]، ولكن ينبغي للإنسان أن لا يتّكِل على سعة رحمة الله وبالتالي يتهاون بالمعاصي، فكما أن الله عزَّ وجلَّ واسع المغفرة فإنه شديد العقاب؛ قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، فعلى الإنسان أن لا يتساهل في عمل المعاصي، بل عليه أن يتَّقي الله ويخاف من العذاب كما يرجو الرَّحمة، فالجمع بين الأمرين هو المطلوب، بين الخوف

والرَّجاء، الخوف من عذاب الله، فلا يخاف خوفاً يُقنِّطهُ من رحمة الله، ولا يرجو رجاءً يؤمِّنُه من مكر الله؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وكما أنَّ الله واسع الرحمة والمغفرة فإنه كذلك شديد العقاب سبحانه وتعالى، وقد جمع سبحانه بينهما في آية واحدة بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، فينبغي عدم الغفلة عن هذا الجمع بين الخوف والرجاء، فلا يُغلِّب أحدهما على الآخر، ولكن قالوا: إلا في حالة واحدة وهي عند الموت، فإنه يُغلِّب جانب الرَّجاء: قال ﷺ: «لا يَموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله عزَّ وجل»[(١)]؛ فإذا ما عَجَز المرء عن العمل وحَضرَه الموتُ فإنه يُغلِّب جانبَ الرَّجاء ولا يُغلِّب جانب الخوف، أما وإنه ما دام على قيد الحياة، وكان متمكِّناً من العمل الصالح والإقلاع عن الذنوب والمعاصي فإنه ينبغي أن يكون بين الخوف والرَّجاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

والرجاء المحمود هو الذي لا يأمَن به صاحبُه من غضب الله عزَّ وجل وعقوبته، والخوف المحمود هو الذي لا يَقنط صاحبُه من رحمة الله عزَّ وجل.

١٣- وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الكافرَ إذا عَمِلَ حَسنةً أُطعِمَ بها طُعمةً في الدُّنيا، وأمّا المؤمنُ فإنَّ اللهَ يَدَّخِرُ له حسناتِه في الآخرةِ ويُعقِبُهُ رِزقاً في الدُّنيا على طاعتِه» رواه مسلم[١]. [١٣]

---

[١٣] في هذا الحديث بيان الفرق بين المسلم والكافر، من حيث إن الكافر إذا عمل حسنةً في الدُّنيا بأنْ أطعم جائعاً أو كسا عارياً أو سقى عطشان، ونحو ذلك من الأعمال الداخلة في باب الإحسان إلى الناس، فإنه وإن كان هذا العمل من كافر فإنَّ الله جلَّ وعلا لا يضيع عمل عامل؛ ولهذا فإنه سبحانه يُعجِّل له جزاءه، فيُعطى بها طُعمة في هذه الدُّنيا، إمّا بأنْ يُطيل في عُمُره أو بأن يُوسِّع له في رزقه أو غير ذلك من مصالح الحياة الدنيا؛ لأنَّه سبحانه لا يظلم أحداً؛ فهذا المراد من قوله ﷺ: «أُطعم بها طُعمة في الدنيا».

وأمّا المؤمن فإنه إذا عمل الحسنات، فإنَّ الله يَجمع له بين خَيرَي الدنيا والآخرة، فيدَّخر له حسناته في الآخرة؛ لأنَّ جزاء الآخرة خير وأحسن، ولا يحرمه أيضاً من الجزاء في الدُّنيا، بل يعجّل له شيئاً

---

(١) برقم (٢٨٠٨).

من الجزاء في هذه الحياة الدُّنيا من سَعة الرِّزق والصِّحة والعافية، فهو ـ سبحانه ـ يُعطي المؤمن على حسناته في الدُّنيا والآخرة، ولكنه سبحانه يعطيه في الآخرة أكثر ممّا يُعطيه في الدُّنيا، وهذا بخلاف الكافر، فإن الله يُعطيه في الدُّنيا وأمّا في الآخرة فإنه ـ سبحانه ـ يُحرمه من رحمته وجنَّته. هذا ما يدل عليه المفهوم من الحديث.

وفي الحديث كذلك بيان سعة فضل الله عزَّ وجلَّ، حتى إنه يشمل أعداء الله والكفّار، فهو سبحانه يرزقهم ويُنعم عليهم في هذه الدُّنيا ويُصحُّ أبدانهم، وهذا كله من إحسانه وفضله سبحانه وتعالى، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، ولكنهم إذا ماتوا على كفرهم فإنهم لا ثواب لهم في الآخرة.

[ما جاء في إثبات صفة الرضى لله تعالى]

١٤- وله[1] عنه مرفوعاً: «إِنَّ اللهَ لَيَرضَى عن العبد يأكُلُ الأَكْلَةَ فيَحمَدَه عليها، ويَشربُ الشَّربةَ فيَحمَدَه عليها». [١٤]

[١٤] في الحديث وصفُ الله عزَّ وجلّ بالرِّضا، وهو صفة يليق بجلاله سبحانه وتعالى، فقوله: «ليرضى عن العبد...إلخ» يعني: يرضى عن العبد الذي يشكر النِّعم.

وفي هذا مشروعية الشُّكر والحمد لله عزَّ وجلّ، فإذا أكل يقول: الحمد لله، وإذا شرب يقول ذلك، كما أنه عند البداية يقول: باسم الله، وهذا من آداب الإسلام، لأنّ هذا الأكل وهذا الشُّرب لم يصل إلى الإنسان إلاّ بفضله سبحانه وتعالى، فهو الذي خلقه ويسَّره، وهو الذي مكَّن العبد منه، وهو الذي يَنفع به إذا أُكل وشُرب، فيُغذِّي العبدَ به ويُخلِّصه من أذاه، فكلُّ هذا ونحوه من فضله وكرمه سبحانه وتعالى، فإذا ما أكل وشرب العبد وشكر الله على ذلك، فإنه سبحانه يرضى عنه.

---

(١) مسلم برقم (٢٧٣٤).

ففي هذا الحديث إثبات صفة الرِّضى لله عزَّ وجلَّ من غير تكييف ولا تمثيل، وفيه بيان مشروعيَّة حَمْد الله على الأكل والشرب.

[بيان مدى عظمة الله تعالى]

١٥- وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلاّ وفيه مَلَكٌ ساجدٌ لله تعالى، والله لو تَعلمون ما أعلمُ لَضحكتُم قليلاً ولَبَكيتُم كثيراً، وما تَلَذَّذْتُم بالنِّساء على الفُرُشِ، ولَخَرجتُم إلى الصُّعُداتِ تَجأرون إلى الله تعالى». رواه الترمذي[١] وقال: حديث حسن.

قوله: «لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتُم كثيراً» في «الصحيحين» من حديث أنس[٢]. [١٥]

---

[١٥] هذا حديث عظيم، فيه بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، وفيه وصفٌ لصوت السماء من ثِقَل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة الساجدين فيها.

وقوله ﷺ: «أَطَّتِ السماء» الأطيط: هو في الأصل صوت الرَّحْل مِن ثِقَل ما عليه، فإذا أثقل الراكبُ الرَّحل يصير له صوت يسمّى بالأطيط مـن شدَّة التحمُّل، والمراد هنا: أنه صار للسماء

---

(١) برقم (٢٣١٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٢١٥١٦).
(٢) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

صوت من شدَّة التحمُّل على الرغم من قوَّتها وسعتها من كثرة الملائكة الذين أثقلوها.

وقوله: «إلاَّ وفيه مَلَك ساجد» الملائكة من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فهم خَلْق وجُند من جند الله تعالى لا أحد يراهم، ولكننا نؤمن بهم، والإيمان بهم هو أحد أركان الإيمان الستة كما قال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه» (١)، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذه أركان الإيمان ومن بينها الإيمان بالملائكة، وهم خَلق من خلق الله سبحانه وتعالى، خلقهم الله من نور، وخلق الجِنَّ من نار، وخلق بني آدم من تراب، فالجن والشياطين من عالم الغيب ولكن الله خلقهم من مارج من نار، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]؛ أي: من لهب النار المرتفع، فهناك مخلوقات كثيرة خلقها الله، منها ما هو من عالم الغيب، ومنها ما هو

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من عالم الشهادة، ومن عالم الغيب: الملائكة، فنؤمن بهم كما ذكرهم الله سبحانه وتعالى، وكما ذكرهم رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، فالذي لا يؤمن بالملائكة كافر بالله عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ فالملائكة رسل خلقهم الله سبحانه وتعالى لمُهمّات، ومن مهمّاتهم أن الله يرسلهم بأوامره، قال عزَّ وجل: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، وهم رسل يعبدون الله عزَّ وجلَّ، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٞ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨] وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ -٢٠]، هذه هي

صفة الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

ومِنْ هؤلاء الملائكة مَن اقتصر عمله على عبادة الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «ما فيها - أي في السماء - موضع أربع أصابع إلا وفيه مَلَك ساجد لله تعالى»، وهذا فيه دليل على كثرة الملائكة، وفيه دليل على فضلهم وأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى، فهم لا يَفتُرون عن عبادته، ويُنفِّذون أوامره سبحانه في الخَلْق والكون، وهم جند من جند الله عزّ وجل، يجب الإيمان بهم كما جاء ذكرهم في القرآن الكريم، والإيمانُ بأعمالهم التي يقومون بها ممّا جاء تفصيله في القرآن الكريم والسُّنة النبوية.

ثم إنَّ الذين لا يؤمنون بالملائكة، أو يؤوِّلون حقيقتهم كما هو الحال عند بعض الفلاسفة الذين يؤولون حقيقة وجود الملائكة بأنها قُوى الخير النفسانية التي لدى الإنسان، كما يسمُّون القُوى الشريرة التي في الإنسان الشياطين، ويقولون: ليس هناك شياطين لهم أجسام، وليس هناك ملائكة مخلوقون لهم أجسام حسِّية، وإنما هي مجرد هواجس الخير المتمثلة بالملائكة، وهواجس الشرِّ المتمثلة في الشياطين، وهذا ونحوه من التخرُّصات والأباطيل من تأويل

القرامطة والفلاسفة والباطنية، ومع الأسف هذا موجود في «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا عند تعرُّضِه لقصَّة آدم عليه السلام، وقد ذكره صاحب «المنار» عن شيخه محمد عبده، وشيخه محمد عبده نقله عن كتاب «الإحياء» للغزالي، الذي كانت عنده نزعة فلسفية أثَّرت عليه، وهذا التأويل منها.

والحاصل أن الذي يفسِّر الملائكة على أنها القُوى النفسية إن كان متعمداً لهذا فهو كافر، وإن كان مقلِّداً فهو ضالٌّ ومخطىء، فعلينا أن نعرف أفكار الفلاسفة ونعرف الوحي المنزَّل من عند الله ونفرِّق بينهما.

ففي هذا الحديث الحثُّ على وجوب الإيمان بالملائكة، وفيه بيان كثرتهم، وأنهم يملؤون السماوات على سعتها. وفيه دليل على فضلهم وعبادتهم لله سبحانه وتعالى، فهم عالَمٌ شريف جليل من عالَم الغيب الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ، لا يعلمهم إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

وأمّا قوله في آخر الحديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» في الصحيحين» أي: هو متفق عليه رواه البخاري

ومسلم، وأمّا أوله فهو في السُّنن و«المسند» عند أحمد.

وقوله: «وما تلذَّذتُم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى» هذا فيه ذكر شدَّة الخوف من أهوال يوم القيامة وما فيها من أخطار عظيمة، والله جلّ وعلا ذكر هذا في القرآن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢]، ونحن لا نعلم من أهوال يوم القيامة مثل الذي يعلمه النبيُّ ﷺ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أطلعه على أمور الآخرة ما لم نطَّلع عليه رحمةً بنا، ولأنه لو أطلعنا على هذه الأشياء لحدث بنا ما ذكره النبيُّ ﷺ بقوله: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذَّذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى»، وقوله: «تجأرون»، يعني: ترفعون أصواتكم بالبكاء والتضُّرع من شدة الخوف، فالأمر شديد، والخطب هائل، فيجب على المسلم أن يكون مستعداً لهذه المواقف والأخطار التي هو قادم عليها.

وممّا أطلع الله جل وعلا نبيَّه ﷺ عليه عذاب القبر الذي لا يخلو من المواقف والعجائب التي لا يعلمها إلا الله من أحوال الموتى الذين يعذَّبون أو يُنعَّمون، ونحن لا نُحِسُّ بهذا، ولكن الرسول ﷺ أطلعه الله على شيء من ذلك، وحينما مرَّ على قبرين فقال: «إنهما ليُعذَّبان»[١]، فنحن نمرُّ على القبور ولا نشعر بشيء من ذلك مع أنَّ هذه القبور إمّا روضة من رياض الجنة أو حُفرة من حُفر النار»[٢]، فكل هذا من أمور الآخرة التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ومن الأمور التي حجبها الله عنا، وقد يحصل شيء من الاطلاع لبعض الناس على عذاب القبر من باب العِظَة، وهذا شيء معروف، ومن أراد شيئاً من هذا فليراجع كتاب «أهوال القبور» للحافظ ابن رجب رحمه الله وغيره من الكتب المؤلفة في هذا الباب؛ ليعتبر ويتَّعظ، مع أنَّ الذي غُيِّب عنّا ولم نعلمه كثير، ولما مرّ الرسول ﷺ بقبرين قال: «إنهما ليُعذَّبان وما يعذَّبان في كبير،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد ﷺ.

أمَّا أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأمَّا الآخر فكان يمشي بالنميمة»[(١)]؛ فهذان سببان من أسباب عذاب القبر، فهذا مما أطلع الله نبيَّه ﷺ عليه، وقال: «لولا أن لا تدافنوا لدَعوت الله أن يُسمِعَكُم من عذاب القبر»[(٢)]، فهو ﷺ يطَّلع على أشياء قد أطلعه الله عزَّ وجل عليها، وهذا معجزة له ﷺ، والبشر لا يطيقون سماع ومشاهدة ما أطلع الله سبحانه نبيَّه ﷺ عليه، وحجبها عنَّا رحمة من الله بنا، ولكن هذه الأشياء تنكشف لنا عند الموت، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]؛ فالميِّت يُعاين عند الموت، ويُعاين الملائكة ومنزلته عند الله إن كان من أهل الخير، وإن كان من أهل الشرِّ فإنه يُعاين ما سيؤول إليه مصيره من الشقاء والعذاب، وإذا وُضع في قبره فإنه يُعاين هذه الأمور وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، أما وإنه ما دام على قيد الحياة فإن الله حجب هذه الأمور عنه رحمةً به، وإلاَّ فلو درى

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس ﷺ.

بها وعاينها لما عاش ولا تلذَّذ بأكلٍ ولا شُربٍ ولا بأيِّ شيء من ملذّات الحياة الدنيا.

[حُرمة التألّي على الله تعالى]

١٦ - ولمسلم(١) عن جُندبٍ ﷺ مرفوعاً: «قال رجلٌ: والله لا يَغفرُ الله لفُلانٍ، فقال الله عزَّ وجلَّ: مَن ذا الذي يَتَألّى عليَّ أنْ لا أغفرَ لفلانٍ؟ إنّي قد غفرتُ له وأحبطتُ عملَكَ». [١٦]

---

[١٦] في هذا الحديث بيان مدى سعة مغفرة الله عزَّ وجلَّ، وأنه ينبغي أن لا يقنط أحد من رحمة الله، ولا أنْ يُقنِّط أحدٌ أحداً من رحمة الله وعفوه، وإنما ينبغي الحثُّ على التوبة والاستغفار ويدخل في ذلك الكافر حيث ينبغي حثُّه على التوبة وعلى الدُّخول في الإسلام وترغيبه في دخول الجنة والنجاة من النار، ومن باب أولى عدم تقنيط المؤمن من رحمة الله عزَّ وجلَّ إذا ما رُوِي على معصية، وإنما الواجب حثُّه على التوبة والاستغفار وتخويفه من العذاب، وأما الجزم بأنه لن يُغفر له والحَلِف على ذلك، فهذا من باب الإساءة في حقِّ الله سبحانه وتعالى، كما أن فيه تقنيطاً من رحمة الله جلَّ وعلا، مع أن هذا القائل لهذه العبارة كما ورد في الحديث إنما قالها من باب الغَيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه رأى

---

(١) برقم (٢٦٢١).

أخاه على المعصية فنهاه، ولكنه أبى أن يترك المعصية، فعند ذلك غضب عليه وقال: «والله لا يغفر الله لفلان»، ولكن الله قال: «مَن ذا الذي يتألّى عليَّ» وهذا استنكار منه جلَّ وعلا لِمَا قاله.

وقوله: «يتألّى» يعني: يحلف «عليَّ أنْ لا أغفر لفلان، إني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك»، لمّا أساء الأدب مع الله وقنَّطَ من رحمته جلَّ وعلا؛ وقد قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فلمّا قنط من رحمة الله فإنه سبحانه أحبط عمله.

فهذا الحديث فيه مسائل؛ ففيه أولاً: بيان مدى سعة رحمة الله عزَّ وجلّ، وأنه ينبغي للعاصي أن لا يقنط منها، ولكن ليس معناه أن يقيم على معصيته، فإذا كان يريد الرحمة فإنه يتوب إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا ينبغي له أن يرجو رحمة الله وهو مقيم على المعاصي، فهذا أمر لا يجوز، وهو في هذه الحالة قد أَمِنَ من مكر الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: أنه لا يجوز لاحدٍ أن يُقنِّط الناسَ من رحمة الله مهما رأى

عليهم من المعاصي والمخالفات، ولكن يدعوهم إلى الله ويأمرهم بالتوبة، ويُحبِّبهم بها ويُرغِّبهم في ثواب الله وفضله، وأن لا يحلف أنه لن يُغفر لهم.

ثالثاً: أنه لا يجوز الحَلِفُ على الله في منعه جلَّ وعلا من فِعْل المغفرة والإفضال على عباده، وأمّا الحَلِف على الله على أن يفعل الخيرَ ويُنزله، فهذا لا بأس به، قال ﷺ: «إنَّ مِنْ عباد الله مَنْ لو أقسَمَ على الله لأبرَّه»[1]، وهذا في الرَّجاء وحُسن الظنِّ بالله جل وعلا، فإذا حَلَفَ المسلم على الله بأن يفعل الخيرَ ويغفر لعباده ويرحمهم. اعتُبِر هذا من باب حُسن الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ، وليس هو من سوء الظنِّ به عزَّ وجلَّ، هذا الفرق بين الحالتين، وهذا الجمع بين الحديثين، حديث: «والله لا يغفرُ الله لفلانٍ»، وحديث «إنَّ مِنْ عباد الله مَن لو أقسمَ على الله لأبرَّه»، فالأول أحبط الله عمله، والثاني في الرجاء وحُسن الظنِّ بالله عزَّ وجل.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

ثالثاً: وفي الحديث خطر الكلام السيِّئ، وأنه على المسلم أن يحفظ نفسَه من الانزلاق في الكلام السيِّئ في حقِّ الله عزَّ وجلَّ أو في حقِّ العباد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فعلى المسلم أن يحفظ لسانه من أن يقول كلمة واحدة فيكتب الله له بها غضبه إلى يوم يلقاه، قال أبوهريرة عند هذا الحديث: والذي نفسي بيده لَتكلَّم بكلمةٍ أوبقَتْ دُنياه وآخرتَه[1]؛ ففيه خطر اللسان، فعلى الإنسان أن يحفظ لسانه من الكلام السيِّئ؛ لأنه ربما يقول كلمةً تُحبط عمله، فلا يتساهل الإنسان بالكلام؛ وفي الحديث: «وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم في النار ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلاّ حصائد ألسنتهم»[2]. والنبيُّ ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[3].

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[الترغيب في الجمع بين الخوف والرَّجاء]

١٧- وله(١) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لو يَعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبةِ ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحدٌ، ولو يَعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرَّحمةِ ما قَنَطَ مِنْ جنَّتِه أحدٌ». [١٧]

[١٧] إنَّ الله جلَّ وعلا واسع المغفرة وهو شديد العقاب، فلو علم المؤمن ما عند الله من العذاب لما طمع في رحمة الله أحد، ولو علم الكافر ما عند الله من العفو والمغفرة لما قنط من رحمته أحد، فهذا فيه دليل على سَعة رحمة الله تبارك وتعالى وعلى شدَّة غضبه، وأن سعة الرَّحمة لا تحمل المؤمن على الأمن من مكر الله والتساهل في عمل المعاصي والسيئات، وأنَّ الخوف من عذاب الله لا يَحمل العبدَ على القنوط من رحمة الله فيترك التوبة والاستغفار ظنّاً منه أنه لن يغفر له، أو أن يدفع هذا الأمر أحداً لتقنيط الآخرين من رحمته سبحانه وتعالى، فمثل هذا لا ينبغي لأحد، لأنه جلَّ وعلا فتح بابه للتائبين، وهو سبحانه بيَّن عذابه وشدَّة غضبه، وهذا من حكمته سبحانه وتعالى من أجل أن يُرغِّب العباد في الأعمال الصالحة

---

(١) مسلم (٢٧٥٥).

ويُنفِّرهم من الأعمال السيِّئة؛ ولهذا فإن القرآن الكريم مليء بآيات الوعد والوعيد، وغالباً ما يأتي ذِكر الجنَّة بعد ذِكر النار، فيذكر سبحانه النار وما اشتملت عليه من العذاب ثم يذكر الجنَّة وما فيها من النعيم، فتجد هذا في الآيات المتجاورة، والحكمة في ذلك دفع العبد للخوف والرجاء، فإنه إذا قرأ عن النار وعرف ما فيها من العذاب لعلَّه يتوب إلى الله ويستغفره ولا يقنط من رحمته، وإذا قرأ عن الجنَّة وما فيها من النَّعيم لعلَّه يطمع في رحمة الله فيعمل الأعمال الصالحة، فإذا ذكرت النار تاب من الذُّنوب، وإذا ذكرت الجنة أكثَرَ من عمل الحسنات، هذه هي حكمة الله سبحانه وتعالى، في كونه يجمع بين الأمرين.

وكذلك فإنه ينبغي على الدُّعاة والوعّاظ أن لا يعتمدوا على آيات الوعيد فحسب، وأن لا يُبالغوا في تخويف الناس، وإنما عليهم أن يبادروا إلى فتح باب الرَّجاء والطمع في رحمة الله، وعليه فإن الأصل في ذلك ترغيبهم وترهيبهم فيجمعون بين هذا وهذا، وعدم اقتصارهم على ذِكر آيات العذاب والوعيد، أو الاقتصار على ذِكر آيات الرَّحمة والثواب، هذا هو المطلوب من الدُّعاة والوعّاظ والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

[بيان مدى قرب الجنَّة والنار من العبد]

١٨- وللبخاري(١) عن ابنِ مسعودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنَّةُ أقربُ إلى أحَدِكُم مِن شِراكِ نَعلِه، والنَّارُ مثلُ ذلكَ» . [١٨]

---

[١٨] هذا الحديث في بيان مدى قُرب الجنَّة من الإنسان وقُرب النار منه كذلك، وذلك أنه إذا مات الإنسان وكان صالحاً دخل الجنَّة، وإن كان غير صالح دخل النار، والموت قريب من الإنسان، فربما يكون في لحظة، فيؤول أمره إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار في لحظةٍ واحدة، فالجنَّةُ قريبة والنار كذلك، فلا ينبغي للعبد أن يُوسِّع الأمل في هذه الدُّنيا فيبسط النفس فيها ويستبعد الموتَ ومجيءَ يوم القيامة.

وفي قصة الرَّجلين اللذين مرّا على الصنم الذي لم يكن أحد يجوزه حتى يقرّب له قرباناً، فقالوا لأحدهما: قرِّب، فقال: لا أملك شيئاً أُقرِّبه، فقالوا: قرِّب ولو ذُباباً، فقرَّب ذباباً؛ فخلَّوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر كذلك، فقال: ما كنت لأقرِّب لأحدٍ شيئاً

---

(١) برقم (٦٤٨٨).

دون الله؛ فقتلوه فدخل الجنة»(١).

وقال الشيخ رحمه الله عند هذا الحديث: فيه «قُرب الجنَّة والنار من الإنسان»، فأمر الجنة والنار قريب من الإنسان.

فينبغي عدم فتح باب طول الأمل من خلال استبعاد الموت ومجيء يوم القيامة، وبالتالي التمادي في الذنوب والغفلة عن الآخرة وقدوم لحظة الموت، والأصل في ذلك هو الاستعداد دائماً لذكر الجنّة واستحضار النار وأنها قريبتان من الإنسان، إذ ليس بينه وبينها إلا قَبْض الروح ثم المآل إلى أحدهما، فتصوُّرُ الجنة يدفع بالعبد إلى فِعْل الأعمال الصالحة، وتصوُّرُ النار يدفعه إلى التوبة والاستغفار من الذنوب؛ والحذر كل الحذر من أن يَفْجأ العبدَ الموتُ وهو على حالة غير مَرضيَّة، فإذا وقع العبد في ذنب فلا ينبغي له الاغترار بصِغَر سنِّه وبطولُ الأمل زاعماً أنه سيتوب إلى الله إذا ما طال به العمر، وكأنه ضَمِنَ أن ذلك سيكون وهو لا يدري أن هذا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٠٣٨)، وأبونعيم في «حلية الأولياء» ١/٢٠٣ من حديث سلمان الفارسي ﷺ موقوفاً.

من تلاعُب الشيطان به، والله جلّ وعلا يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، فهؤلاء سيتوب الله عليهم؛ ودلالة ذلك قوله جل وعلا: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وأما الذي يفتح لنفسه باب الأمل ويُسوِّف في التوبة بعدما غرَّر به الشيطان مزيِّناً له أنه ما زال شاباً في أول عمره، فيبدأ بتأجيل التوبة إلى أن يصل إلى آخر عمره فيحسن خاتمته بالتوبة المزعومة! فمَن الذي يضمن له أنَّ عمره سيمتد إلى أن يَشيخ ويكبر؟ بل مَن الذي يضمن له أنَّه سيعيش بُرهةً من الزمن؟ فكم من إنسان فاجأه الموت وهو جالس مع الآخرين في لحظة؟ ولهذا نقول: إن الآجال بيد الله سبحانه وتعالى، وقد أخفاها عنّا، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

ففي هذا الحديث الحثُّ على تقوية اليقين بقُرب الجنَّة والنار، وفيه الحثُّ على المبادرة والإسراع بالأعمال الصالحة والتوبة من

الأعمال السيئة، وفيه أن النار والجنة يبدآن من حين موت الإنسان ووضعه في القبر، فيأتيه نصيبه إمّا من الجنة وإمّا من النار، ويصير قبره إمّا روضةً من رياض الجنة، وإمّا حفرةً من حُفر النار. والقبر هو أول منازل الآخرة، فإن نجى العبد منه فما بعده أيسرُ منه.

[الحثُّ على الإحسان إلى المخلوقات]

١٩- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إنَّ امرأةً بغيّاً رأتْ كلباً في يوم حارٍّ يُطيفُ ببئرٍ قد أدْلَع لسانَه مِنَ العَطَشِ، فنزعت له مُوقَها، فغُفِرَ لها به»[١]. [١٩]

---

[١٩] قوله: «إن أمرأةً بغيا»، المرأة البغي: هي الزانية؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النور:٣٣]؛ يعني: على الزنى، وهذه المرأة من بني إسرائيل ممّن كان قبلنا، والنبيُّ ﷺ كان يحدِّث أحياناً عن بني إسرائيل، بما فيه عبرة وعظة لنا، وهذه المرأة كانت تمارس الزِّنى وهو كبيرة من كبائر الذُّنوب وفاحشة، وقد كانت ذات يوم تسير في طريق فأدركها العطش، فنزلت في بئر لتشرب منه فشربت وصعدت من البئر فلما خرجت منه رأت كلباً يلهث من شدَّة العطش، وفي رواية: «يأكل الثَّرى من العطش»[٢]، فرحمته، فنزلت في البئر مرة ثانية، «فنزعت مُوقَها»،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (١٧٦١) واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) هي عند البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) بذكر رجل من بني إسرائيل، من حديث أبي هريرة ﷺ.

والـمُوق: وهو الخُفّ الذي يُلبس على القدم، فنزعته لعدم وجود الإناء الذي يُحمل فيه الماء، وملأته ماءً، وأمسكته في فمها ثم صعدت من البئر فسَقَت الكلب، فشكر الله لها هذا الإحسان إلى هذه البهيمة فغفر لها هذه الخطيئة.

فهذا الحديث فيه فوائد عظيمة، منها: فضل الإحسان إلى البهائم، وأنَّه يجب على الإنسان أن يُحسن إليها بإطعامها وسقيها وتقديم ما تحتاج إليه، وفيه فضل سَقْي الماء للعطشان، والنبي ﷺ يقول: «أيُّما مؤمنٍ سَقى مؤمناً شَربةً على ظمأٍ، سَقاهُ الله يومَ القيامةِ من الرَّحيق المختوم»(١)، وكذلك البهائم.

وفي هذا الحديث بيان سَعة رحمة الله سبحانه وتعالى، وأنه يغفر الذنوب، ولو كانت كبائر دون الشِّرك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما دون الشِّرك، فهذه امرأة تمارس كبيرة قبيحة من كبائر الذنوب فغفر الله لها، وهذا فيه ردٌّ على الخوارج الذين

(١) أخرجه أحمد (١١١٠١)، والترمذي (٢٤٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يَرون أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإسلام فيكفر بذلك، وهذا مذهبهم، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإسلام ولا يدخل في الكفر، فيكون في منزلة بين المنزلتين، وهذا من أصول المعتزلة، وأهل السُّنة والجماعة يقولون: إنَّ مرتكب الكبيرة التي دون الشرك لا يكفَّر، ولكنه ينقص إيمانه بالذنوب كما أنَّه يزيد إيمانه بالطاعات، فالإيمان يزيد وينقص ولا يزول بالمعاصي التي دون الشرك وإن كانت كبائر، ولكنها تُنقص الإيمان، وهذا الحديث أصل من أصول أهل السُّنة والجماعة في هذه المسألة، وهي مسألة مرتكب الكبيرة، وبيان أنَّ الله سبحانه يغفر له إذا شاء سبحانه وتعالى.

وفيه أن الحسنات يُذهبن السيئات، فهذه امرأة أحسنت إلى هذه البهيمة، فسقتها على عطش، فأذهب الله عنها إثم هذه السيئة القبيحة بسبب الحسنة، والنبيُّ ﷺ يقول: «وأتبع السَّيئةَ الحسنةَ تَمحُها»[1]، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقد

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٧) من حديث أبي ذرٍّ ﷺ.

سأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ: وإنَّ لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل ذات كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ»[1]، يعني: سواء كانت الكبد الرطبة من الآدميِّين أو من البهائم.

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

٢٠- وقال: «دخلت النّارَ امرأةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها؛ لا هي أطْعَمَتْها، ولا هي أرسلَتْها تأكل مِنْ خَشاشِ الأرضِ».

قال الزُّهريُّ: لئلاّ يَتَّكِلَ أحدٌ ولا ييأسَ أحدٌ. أخرجاه(١). [٢٠]

---

[٢٠] هذا الحديث على عكس الحديث الذي قبله، فهاهنا امرأةٌ أساءت إلى حيوان، فقد كان عندها هرَّة حبستها عن الخروج لطلب الرزق، ولم تؤمِّن لها ما يُبقي على حياتها حتى هلكت هذه الهرَّة، وهذه جريمة وإساءة إلى هذا المخلوق، فدخلت النار بسبب هذه السيئة، وليس معنى ذلك أنها كفرت، فقد يدخل النار مَن هو مؤمن، إذا كان عنده ذنوب، لكنه لا يخلَّد فيها، فيعذَّب فيها إلى ما شاء الله، ثم يخرج منها، فلا يخلَّد في النار إلا الكفَّار.

قوله ﷺ: «دخلت النّار امرأة في هرَّة» هذا مثل ما سبق معنا في الحديث(٢) أنه دخل رجل النار في ذباب، ودخل الجنة رجل في ذباب،

---

(١) البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقول الزهري عند مسلم ولم يذكره البخاري.

(٢) راجع ص ١١٠ عند الحديث رقم (١٨).

وهنا ذكر أنه بسبب هرَّة دخلت المرأة النار «حبستها» حيث لم تؤمِّن لها ما يكفيها من الطعام والشراب، فدلَّ هذا على أنَّ مَن أساء إلى البهائم أنه يؤاخذ، وأن عليه هذا الوعيد، فلا ينبغي أن يَستخِفَّ الإنسان بهذه البهائم فيظلمها، لأنَّ الظلم قبيح سواء كان مع البهائم أو مع غيرها.

وفي الحديث دليل على أنه يجوز حبس البهائم بشرط أن يؤمِّن لها ما يُبقيها على قيد الحياة من المآكل والمشرب، فهذه المرأة لو أمَّنت لها ما يكفيها لَمَا دخلت النار، فدلَّ هذا على أنه يجوز للإنسان أن يحبس الطيور والبهائم ولكن دون تعذيبها أو إهلاكها أو تعريضها للخطر.

قوله: «قال الزهري» هو محمد بن شهاب الزهري، الإمام الجليل، وقوله: «لئلاَّ يَتَّكِلَ أحد» يعني: لئلاَّ يَتَّكِلَ أحدٌ على عمله، بل ينبغي أن يخاف من الذنوب وإن كان مؤمناً، فهذه امرأة مؤمنة دخلت النار بسبب هرَّة، فلا ينبغي أن يأمَن المؤمن ويتَّكل على عمله، بل يخاف أن يدخل النار.

وقوله: «ولا ييأس أحد» لأجل أن هذه امرأة بغي وكانت قد ارتكبت الكبائر من الذنوب، فلم تيأس من رحمة الله عزَّ وجل، وعليه فلا ينبغي للعبد أن ييأس من رحمته عزَّ وجل بل عليه المبادرة إلى التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وحديث البغي يدلُّ على أن المسلم لا يقنط من رحمة الله مهما بلغت ذنوبه، فإذا تاب إلى الله تاب الله عليه، ومسألة الخوف والرَّجاء هي من أصول الإيمان، والخوف والرَّجاء من أعظم أنواع العبادة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَغَبًا﴾ يعني: رجاء، و﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: خوفاً، فيجمعون بين الخوف والرَّجاء، فلا يخافون فقط، ولا يرجون فقط، وإنَّما يجمعون بينهما، فمن خلال هذين الحديثين يتبيَّن لنا هذا، والشيخ لـمَّا ذكر الحديث الأول خاف على سامعيه أن يتَّكل على ما فيه من سعة الرحمة وعِظَم الرَّجاء، فضمَّ إليه حديث الهرَّة الذي فيه التخويف ضدَّ ذلك ليجتمع الخوف والرجاء.

[إثبات صفة العجب لله تعالى]

٢١- وعنه مرفوعاً: «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قومٍ يُقادونَ إلى الجنَّةِ بالسَّلاسِلِ» رواه أحمد والبخاري(١). [٢١]

[٢١] قوله ﷺ: «عَجِبَ ربُّنا» هذا فيه إثبات صفة العجب لله عزَّ وجلَّ، أي: أنَّ الله تبارك وتعالى يعجب، وهي صفة من صفاته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله، وهذا العَجب ليس كعجب المخلوق، وإنما هو عَجب خاصٌّ بالله سبحانه وتعالى كسائر صفاته.

وقوله: «من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل» أي أنهم أُسروا وقُيِّدوا حال كونهم كفاراً في الجهاد في سبيل الله، ثم بعد ذلك أسلموا، فيكون هذا الأسر سبباً لإسلامهم ومن ثَمَّ لدخولهم الجنَّة، فكان أسرُهم مصلحةً لهم، وهذا من العجائب؛ إذ لا أحد يرفض دخول الجنَّة، ولكن إذا كان الإنسان لم يعمل عملاً يؤهِّله لدخول الجنة فإنه لا يدخلها، فالكافر لا يدخل الجنَّة، ولكن إذا أراد الله له السعادة فإنه قد يدخل الجنَّة بسبب يكرهه، فهو يكره

(١) أحمد في «المسند» (٨٠١٣)، والبخاري (٣٨٠) وعنده «يدخلون الجنة» بدل «يُقادون».

الأسر، ولكنه صار سبباً في سعادته، أسره المسلمون وقيَّدوه بالسَّلاسل ثم إنه تاب وأسلم بسبب الأسر فدخل الجنَّة، وهذا من العَجب!

فهذا الحديث فيه إثبات صفة العجب لله سبحانه وتعالى، وهي صفة تليق بجلاله، وفيه أن الإنسان قد يكره شيئاً ويكون خيراً له، وقد يُحبُّ شيئاً ويكون شرّاً له، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفيه أن الجهاد في سبيل الله شُرع لغاية عظيمة وهي إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان وإنقاذهم من النار إلى الجنَّة، فلم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل قَتْل الناس وسَفْك دمائهم أو من أجل أخذ أموالهم وسَبْي نسائهم والاستيلاء على بلادهم، لم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل ذلك، وإنما شُرع من أجل غاية عظيمة وهي إخراج الناس من النار إلى الجنَّة ولو بالسلاسل، هذا هو غاية

الجهاد في سبيل الله، وهو من مصلحة الناس؛ فالمؤمن ينال به الأجر والثواب والشهادة، وقد يكون الكافر سبباً في دخول الكافر الإسلام وإخراجه من الكفر إلى الإيمان وبالتالي دخوله الجنَّة. وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: إذا دعاكم للجهاد. سمّاه حياة.

[إثبات صفة الصَّبر لله تعالى]

٢٢- وعن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أَصبرُ على أذًى يَسمعُه مِنَ الله، يَدَّعون له الولدَ ثمَّ يُعافيهم ويَرزُقُهم» رواه البخاري[1]. [٢٢]

[٢٢] هذا الحديث فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى يصبر على أذى عباده؛ والصبر معناه: الحبس، فالله جلَّ وعلا يصبر على أذى عباده، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، وإنما يؤخِّرهم، فإنْ تابوا ـ تاب الله عليهم ـ وتأخيرهم إنما هو من باب الإحسان إليهم، وإعطائهم الفرصة والمراجعة، فلا يعاجلهم في العقوبة.

فهذا الحديث فيه وصف الله بالصبر، وأنه سبحانه وتعالى يصبر، ومن أسمائه سبحانه وتعالى الصَّبور، والصبور معناه: شديد الصَّبر الذي لا يُعاجل الناس بالعقوبة، وممَّا يدلُّ على صبره سبحانه أنَّ الناس يَسبُّونه ويشركون به ويعصونه ومع ذلك يُغذِّيهم بالنِّعم ويُعطيهم العافية ويُحسن إليهم رحمةً بهم لعلهم يتوبون إليه سبحانه وتعالى.

---

(١) برقم (٦٠٩٩) و(٧٣٧٨)، وأخرجه مسلم (٢٨٠٤).

وفي الحديث: أنَّ الله يتأذى بأفعال عباده؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي الحديث الصحيح: «يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدَّهر وأنا الدَّهر، بيدي الأمرُ أُقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ»[١]، واللهُ يتأذى بأفعال عباده لكنه لا يتضرَّر، فلا تضرُّه المعاصي، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [محمد: ٣٢]؛ فالله لا يضرُّه أحد، ولا تضرُّه المعاصي، وإنما تضرُّ من فعلها، كما أنَّ الطاعات لا تنفعه سبحانه وإنما تنفع صاحبها، فالضرر بالمعاصي والنفع بالطاعات راجع إلى العباد، أمَّا الله جلَّ وعلا فلا تضرُّه معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين؛ لأنه سبحانه غنيٌّ عن عباده؛ قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضرُّوني، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخرَكم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد ما نقص ذلك مِن مُلكي شيئاً»[١].

ففي هذا الحديث أنَّ الله يتأذَّى بأفعال عباده من الكفر والمعاصي، وفيه أنه سبحانه وتعالى يصبر عليهم ويُمهلهم ويُعاملهم بالإحسان مع أنهم يُعاملونه بالإساءة، وفي الحديث: «يا ابن آدمَ خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعد إليَّ، وأتحبَّب إليك بالنِّعم، وتتبغَّض إليَّ بالمعاصي»[٢].

وقوله ﷺ: «يَدْعون له الولد» هذا من أشدِّ الكفر، والله جلَّ وعلا ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤]، وهو سبحانه منزَّه عن الولد؛ لأن الولد جزءٌ من أبيه؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]؛ يعني: نسبوا له الولد؛ والولدُ يُشبه أباه، لأنه جزء منه، والله جلَّ وعلا لا شبيه له، ولو كان له ولد لصار شريكاً له في الملك، وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرّ ﷺ مرفوعاً إلى النبي ﷺ.
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» ٢/ ٣٧٧ عن مالك بن دينار أنه قرأه في بعض الكتب.

سبحانه منزَّه كذلك عن الشَّريك والشرك. والوالد يحتاج إلى الولد، وهو سبحانه ليس بحاجةٍ إلى شيء، فله سبحانه مُلك السماوات والأرض، فليس بحاجةٍ إلى الولد من أجل أن يُعينه أو ينفعه، تعالى الله عن ذلك، لكن مع هذا ينسب المشركون له الولد فيؤذونه سبحانه وتعالى بذلك، وفي هذا بيان فضله سبحانه بالإحسان إليهم مع إساءاتهم بخلاف طبائع البشر، فلا يوصف بالإحسان إلى المسيء مثله سبحانه وتعالى.

[إثبات صفة الحبِّ لله تعالى]

٢٣- وله[1] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبداً نادى: يا جبريل، إنَّ الله يُحِبُّ فلاناً فأحِبَّه، فيُحبُّهُ جبريل، ثمَّ يُنادي جبريلُ في السَّماء: إنَّ الله يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السَّماءِ ويُوضَعُ له القَبولُ في الأرض». [٢٣]

---

[٢٣] هذا الحديث فيه وصف الله تعالى بأنه يُحِبُّ كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والله جلَّ وعلا يُحِبُّ من عباده أهل الطاعة وأهل الإيمان، فالحبُّ صفة من صفاته جلَّ وعلا، وهي صفة تليق بجلاله وليست محبَّته كمحبة المخلوقين، فهو سبحانه يُحِبُّ والمخلوق يُحِبُّ ولا تشبه محبَّةُ الخالق محبَّةَ المخلوقين، وهذا أصل متقرِّر عند أهل السُّنة والجماعة.

والله جلَّ وعلا يُحِبُّ بعض عباده من أهل الطاعات والتقوى، فإذا أحبَّهم نادى الله تعالى جبريلَ عليه السلام: «يا جبريلُ، إن الله يُحِبُّ فلاناً فأحِبَّه، فيُحبُّه جبريلُ، ثم ينادي جبريلُ في السماء: إنَّ الله

---

(١) برقم (٦٠٤٠)، وأخرجه مسلم (٢٦٣٧).

يحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيُحبُّهُ أهلُ السماء» وهذا فيه دليل على أنه يجب أن نُحبَّ مَن يُحبُّه الله، والله يُحِبُّ التَّوابين ويُحبُّ المتطهِّرين، فنحن نحبُّهم بحبِّ الله جلَّ وعلا لهم، ونُبغض أهل الكفر والمعاصي، وهذا من الولاء والبراء، فالملائكة تُحبُّ ما يُحبُّه الله، ونحن كذلك نحبُّ ما يُحبُّه الله من الأعمال ومن الأشخاص.

وقوله ﷺ: «ثم يُوضع له القبول في الأرض» أي: تُوضع له المحبَّة في قلوب الناس، فإذا رأيت شخصاً يُحبُّه الناس من أهل الخير والإيمان فهذا علامة على أن الله قد أحبَّه وأحبَّته الملائكة، وإذا رأيت شخصاً يكرهه أهل الدِّين وأهل الإيمان فاعلم بأن هذه علامة على أن الله يكرهه ويكرهه كذلك أهل السماء؛ والله جلَّ وعلا يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي: محبَّة.

فالطاعات سببٌ لنيل محبَّة الله جلَّ وعلا، ومحبَّة الملائكة وأهل الأرض، والمعاصي على العكس، فهي سبب لبغض الله جلَّ وعلا لها ولصاحبها، وبغض أهل السماء وأهل الأرض له؛ ولهذا يقول ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس ﷺ.

[إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة]

٢٤- وعن جرير بن عبد الله البَجَليّ ﷺ قال: كنّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ إذْ نَظر إلى القَمرِ ليلة البدر قال: «إنكم سَترون ربَّكم كما تَرون هذا القمرَ لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أنْ لا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طُلوع الشَّمسِ وقَبل غُروبها فافعَلوا» ثم قرأ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]. رواه الجماعة[1] [٢٤]

---

[٢٤] هذا الحديث فيه أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا جلوساً عند النبي ﷺ «إذ نظر إلى القمر ليلة البدر»؛ يعني: ليلة التمام، إما ليلة الرابع عشر أو الخامس عشر التي فيها يتكاملُ القمرُ، لأنه يبدو في أول الأمر هلالاً ثم يكبر ولا يزال يكبر حتى يتكامل فيصير بدراً كاملاً ثم يأخذ في النقص حتى يعود هلالاً في آخر الشهر. وهذا من عجائب خَلق الله سبحانه وتعالى، والحكمة في تقدير منازل القمر هي لأجل أن يعرف الناس الحساب، قال

---

(١) البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣)، وأبوداود (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥١)، وابن ماجه (١٧٧).

تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

فقوله: «إذ نظر إلى القمر ليلة البدر» أي: في حال تكامُله وبهائه وحُسنه فقال: «إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر» والقمر في ليلة البدر يراه جميع الناس، كلٌّ في مكانه دون أن يتزاحموا، فيراه أهل البَرِّ وأهل البحر من غيرِ مزاحمة، فالمؤمنون يرون الله عز وجل يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر، وهذا معنى قوله: «لا تضامون في رؤيته». وفي رواية تقرأ «لا تضامُّون». إذ يجوز ضم التاء وفتحها، وهو بتشديد الميم، من الضَّم؛ أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض فلا تتزاحمون لرؤيته، بل تستوون كلكم في رؤيته تعالى؛ إذ من عادة الناس أنه إذا كان المرئيُّ شيئاً واحداً أنهم يتزاحمون على رؤيته، لكن الله جلَّ وعلا يُرى يوم القيامة دون مزاحمة، فكلٌّ يراه وهو في مكانه، وهذا في المخلوق كذلك، فالقمر مخلوق من مخلوقات الله ومع ذلك يراه الناس من غير مزاحمة، وهذا من باب ضرب المثل ليُقرِّب للناس معرفة هذا الشيء، فإذا كان المخلوق يراه الناس دون مزاحمةٍ رؤيةً واضحة، فإن الرَّبَّ سبحانه وتعالى

يراه المؤمنون يوم القيامة دون مزاحمة ، وليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عزَّ وجلَّ، وإنما هو من باب تشبيه الرؤية بالرؤية، فهو سبحانه لا يُشبهه شيء، ولكن هذا من باب ضرب المثل لتشبيه الرؤية بالرؤية، لا من باب تشبيه المرئي بالمرئي؛ إذْ قد يُشكل هذا على بعض الناس.

وقوله ﷺ: «فإن استطعتم أن لا تُغلبوا» أي: لا يغلبكم الشيطان ولا تغلبكم النَّفسُ والأشغال الدُّنيوية «على صلاة قبل طلوع الشمس» وهي صلاة الفجر «وصلاة قبل غروبها» وهي صلاة العصر «فافعلوا» أي: اجتهدوا في المحافظة على هاتين الصلاتين في وقتها، لتَحظَوا يوم القيامة برؤية الله جلَّ وعلا، فهاتان الصلاتان لها فضيلة على غيرهما من الصلوات الخمس؛ قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] والصلاة الوسطى: هي صلاة العصر، عطفها الله على الصلوات من باب عطف الخاص على العام، اهتماماً بها.

وقوله: «ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾» يعني: صَلِّ، والصلاة تسمّى تسبيحاً ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: صلاة

الفجر ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾، أي: صلاة العصر؛ والمراد: صلاتا الفجر والعصر؛ وصلاة الفجر يتهاون بها كثير من الناس، فينامون عنها ولا يهتمون بها، وبعضهم لا يصليها أبداً، فيذهب إلى عمله وقد أهملها، فمثل هذا كافر بالله عزَّ وجل، وبعضهم يصلي متى قام من نومه، فصلاة هذا غير صحيحة، لكونه لم يصلِّ الصلاة التي أمر الله بها، وإنما صلّى صلاةً على اختياره هو، لا على اختيار الله جلَّ وعلا؛ فهي لا تُقبل؛ لأنه تعمَّد إخراجها عن وقتها، وإذا تعمَّد إخراجها عن وقتها فهي غير مقبولة ولا تصح، وبعضهم يخرج من العمل بعد الظهر فيتناول غداءه وينام ويُهمل صلاة العصر وهذا مضيع للصلاة وربما لا يصليها أبداً، فمثل هذا كافر، وربما صلاها إذا استيقظ بعد الغروب أو وسط الليل، فهذا أيضاً لا تُقبل منه صلاته، فمثل هذه الصلاة على هذا النحو لم يشرعها الله سبحانه وتعالى، فلا يجوز له التلاعب في العبادة، ومثل هؤلاء يُحرمون من رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

فهذا الحديث حديث عظيم يتضمن إثبات رؤية المؤمنين لربهم

يوم القيامة، وهي من أعظم النِّعم التي تُعطى يوم القيامة؛ إكراماً لهم، ولا شيء ألَذُّ عليهم من رؤية ربِّهم سبحانه وتعالى، فهي أَلَذُّ عندهم من جميع النعيم والملذّات التي هم فيها، ولذلك يمنحهم الله هذه الكرامة فيرونه عِياناً بأبصارهم.

وفيه ضرب الأمثلة للأمور الغائبة بأمور محسوسة ومشاهدة من أجل تقريب المعاني، فالنبيُّ ﷺ ضرب المثال على الشيء الغائب بشيء حاضر محسوس، لئلاّ يقال: كيف سيرى أهلُ الجنة كلُّهم ربَّهم تبارك وتعالى وهو واحد، فلا يمكن هذا؟! فبيَّن الرسول ﷺ أن هذا أمكَن في المخلوق وهو القمر، فهو ممكن في حق الله جلَّ وعلا من باب أولى، ففي هذا إزاحة للإشكال، وإيضاحٌ بالمثال.

وفي الحديث الحثُّ على المحافظة على الصلوات الخمس لا سيَّما الفجر والعصر، وأن ذلك سبب لرؤية الله عز وجل يوم القيامة.

وفيه أن مَن لم يحافظ على الصلوات الخمس فإنه يحرم من رؤية الله يوم القيامة؛ نسأل الله العفو والعافية.

[انتصار الله لأوليائه وانتقامه من أعدائهم]

٢٥- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى قال: مَن عادى لي وَليّاً فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مِنْ أداءِ ما افترَضتُه عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمعَه الذي يَسمعُ به، وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطيَنَّه، ولئن استعاذَني لأُعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن قَبْضِ نَفْسِ عبدي المؤمنِ، يَكرَهُ الموتَ وأكرَهُ مَساءَتَه ولا بدَّ له منه» رواه البخاري[1]. [٢٥]

---

[٢٥] هذا حديث عظيم، فيه أن الله جلَّ وعلا يقول في هذا الحديث القدسي: «مَن عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب» الوليّ: العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وهو المحبوب، ووليُّ الله: عبده الذي يُحِبه سبحانه وتعالى، وقد تقدم لنا أن الله يوصف بأنه يُحِب أهلَ الإيمان، فمن أحبَّه الله فهو وليّ الله، والوَلاية بفتح الواو:

---

(١) برقم (٦٥٠٢).

الحبّ، وأما الوِلاية بكسر الواو: فهي الوظيفة والإمارة، وأمّا الوَلاية بفتح الواو: فهي المحبة.

وقد بيّن الله تبارك وتعالى مَن هو وليُّه في كتابه العزيز فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣] هؤلاء هم أولياء الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فمن اتصَّف بالإيمان والتقوى فهو وليُّ الله سبحانه وتعالى، ومن ترك الإيمان والتقوى فهو عدوُّ الله، فإذا أردت أن تكون ولياً لله فكن من المؤمنين المتقين. فليست الولاية مجرّد دعوى باللسان كقول اليهود والنصارى كما أخبر سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، فلو كنتم أولياء الله لما عذّبكم، فالله ردَّ عليهم بأنهم ليسوا بمؤمنين ولا متّقين، ثم قال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨]، فدعوى الولاية لا يثبت إلا بدليل وبرهان، فمن كان تقيّاً ومؤمناً بالله عز وجل فهو وليٌّ لله، وأمّا من كان بخلاف ذلك فإنه عدوٌّ لله سبحانه وتعالى.

فقوله: «مَن عادى لي وليّاً»: أي عبداً محبوباً لي من المؤمنين المتقين، «فقد آذنته بالحرب» أي: أعلمته بأنّي أحاربه على عداوته لوليِّي؛ وإعلان الحرب من الله سبحانه وتعالى بها يشاء من جنوده، فقد يحاربه بالأمراض وبالفقر أو بموت الأحباب والأقارب، ويحاربه بكل المصائب أو بتسليط الظَّلمة عليه، فله سبحانه جنود السماوات والأرض؛ فهو سبحانه يحارب أعداءَه بجنوده التي هي جنود السماوات والأرض، فقد نراهم وقد لا نراهم، فالذي يُعادي أولياء الله فإنه سبحانه يحاربه.

فهذا الحديث فيه أنه لا يجوز محاربة أولياء الله ومعاداتهم، وأنَّ من عاداهم وآذاهم فإن الله ينتقم منه، فهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين بالاستهزاء والسُّخرية والتنقُّص منهم من خلال كتاباتهم في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، فيسخرون من أهل الدِّين والإيمان وأهل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هؤلاء يتناولهم هذا الحديث، والله ينتصر لأوليائه، فينبغي عدم إيذاء أولياء الله وعدم التنقُّص لهم، أو التعرُّض لهم بأيِّ نوع من أنواع الأذى.

وقوله: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ من أداء ما

افترضته عليه» هذا فيه - كما سبق - إثبات صفة الحبِّ لله جلَّ وعلا، وأنه سبحانه يحب الأشخاص والأعمال الصالحة التي تُعمل من قِبَلهم، وفيه أن الفرائض أحبُّ إلى الله من النَّوافل، فينبغي على الإنسان أن يحافظ على الفرائض أولاً ثم يأتي بالنوافل، أمَّا أن يأتي بالنوافل ويترك الفرائض فهذا على عكس ما يحبُّه الله تعالى، وهذا لا ينفعه، إذا لا تُقبل النوافل إلا بعد أداء الفرائض، فينبغي للمسلم الاهتمام بأداء الصلوات الخمس وصوم رمضان، ودفع الزكاة وأداء فريضة الحج، وكل ما افترضه الله عليه كالبرِّ بالوالدين والإحسان إلى الأقارب. فالأصل في هذا هو أداء الفرائض أولاً ثم بعد ذلك التزوُّد بالنوافل، هذا هو الأساس السليم للأعمال الصالحة.

وقوله: «وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه» والنوافل: هي العبادات غير المفروضة سواء في الصَّلاة أو في الصدقات أو في الصيام أو في الحج والعمرة، فكل عمل صالح ينقسم إلى قسمين: فرائض، ونوافل، فيُبدأ بالفرائض أولاً، ثم بعد ذلك يأتي بالنوافل، فينبغي التقرُّب إلى الله بالوصول إليه من خلال هذه النوافل، وأما

عصيانه فإنه يؤدي إلى الابتعاد عنه جلَّ وعلا، فالتقربُ إلى الله إنما يكون بالطاعات والابتعاد عنه جلَّ وعلا يكون بعمل المعاصي.

وقوله: «حتى أُحبَّه» فكما ذكرنا فيه إثبات صفة الحبِّ لله جلَّ وعلا، وأنه يُحب عبده الذي يتقرب إليه بالفرائض أولاً ثم بالنوافل.

وقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به» ومعنى ذلك كما فسَّره في آخر الحديث بقوله: «ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذني لأُعيذنَّه» فآخر الحديث يفسِّر أوله، والمراد أن الله جل وعلا يكون معه معيَّة خاصة فيُسدِّدهُ في أقواله وفي أفعاله؛ هذا معنى قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به... الخ»، وليس معناه أنه جلَّ وعلا معه معيَّة حسيَّة تقتضي المخالطة؛ أو يختلط في جسمه كما تقوله الحلولية والبهائية مما يُعتبر من الكفر والإلحاد، ولكن معناه أنه سبحانه يكون معه معيَّة خاصة تقتضي التوفيق والهداية والتسديد في جميع تصرُّفاته، وهذا نتيجة محبَّة الله له، وهذا كلُّه حاصل من التقرُّب إلى الله جلَّ وعلا بالفرائض والنوافل؛ ففيه فضل التقرُّب إلى الله بالفرائض والنوافل.

وقوله: «وما ترددت عن شيء أنا فاعلُه ترَدُّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن» الله جلَّ وعلا يُحبُّ ما يحبُّه عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، فالمؤمن يكره الموت، والله جلَّ وعلا يكره له ذلك، ولكنه لا بدَّ منه؛ ولهذا قال: «وما تردَّدتُ» والتردُّدُ يكون بين شيئين، ولكن الله جلَّ وعلا لا يتردّد، وإنما معناه كرهت، وهو ما جاء في آخر الحديث، والمراد: ما كرهت شيئاً أشدّ من قبض روح المؤمن؛ لأن الإنسان بطبيعته يكره الموت، وحتى البهائم تكره الموت، ولكن لا بدَّ له منه؛ وقوله: «أكره مَساءَته» يفسِّر قوله: «ما تردَّدت»؛ فالحديث يفسِّر بعضه بعضاً، فإما أن يكون في حديث واحد أو في حديث آخر، وكذا كلام الله يفسِّر بعضه بعضاً، ومثل هذا يحتاج إلى فقه وعدم استعجال في الفهم.

[إثبات نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا]

٢٦- وعنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَنزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا حين يبقى ثُلثُ اللَّيلِ الآخِرِ يقول: «مَن يَدعوني فأستجيبَ له، مَن يَسألُني فأُعطيَه، مَن يَستغفرُني فأَغفرَ له» متفق عليه(١). [٢٦]

[٢٦] الله جلَّ وعلا موصوفٌ بالعُلُوِّ فوق مخلوقاته، وموصوف بالاستواء على العرش، وموصوف بأنه ينزل إلى سماء الدُّنيا، وكل هذا نُثبته لله عزَّ وجل؛ لأنه جاء بأدلةٍ صحيحة، فنثبت لله العُلُوَّ، ونثبت له الاستواء على العرش، ونثبت له سبحانه النُّزول إلى سماء الدُّنيا كما جاء عن رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، فنحن نثبت نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة كما صحَّ في الحديث ولا ندخل في تأويل ذلك أو في استنكاره، بل نثبت ما أثبته الله جلَّ وعلا لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ كما جاء دون الدُّخول في الكيفية، فلا نقول: كيف ينزل؟ وهل ينتقل من مكان إلى مكان؟ ونحو هذه

(١) البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

الأسئلة التي لم نكلَّف بها، ولا فائدة منها، ولكن نقول: ينزل كيف يشاء سبحانه وتعالى، فكيفية النزول لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وكذلك الاستواء، فلا نعلم كيفية استوائه جلَّ وعلا، ولمَّا سأل رجل الإمام مالك بن أنس قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ فقال الإمام مالك بعدما أخذته الرُّحضاء، ثم أطرق رأسه حياءً من الله سبحانه وتعالى، ثم رفع رأسه وقال: يا هذا، الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ثم أمر به فأُخرج من المجلس. هكذا كان السلف الصالح يثبتون ما أثبته الله لنفسه على معناه الصحيح الذي جاء به، ولا يتعرَّضون للكيفية، ونحن نثبت النزول كما نثبت الاستواء والعلو لله سبحانه وتعالى، ونقول: الله أعلم بكيفية نزوله واستوائه.

فقوله: «ينزل إلى سماء الدنيا» فيه إثبات النزول لله جلَّ وعلا، وهو أمر متواتر عن الرسول ﷺ، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مؤلَّفاً مستقلاً على هذا الحديث سمَّاه «شرح حديث النزول» وهو مطبوع ومنتشر ولله الحمد وهو من عقيدة أهل السُّنة والجماعة.

وقوله ﷺ عن ربّه: أنه يقول «من يَدعُوني فأستجيب له، مَن يسألني فأُعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له» فيه فضل وقت آخر الليل، أي: الثلث الأخير منه، وفضل قيام العبد في هذه الفترة وصلاته ودعائه واستغفاره وتوبته وسؤاله لربِّه من أجل أن ينال هذه الكرامات من الله جلَّ وعلا، فلا تمرُّ عليه هذه الفترة وهو نائم، بل يقوم في الثلث الأخير من الليل ويتعرض لنفحات الله ويحظى بهذه الإجابات منه سبحانه وتعالى.

وأهل التأويل يؤوِّلون هذا الحديث بقولهم: إنما ينزل أمرُه إلى سماء الدُّنيا! ونحن نقول: هل الأمر الذي أوّلوا به النزول يقول: مَن يَدعوني فأستجيب له؟ أو من يسألني فأعطيه؟ وهل الأمر يغفر؟ وهل الأمر يجيب الدعاء ويتوب على التائب؟! ما أقبح هذا التأويل! فالحديث واضح في أنَّ الله ينزل بذاته نزولاً حقيقياً لا أمرُه، إذ إنَّ أمرَه ينزل إلى سماء الدُّنيا وإلى الأرض كل وقت وليس في وقت مخصوص، والواجب علينا والحالة هذه الإيمان بما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وأن لا نَدخل في الكيفية.

وبعضهم يُورد شُبهة أخرى في هذا الحديث ويقول: ثلث الليل

الآخر يختلف باختلاف الأقاليم! نقول: إن هؤلاء يبحثون في أمور لم يكلفهم الله بالبحث فيها، فالذي خلق الليل والنهار وخلق الأقاليم قادر على أن ينزل نزولاً يليق بجلاله، متى شاء وكيف شاء سبحانه وتعالى، فالله جلَّ وعلا قادر على كل شيء، فهو سبحانه أخبرنا أنه ينزل، فنقول: ينزل، سواء اختلف الليل، أو اختلفت الأقاليم، والله تعالى أعلم.

٢٧- وعن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنّتان مِنْ ذَهبٍ آنيتُها وما فيها، وجنّتان مِنْ فِضَّةٍ آنيتُها وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلاّ رِداءُ الكِبْرياء على وَجهه في جَنَّةِ عَدْنٍ» رواه البخاري(١). [٢٧]

[٢٧] الجنّات كثيرة، فهناك جنّة عدن، وجنّة الفردوس، وجنّة النعيم، وهناك جنان كثيرة، وأعلاها الفردوس، وفي الحديث: «إذا سألتم الله فَسَلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنّة وأعلى الجنّة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفجَّر أنهارُ الجنّة»(٢)، والجنان مخلوقة، فمنها ما هو مخلوق من ذهب كله بآنيته وما فيه، ومنها ما هو مخلوق من فضة آنيته وما فيه، والمؤمنون ينزلون في الجنان بحسب أعمالهم.

ففي الحديث إثبات الجنان وهي من أمور الآخرة ومن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فنؤمن بوجود الجنّة وبوجود النار، ونؤمن بما يكون يوم القيامة بجميع ما أخبر الله جلَّ وعلا به وما أخبر عنه رسوله ﷺ، فما صحَّ في الخبر نؤمن به.

(١) برقم (٤٨٧٨) و(٤٨٨٠)، وأخرجه مسلم (١٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والشاهد في الحديث: بيان أنه ليس بين أهل الجنة وبين أن يروا ربَّهم إلاّ أن ينزع سبحانه الحجاب، فهذا فيه إثبات الرؤية كما سبق، وأن المؤمنين يَرون ربَّهم.

وفيه إثبات الحجاب لله عزَّ وجل، وأنه اتخذ الحجاب، فإذا شاء سبحانه وأراد إكرام المؤمنين حقَّهم برأفته وتفضَّل عليهم ونزعه فرآه المؤمنون.

باب

قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]. [٢٨]

---

[٢٨] قال الشيخ رحمه الله: «باب قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي: بيان تفسير هذه الآية وما جاء بمعناها من الأحاديث الصحيحة؛ لأن القرآن العظيم يُفسَّر بالقرآن، فإذا لم يوجد في القرآن تفسير، فإنه يُفسَّر بالسُّنة الثابتة عن الرسول ﷺ، وهذه الآية جاء تفسيرها في السُّنة.

فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني: الملائكة إذا سمعت كلام الربّ سبحانه وتعالى، فإنه يُصيبهم فزع وخوف من الله جلّ وعلا؛ لأنّ كلامه عظيم ترعد له السماوات، ولو أنزل الله القرآن على جبل لأصبح خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله، فكلامه سبحانه له هيبة وعظمة وجلال، فإذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السماوات منه رعدة شديدة وهي جماد، فإذا سمع ذلك الملائكة صعقوا وأصابهم غشي وخرُّوا لله سُجَّداً تعظيماً له سبحانه وتعالى وهيبة من كلامه، وخوفاً من غضبه؛ هذا كلام الله الذي هو بين أيدينا الآن ولا نحرِّك معه ساكناً إذا سمعناه أو قرأناه وذلك لقسوة

قلوبنا ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلو كانت القلوب حيَّةً لأصابها الخوف والإجلال والتعظيم لكلام الله سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالجبل أَلْيَنُ من قلوب بني آدم، وهذا من العجائب، لكن ما السَّبب الذي جعل القلوب هكذا؟ إنها الذُّنوب والمعاصي والغفلة عن ذكر الله، وأكل الحرام والاشتغال بالقيل والقال والضحك والمزاح، كل هذه الأمور من شأنها أن تُقسِّي القلوب، فإذا سَمِعت هذه القلوب كلام الله فإنها لا تتأثر ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ مع أنَّ السماوات على عظمها تَرعُد من كلام الله، والملائكة تصعق وتَخِرُّ ساجدة لله جل شأنه عند سماع كلامه.

ثم إن الملائكة يتساءلون إذا ذهب عنهم الفزع: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ يسألون جبريلَ عليه السلام، أمين الوحي، فيقول جبريل: قال الحقَّ، فإذا سمعوا ذلك: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فهذا فيه بيان عظمة كلام الله جلَّ وعلا، ووَجَل الملائكة والسماوات والمخلوقات العلويَّة منه.

[بيان افتراء الكهنة وكذبهم]

٢٨ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: حدَّثني رجلٌ عن أصحاب النبيِّ ﷺ مِن الأنصار أنَّهم بينما هم جلوسٌ ليلةً مع رسولِ الله ﷺ إذْ رُميَ بنجمٍ فاستَنارَ فقال: «ما كنتم تقولون إذا رُميَ بمِثل هذا؟» قالوا: كنّا نقول: وُلِدَ الليلةَ عظيمٌ، أو مات عظيمٌ، فقال: «إنها لم تُرمَ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكنْ ربُّنا عزَّ وجلَّ إذا قضى أمراً سبَّحت حَمَلَةُ العرشِ، حتى يُسبِّحَ أهلُ السماءِ الذين يَلُونهم، حتى يبلغَ التَّسبيحُ أهلَ السماءِ الدُّنيا فيقول الذين يَلُونَ حَمَلَةَ العرشِ: ماذا قال ربُّكم؟ فيُخبِرونَهم ماذا قال، فيَستخبِرُ أهلُ السَّماواتِ بعضُهم بعضاً حتى يبلغَ الخبرُ أهلَ السماءِ الدُّنيا، فتَخطَفُ الجنُّ السَّمعَ فيُلقونَه إلى أوليائهم، فما جاؤوا به على وَجهِه فهو الحَقُّ ولكنهم يَقرِفونَ ويَزيدونَ» رواه مسلم والترمذي والنسائي(١). [٢٩]

---

[٢٩] قوله: «حدثني رجل عن أصحاب النبيِّ ﷺ» كونه قال:

---

(١) مسلم (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٠٨).

«عن أصحاب النبي ﷺ» فهذا لا يحتاج إلى بحث؛ لأنَّ الصحابة كلهم عدول، فالجهالة في اسم الراوي لا تضرُّ، إنما المجهول إذا كان من غير الصحابة فإنه يُبحث عنه، وأمّا المجهول من الصحابة فلا حاجة للبحث عنه؛ لأن الله سبحانه عدَّلهم ومَدَحهم وأثنى عليهم، وكذا النبيُّ ﷺ مدحهم وأثنى عليهم.

قوله: «رُميَ بنجم» أي: بشهاب، والمراد: رَجْم الشُّهب التي تُرمى بها الشياطين التي تحاول استراق السمع كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]، ورميُ الشُّهب من السماء سببه أنه رجوم للشياطين.

قوله: «فقال ﷺ: ما كنتم تقولون إذا رُميَ بمثل هذا؟» يعني: في الجاهلية؛ لأن رمي الشُّهب متكرِّر، وهو في الجاهلية أكثر، فكانوا في الجاهلية يعتقدون اعتقاداً سيئاً فيقولون: إنه إذا رمي بالشهاب فإنه سيموت عظيم أو سيولد عظيم، هذا ظنَّهم

وتخرُّصهم، كما كانوا يعتقدون ذلك إذا ما كُسفت الشمس أو خُسف القمر، فبيَّن ﷺ كذب هذا الزعم وأنه غير صحيح، وأن هذه الشُّهب ليست لولادة أحد أو لموت أحد، وإنما هي لأمر أعظم من ذلك.

قوله: «فقال ﷺ: إنها لم تُرم لموت أحدٍ ولا لحياته» في هذا تصحيح منه ﷺ لاعتقادهم، وفيه تعليم الجُهّال ولا سيَّما في المناسبات الشبيهة بهذه.

قوله: «ولكن ربُّنا إذا قضى أمراً سبَّحت حَمَلة العرش» إذا قضى أمراً سبحانه وتعالى من الأمور التي ستحدث في هذا الكون مما قضاه وقدَّره، فإن الملائكة الذين يحملون العرش يشرعون بالتسبيح، وهذا فيه أن كلَّ شيء يحدث في هذا الكون إنما هو بقضاء وقدر من الله سبحانه وتعالى، فلا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه الله سبحانه وتعالى وقضاه وأراده وقدَّره؛ وفي هذا إثبات القدر.

قوله: «حتى يُسبِّح أهل السماء الذين يلونهم» هؤلاء الملائكة إذا سمعوا كلام الله فإنهم يسبحون له؛ أي: يُنزِّهونه جلَّ وعلا عن النقص والعيب، فيشتغلون بالذِّكر.

وقوله: «حتى يبلغ التسبيح أهلَ السماء الدُّنيا» هذا فيه أن السماوات معمورة بالملائكة، فكل سماء لها ملائكة خاصُّون يسكنونها، وهي سبع سماوات، والملائكة هم عمّار السماوات بالعبادة والتسبيح والتهليل، ومنهم حملة العرش.

وقوله: «فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربُّكم؟» هذا فيه إثبات وجود حملة العرش، وهم أربعة ملائكة، ولا يعلم عِظَم خِلْقَتِهم إلا الله سبحانه وتعالى، ثم إنه يوم القيامة عند قيام الساعة يضاعف عددُهم فيكونون ثمانية؛ قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] زاد عددهم الضعف للهول الذي يحصل.

وقوله: «فيستخبر أهل السماوات بعضُهم بعضاً» يسأل بعضهم بعضاً: ما الذي قضاه الله؟ وما الذي قاله جلَّ وعلا؟

وقوله: «حتى يبلغ الخبرُ أهل السَّماء الدُّنيا» السماءُ الدُّنيا هي التي تلي الأرضَ، فحينما يتكلمون فإنَّ الشياطين تسترق السمع فترتفع في العَنان ويركب بعضُهم بعضاً حتى يصلوا إلى الجوِّ قُرب السماء ليستمعوا ماذا تقول الملائكة.

وقوله: «فتخطف الجنُّ السَّمع فيُلقونه إلى أوليائهم» فهؤلاء الجنُّ يحاولون استراق السَّمع فيُرمون بالشُّهب ولا يُدركون ما أرادوا إلاّ في بعض الأحيان، فقد يخطف الشيطان كلمةً من كلام الملائكة، ثم يُلقيها إلى وليِّه من بني آدم من الكهنة، لأن هؤلاء الكُهّان يأخذون عن الشياطين؛ قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] فإذا حصل الشيطان على هذه الكلمة ألقاها إلى الكاهن من بني آدم، ثم الكاهن يكذب معها مئة كذبة ويحدِّث بها فيُصدِّقه الناس في كلِّ ما قال من الكذب بسبب الكلمة التي سمعها الشيطان من كلام الملائكة.

وقوله: «فما جاؤوا به على وجهه فهو الحقُّ» يعني: يَصدُق في كلمة واحدة وهي التي سمعتها الشياطين، ثم قال: «ولكنهم يَقرِفون ويزيدون» أي: ولكن الكهنة يزيدون على الكلام الذي يسمعونه كما جاء في الحديث: أنه «يكذب مع الكلمة الواحدة مئة كذبة»[1]، فيحدِّث بها النَّاسَ فيُصدِّقونه في كل ما قال بسبب كلمة واحدة

(١) انظر البخاري (٣٢٨٨)، ومسلم (٢٢٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ويقبلون منه التسع والتسعين من الكذب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

والرسول ﷺ قد بيَّن للصحابة ولغيرهم من المسلمين إلى أن تقوم الساعة سبب رَمْي الشُّهب، وأنه ليس كما تقوله الجاهلية إنما كان لموت عظيم أو لولادة عظيم، وإنما كان ذلك بسبب محاولة اختراق الشياطين للسمع، وأنهم يُرمون بهذه الشُّهب، هذا ما يدلُّ عليه هذا الحديث.

وفي الحديث أيضاً إثبات صفة العُلُوِّ لله سبحانه وتعالى فوق مخلوقاته على عرشه.

وفيه أن السماوات معمورة بالملائكة، كل سماء مملوءة بالعُمّار من الملائكة الذين يعبدون الله عزَّ وجلَّ ويمتثلون ما يأمرهم به.

وفيه إثبات القضاء والقدر، وفيه تفسيرٌ للآية الكريمة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] كما يأتي هذا في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه التالي.

٢٩- وعن النَّواس بنِ سَمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله أنْ يُوحيَ بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذتِ السماواتُ منه رَجفةٌ - أو قال: رِعْدَةٌ - شديدةٌ؛ خوفاً من الله عزَّ وجلَّ، فإذا سمع ذلك أهلُ السماواتِ صَعِقوا - أو قال: خَرُّوا - لله سُجَّداً، فيكون أولُ مَن يرفع رأسَه جبرائيل عليه السلام، فيُكلِّمُه اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بما أراد، ثم يَمرُّ جبرائيلُ على الملائكة كلَّما مرَّ بسَماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبرائيل؟ فيقول: قال الحَقَّ وهو العَلِيُّ الكبيرُ، فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبرائيلُ، فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيثُ أمرَه الله عزَّ وجلَّ» رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له(١). [٣٠]

[٣٠] قوله: «إذا أراد الله» هذا فيه إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى.

(١) ابن جرير الطبري في «تفسيره» ١٠/ ٣٧٢، وابن خزيمة في «التوحيد» ١/ ١٨٥، وابن أبي حاتم كما في «تفسير» ابن كثير ٣/ ٧٠٧.

وقوله: «تكلَّم بالوحي» فيه إثبات صفة الكلام لله عزَّ وجل «أخذت السماوات منه رجفة ـ أو قال: رِعْدة ـ شديدة» السماوات ـ وهي جماد ـ ترتجف وترعد من خشية الله سبحانه وتعالى وتعظيم كلامه جلَّ وعلا.

وقوله: «صعقوا» يعني: أصابهم الغشي من هيبة الله جلَّ وعلا كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، هذا لمّا تجلَّى الله للجبل واندكَّ ذلك الجبل خرَّ موسى على الأرض صعقاً من شدَّة الهول والخوف من الله تعالى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الصعق ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكذلك الملائكة إذا أُزيل الفزع الذي أصاب قلوبهم أخذوا ينادون جبريل ويسألونه.

وقوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل عليه السلام» لأنه أمين الوحي، والسفير بين الله عزَّ وجل وبين رسله بالوحي، وهو أشرف الملائكة سمّاه الله أميناً فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ٩٣ - ٩٥]؛ فجبريل عليه السلام موكَّل بالوحي، وهذا يدلُّ على شرفه وفضله عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «فيكلمه الله من وحيه بما أراد» هذا فيه إثبات صفة الكلام لله عزَّ وجل، فيكلم جبريل عليه السلام بالوحي الذي يوحيه إلى أحد أنبيائه.

وقوله: «ثم يمرّ جبرائيل على الملائكة، كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبرائيل؟» هذا فيه اهتمام الملائكة بكلام الله عزَّ وجل، وفيه فضل جبريل كونه هو الذي يحمل الوحي، اختُصَّ بذلك من بين الملائكة، حتى إن الملائكة يسألونه سؤال المتعلّم للعالم.

وقوله: «فيقول: قال الحقّ وهو العلي الكبير» يقول جبريل بعدما سأله الملائكة: «ماذا قال ربُّنا جبرائيل؟»، فيُجيبهم «فيقول: «قال الحق وهو العلي الكبير»، فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل».

وهذا فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى وأن كلامه حقٌّ لا يعتريه الباطل كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قوله: «فيقولون كلُّهم مثلما قال جبرائيل» أي: قالوا كلهم: «قال الحقّ وهو العلي الكبير»، هذا تفسير آية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: قالوا: قال اللهُ الحقَّ.

قوله: «فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عزَّ وجلَّ»
أي: ينتهي به جبريل إلى ما أمره الله من تبليغ الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن جبريل هو الوسيط بالوحي بين الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧] واليهود يُعادون جبريل، فقد قالوا للرسول ﷺ: لو كان الذي يأتيك غير جبريل لآمنّا بك، لأن جبريلَ عدوٌّ لنا، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فهذا القرآن ليس من كلام جبريل، وإنما هو من كلام الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨] هذه مقالة اليهود، وهناك من الطوائف الضالة المنحرفة من يقول بقول اليهود، ويقولون: إن جبريل خان الرسالة لأنها لعليّ بن أبي طالب، ولكن جبريل صرفها لمحمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين؛ قبحهم الله، لأنهم هم أنفسهم منحدرون من اليهود، فهذه مقالة اليهود تماماً.

باب قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. [٣١]

---

[٣١] هذا الباب جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وتفسير هذه الآية جاء في السُّنة كما في «صحيح»[١] مسلم «يطوي الله عزّ وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبّارون، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبّارون؟ أين المتكبّرون؟»، ويكرِّر هذا فلا يُجيبه أحد، كما جاء في حديث آخر[٢]، فيجيب سبحانه وتعالى نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ولا أحد يعترض على هذا، كلٌّ مقرٌّ بأنَّ الملك لله سبحانه وتعالى، وهذا من توحيد الرُّبوبية وهو مقرَّة به جميع الأمم وأن الملك اليوم لله، ولكنهم في

---

(١) برقم (٢٧٨٨) عن حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «المستدرك» للحاكم ٢/ ٤٧٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

حياتهم الدُّنيا كانوا يعبدون معه غيره، يزعمون أن هؤلاء شفعاء ووسائط عند الله سبحانه وتعالى، وإلاّ فهم يعرفون أنَّ هذه المعبودات ليس لها من الملك شيء، وأن الملك لله عزَّ وجلَّ.

[قَبْض الله تعالى الأرض وطيُّ السماء بيمينه]

٣٠- عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «يَقبِضُ الله الأرضَ، ويَطوي السَّماءَ بِيَمينِهِ ثم يقول: أنا الملك، أين ملوكُ الأرض؟» رواه البخاري(١) [٣٢]

[٣٢] وهذا تفسير آخر للآية فيه أن الله تبارك وتعالى يقبض الأرض ويطوي السماء بيديه سبحانه وتعالى، وفي هذا دليل على عظمة الله جلَّ وعلا، وأن هذه المخلوقات حقيرة قياساً بعظمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ أي: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه حيث إنهم كذَّبوا رسله وأشركوا بالله عزَّ وجلَّ وعبدوا غيره وأنكروا كلامه، وأنكروا أسماءه وصفاته، وتجرؤوا على حرماته، وتركوا طاعته، كل هؤلاء ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وهم الكفّار والمشركون والعُصاة والفِرق الضالَّة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين نَفَوا أسماء الله وصفاته وحرَّفوا، فجميعهم داخلون في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: ما عظَّموه حق تعظيمه، وكذلك كل مَن خالف أمر الله وعصاه

(١) برقم (٧٣٨٢)، وأخرجه مسلم (٢٧٨٧).

وارتكب ما نهاه عنه، وترك ما أوجبه عليه، فإنه لم يُقدر الله حقَّ قَدْرِه، وقد بيّن سبحانه عظمته، وأنَّ من عظمته أنه يطوي هذه المخلوقات يوم القيامة ويقبضها بيدية على الرَّغم من اتساعها وضخامتها، وهي سبع سماوات وسبع أرضين مضافاً إليها ما في الأرض من المخلوقات والجبال والبحار والأشجار، كلها يقبضها الله عزَّ وجل بيديه وعلى أصابعه جلّ وعلا كما جاء في الحديث[1].

(١) انظر البخاري (٧٤١٥)، ومسلم (٢٧٨٦)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

٣١- وله(١) عن ابن عمرَ رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يَقبِضُ يومَ القيامةِ الأَرَضِينَ، وتكون السَّماواتُ بيَمينِه ثم يقول: أنا المَلِكُ» [٣٣]

[٣٣] يقول الله جلَّ وعلا يوم القيامة: «أنا الملك» أين الجبّارون؟ أين المتكبّرون؟ لقد كان في الدُّنيا جبابرة ومتكبِّرون عن طاعته جلَّ وعلا، وكانوا يستعملون جبروتهم على الناس، ويظلمونهم، ويتسلَّطون على العباد، لكن في الآخرة وبمجرد أن تقوم القيامة يذهب سلطانهم ومُلكهم، ولا يبق المُلك إلا لله الواحد القهار سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث فيه إثبات أن من أسمائه جل وعلا المَلِك، وهو المَلك الحقيقي، وأمّا غيره من الملوك فملكهم إنما هو مجرد منحة منه جلَّ وعلا، وإلاّ فالمَلِكُ الحقيقي هو الله جلَّ وعلا؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فملوك الدنيا جميعهم إنما ملكهم منحة وعطية منه جلَّ وعلا، وليس

(١) البخاري (٧٤١٢)، وأخرجه مسلم (٢٧٨٨).

ملكهم بسبب قوتهم ومكانتهم وإنما هو ابتلاء وامتحان منه سبحانه وتعالى، يبتليهم ويبتلي بهم، يبتليهم بإعطائهم الملك ويبتلي بهم الناس بتسليطهم عليهم.

٣٢- وفي رواية عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يُحرِّكها ويُقبِل بها ويُدبِرُ: «يُمجِّدُ الرَّبُّ نفسَه: أنا الجبّارُ، أنا المُتكبِّرُ، أنا العزيزُ، أنا الكريمُ» فرجفَ برسول الله ﷺ المِنبَرُ حتى قلنا: لَيخِرَّنَّ به. رواه أحمد(١). [٣٤]

---

[٣٤] لقد بيَّن الرسول ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم هذه الآية وفسَّرها على المنبر، فأخبرهم أن الله سبحانه وتعالى يقبض السماوات والأرض بيديه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين ملوك الدُّنيا؟ أين الجبّارون؟ أين المتكبِّرون؟ ثم إنه جلَّ وعلا يعظم نفسه بأسمائه وصفاته، كما ذكر ذلك النبيُّ ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، حتى إنَّ المنبر وهو جماد قد اهتزَّ من هيبة الله وجلاله وعظمته، وهذا يعني أنَّ الإدراك موجود في الجمادات، فهي تعرف ربَّها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]،

---

(١) في «المسند» برقم (٥٤١٤).

فكلُّ المخلوقات تسبِّح الله بلغتها التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. وهذا المنبر قد اهتزَّ من هيبة الله وعظمته جلّ وعلا، وقد كان ﷺ يخطب في أول الأمر على جِذْع نخلة، فيضع يده عليها ﷺ ويخطب، ثم لمّا صُنع له المنبر ترك الجذع وصعد على المنبر وصار يخطب الناس، ولكن الجِذْع حَنَّ إلى رسول الله ﷺ، وبكى كما يبكي الصبيُّ، وسمع الصحابة الجِذْع، حتى نزل رسول الله ﷺ، ووضع يده عليه، فجعل يَئِنُّ كأنين الطفل[١]، وهذا إدراك من الجمادات، وقد يُظهر الله لعباده شيئاً من ذلك للاعتبار والعظة.

---

(١) انظر البخاري (٣٥٨٣)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

٣٣- ورواه مسلم(١) عن عُبيد بن مِقسَم أنه نَظر إلى عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي عن رسول الله ﷺ قال: «يأخذ الله سماواتِه وأرَضيه فيقبِضُهما فيقول: أنا الملكُ، ويَقبضُ أصابعَه ويَبسُطُها فيقول: أنا الملكُ، حتى نَظرتُ إلى المنبرِ يتحرَّكُ من أسفلِ شيءٍ منه، حتى إنِّي لأقولُ: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ». [٣٥]

---

[٣٥] الرسول ﷺ يوضِّح في هذا الحديث للصحابة رضي الله عنهم كيفية قبض الله تعالى للسماوات والأرض، وأنه قبضٌ حقيقي، وهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون بالمجاز، فيبيِّن لهم ﷺ أنه قبض حقيقي، فيقبض بيديه ويفتحهما، وهذا توضيح وليس معناه تشبيه يَدَي الرسول ﷺ بيد الله كما قال ﷺ: «أما إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامونَ في رؤيته»(٢)، فليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عزَّ وجل، وإنما هو تشبيه لرؤية الله برؤية

---

(١) برقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

القمر، وكذلك هنا كما جاء في رواية ابن عمر فقد قبض الرسول ﷺ يديه ليبيِّن لهم أن القبض حقيقي وليس مجازاً.

وقوله: «حتى نظرت إلى المنبر يتحرَّك من أسفل شيء منه...إلخ» هذا فيه أن المنبر أصابه ما أصابه من الهيبة لله وهو جماد!

[ما هو أوّل هذا الأمر]

٣٤- وفي «الصحيحين»(١) عن عمرانَ بنِ حصينٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البُشرى يا بني تَميم» قالوا: قد بشَّرتَنا فأعطِنا، قال: «اقبلوا البُشرى يا أهلَ اليمن» قالوا: قد قَبِلْنا فأخبِرْنا عن أوّل هذا الأمر، قال: «كان الله قبل كلِّ شيء وكان عرشُه على الماء وكتب في اللّوح المحفوظ ذِكْرَ كلِّ شيءٍ» قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عِمْرانُ، انحلَّتْ ناقتُكَ من عِقالِها. قال: فخرجتُ في أثرِها فلا أدري ما كان بعدي. [٣٦]

---

[٣٦] الرسول ﷺ عَرَضَ البشرى على بني تميم، ولكنهم استعجلوا ذلك وقالوا: أعطنا، دون أن يستفسروا ويعرفوا حقيقة هذه البشرى، وإنما كان همُّهم نصيبَهم من عَرَض الحياة الدُّنيا فقالوا: بشَّرتنا فأعطنا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، فأعرض عنهم الرسول ﷺ وقال لأهل اليمن: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن» قال ذلك بعدما لم يقبلها بنو تميم، فقالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن هذا أول الأمر؛ ذلك أن بني تميم لم يقبلوا ولكنهم

---

(١) البخاري (٤٧١٨)، وأحمد (١٩٨٧٦)، ولم يخرجه مسلم.

قالوا: فأعطنا؛ ظناً منهم أن البشرى أمر دنيويٌّ، ولكنه ﷺ لم يكن هذا قصده، ولذلك كان أهل اليمن أحسن أدباً من بني تميم؛ فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله؛ فأخبرنا عن أول هذا الأمر، يعني: عن أول هذا الخلق، فقد طلبوا من الرسول ﷺ أن يبيِّن لهم بداية هذا الخلق، والخلق ـ لا شك ـ أنه حادثٌ، وأن له بداية، وأما الخالق ـ جلَّ وعلا ـ فإنه ليس له بداية، ولهذا قال ﷺ: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»(١)، هذا تفسير الرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ في هذه الأسماء الأربعة المتقابلة.

قوله: «كان الله قبل كلِّ شيء» يعني أنه سبحانه ليس له بداية، وأما المخلوقات فإنه لها بداية؛ لأنه هو الأول فليس قبله شيء سبحانه وتعالى.

وقوله: «وكان عرشه على الماء» أي على الماء الذي فوقه السموات

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذا فيه دليل على أن العرش هو أول المخلوقات، وهو أعلاها، إذ ليس قبل العرش شيء من المخلوقات، وكان على الماء، فهو بحر في السماوات كما جاء في الحديث: «وما بين الكرسي والماء مسيرة خمس مئة عام، والعرش على الماء، والله عز وجل على العرش يعلم ما أنتم عليه»[(١)]، وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقوله: «وكتب في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كلِّ شيء» هذا فيه أن كل شيء يحدث من أول الخلق إلى آخره إنما هو مقدَّر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفي هذا إثباتُ القضاء والقدر، والكتابة في اللوح المحفوظ.

وقوله: «قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران، انحلَّت ناقتك من عقالها...الخ» لم يكن عمران ﷺ استكمل كلامه مع الرسول ﷺ بسبب أن ناقته كانت قد انحلَّت من عقالها، فلما أُخبر بذلك خرج في إثرها لطلبها، ولم يكن قد أدرك آخر الحديث.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٩/ ٢٠٢ (٨٩٨٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.

[النهي عن الاستشفاع بالله على أحد]

٣٥- وعن جُبير بن محمَّد بن مُطعم عن أبيه عن جدِّه قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جَهِدَتِ الأنفُس، وضاعتِ العيالُ، ونَهِكَتِ الأموالُ، وهَلكتِ الأنعامُ، فاستَسقِ لنا ربَّك فإنَّا نستَشفِعُ بك على الله وبالله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «وَيْحَك! أتدري ما تقول؟» وسبَّح رسول الله ﷺ، فما زال يُسَبِّحُ حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابِه، ثم قال: «وَيحك! إنه لا يُستَشفعُ بالله على أحدٍ من خَلقِهِ، شأنُ الله أعظمُ من ذلك، وَيحك! أتدري ما الله؟ إنَّ عرشَه على سماواتِهِ لَهكذا» وقال بأصابعِهِ مثلَ القُبَّةِ عليه «وإنه ليَئِطُّ به أطيطَ الرَّحْلِ بالراكبِ» رواه أحمد وأبو داود[1]. [٣٧]

---

[٣٧] وهذا الحديث كذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فهذا الأعرابي كان قد حصلت منه إساءة في حقه جلَّ وعلا، فهو ما قَدَرَ الله حقَّ قدرِه، وذلك لأنه لم يعرف الله عزَّ وجل من خلال قوله للرسول ﷺ: «... وبالله عليك» بسبب

---

(١) أبو داود (٤٧٢٦)، ولم أقف عليه في النسخ المطبوعة من «مسند أحمد».

جهله؛ والجهل آفة.

ففي هذا الحديث الحثُّ على معرفة الله جلَّ وعلا بأسمائه وصفاته وأفعاله، حتى يَقْدُروه حقّ قدره جلّ وعلا، فمَن لم يعرف الله فإنه حَرِيٌّ بأن لا يَقْدِر اللهَ حقَّ قدره.

وقوله: «جاء أعرابيٌّ» الأعرابيّ: هو الذي يسكن البادية؛ والحَضَري: هو الذي يسكن الحاضرة. والغالب على الأعراب الجفاءُ والجهل؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٩٧]، ولهذا جاء النهي عن البقاء في البادية ولهذا قال ﷺ: «مَنْ سكن البادية جَفَا»[1]، وجاء الحثُّ على الذهاب إلى أهل الحواضر لأجل التعلُّم، فلا يبقى الإنسان أعرابياً وبدوياً طوال حياته، وإنما ينبغي له أن يتفقَّه في دين الله عزَّ وجل.

فهذا الأعرابي جاء وطلب من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، وطلبٌ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٣٦٢)، وأبوداود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٠٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كهذا لا غبار عليه، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا أجدبوا يطلبون من النبيِّ ﷺ أن يستسقي لهم، وكان هذا الأعرابي قد أخبر النبي ﷺ ما حصل للناس بسبب تأخُّر نزول المطر من الجدب والقحط والفقر، ومثل هذه الأمور لا بأس من ذكرها للغير حتى يكون هذا حافزاً لطلب السُّقيا من الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال هذا الأعرابي للنبي ﷺ: «فإنَّا نستشفع بك على الله» وهذا القول أيضاً لا غبار عليه، أنهم يطلبون الشفاعة من الرسول ﷺ، وطلب الشفاعة منه ﷺ أو من غيره إن كان حاضراً لا بأس به، وهذا بخلاف طلب الشفاعة من الميت، فهو الممنوع. والشفاعة معناها: الدُّعاء، فإذا دعوت لأخيك فقد شفعت له، وصلاة المسلمين على الميت شفاعة له، والشفاعة إنما تُطلب من الأحياء القادرين على الدُّعاء، فقوله: «نستشفع بك على الله» يعني: بدعائك، وهذا القول منه للنبي ﷺ مقبول.

وقوله: «وبالله عليك»؛ أي: نستشفع بالله عليك، هذه الجملة هي التي أنكرها الرسول ﷺ؛ لأنه جعل الله جلَّ وعلا شفيعاً عند الرسول ﷺ، فجعل الخالق شافعاً عند المخلوق، وهذا فيه تنقُّص لله

عزَّ وجلَّ، فهو لم يَقْدر الله حقَّ قدره، فهذا هو وجه إنكار الرسول ﷺ على قوله هذا؛ لأنه تنقَّص الله فاستشفع به إلى الرسول ﷺ، وهو ﷺ لم يرضَ بهذا بل أنكره.

ففي هذا الحديث إنكار المنكر، وفيه تغليظ على من أساء بحقِّ الله سبحانه وتعالى، فلا يقال: هذا جاهل، بل يُغلَّظ عليه لأجل أن يرتدع هو وغيره، فمن أساء بحقِّ الله فإنه ينكر عليه ويشدِّد القول بحقِّه ولا يُترك بحُجَّة أنه جاهل؛ لأجل أن يَدرك ويعرف أنه أخطأ وأساء الأدب مع خالقه جلَّ وعلا؛ فيتوب ويُقدِّر الله جلَّ وعلا حقَّ قدره؛ ولهذا شدَّد الرسول ﷺ عليه وسبَّح الله ونزَّهه عمَّا قال هذا الأعرابيّ وكرَّر التسبيح تنزيهاً لله عمّا قاله هذا الأعرابيّ!

وقوله: «فما زال يُسبِّح ﷺ حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه»، يعني: قد شاهد الصحابة رضوان الله عليهم شدَّة التأثُّر في وجهه ﷺ، لِمَا قاله هذا الأعرابي. وبالتالي عُرف ذلك في وجوه الصحابة رضي الله عنهم. ثم بيَّن ﷺ للأعرابيّ بعدما أنكر عليه وبعدما نزَّه الله جلَّ وعلا عن هذا التنقُّص وعلَّمه بقوله: «ويحكَ! أتدري ما الله؟»

ثم بيَّن له ﷺ عظمة الله جلَّ وعلا وأنَّ هذه المخلوقات العظيمة الهائلة من السماوات والأرض كلها تحت العرش، والعرش هو أعظمها وأكبرها، والله جلَّ وعلا فوق عرشه، وهذا العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات له تأثُّر من استواء الله عليه، حتى إنَّ له أطيطا، يعني: له صوت؛ ولهذا قال ﷺ: «وإنه ليَئِطُّ به أطيطَ الرَّحْل بالراكب» وهذا دليل على عظمته سبحانه وتعالى، فهذا العرش العظيم الذي فوق السماوات ومحيط بها وشاملٌ لها كلها، والكرسيّ قد وسع السماوات والأرض، والكرسي في العرش كحلقة في أرض فَلاةٍ، وهذا دليل على عظمة هذا العرش، والله جلَّ وعلا أعظم من ذلك، فالعرش مع عظمته وسعته يحصل له هذا التأثر الذي عبَّر عنه ﷺ بقوله: «وإنه ليئطُّ به أطيط الرَّحْل بالراكب» من استواء الله عليه، فكيف مَنْ هذا شأنُه، وهذه عظمته سبحانه وتعالى يُستَشفع به على مخلوقٍ من خَلْقه؟! ولهذا قال ﷺ للأعرابي: «أتدري ما الله؟» أي: هل تعرف شأن الله وتعرف معنى ما قلتَه بحقِّ الله سبحانه وتعالى، وكيف أنك أسأت بحقِّه وتَنَقَّصته؟!

وأما قوله: «فما زال يُسبِّح» هذا فيه التسبيح عند إنكار المنكر،

وكذا التكبير عند رؤية أو سماع شيء منكر، وكذلك عند رؤية شيء يُعجب به، فإنه يُسبِّح ويكبِّر الله جلَّ وعلا.

وقوله: «حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه» فقد تأثَّروا رضوان الله عليهم لتأثُّر رسول الله ﷺ، فالأمر عظيم، والكلمة شنيعة. وهذا فيه أن بعض الكلمات تكون وخيمة، فينبغي على الإنسان أن يحفظ لسانه. وفيه أن الإنسان لا يتكلم بحقِّ الله جلَّ وعلا إلاَّ عن علم ومعرفة، ولا يقول على الله بلا علم.

وقوله: «ثم قال: وَيْحَكَ» كرَّر قوله ﷺ: «وَيْحَكَ» دلالة على عظم الأمر، وكلمة «وَيْحَكَ» كلمة تقال لِـمَن أشرف على الهلكة، وفيها معنى الزَّجر.

وقوله: «إن عرشه على سماواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القُبَّة» أي: أشار بيديه كالقُبَّة؛ لأن العرش هو سقف المخلوقات، فإذا كان هو كذلك ففيه دليل على عظمته، لأن المخلوقات على سعتها وامتدادها بما في ذلك السماوات والأرض وما بينهما كلها سقفها العرش، فهوعرش متناهٍ في العِظَم! وفيه بيان أن العرش مُقبَّب.

وقوله: «ليئطُّ به أطيط الرَّحل بالراكب» بيان أنه إذا كان هذا العرش على عظمته وضخامته يُصيبه هذا التأثُّر من عظمة الله عز وجلّ فكيف بغيره من المخلوقات!.

وهذا فيه إثبات استواء الله على عرشه، وفيه أن العرش هو أعظم المخلوقات، وفيه أنه لا يستغاث بالله على أحدٍ من خلقه، وإنما العكس أنه يستغاث بالمخلوق الحي الحاضر إلى الخالق، بمعنى طلب الشفاعة من المخلوق عند الله عزَّ وجلَّ، وذلك بدعائه سبحانه وتعالى للمحتاج، والدعاء للمحتاج إنما هو شفاعة أو نوع منها.

[صبر الله تعالى على تكذيب المخلوق له]

٣٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أمّا تكذيبُه إيّايَ فقوله: لن يُعيدَني كما بَدَأني، وليس أوَّلُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمّا شَتمُه إيّايَ فقوله: اتَّخذَ الله وَلداً وأنا الأحدُ الصَّمَدُ الذي لم يَلِدْ ولم يُولدْ ولم يكن له كُفُواً أحدٌ»(١).

٣٧- وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وأمّا شَتمُه إيّايَ فقوله: لي وَلدٌ وسبحاني أن أتَّخذَ صاحبةً أو ولداً» رواه البخاري(٢). [٣٨]

---

[٣٨] في هذا الحديث تكذيب المخلوق لخالقه جلَّ وعلا، وذلك أنه جل وعلا أخبر أنه سيبعث الخَلق يوم القيامة، وكثير من الخَلق قد أنكروا البعثَ، وقالوا: إن الميت لا يمكن أن يُبعث حيّاً مرةً أخرى بعد أن صار تراباً، فهؤلاء القائلون لهذه المقالة ما قَدَروا الله حقَّ قَدْره، وما عرفوا أن الله على كلِّ شيءٍ قدير، ووصفوا قدرة الله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) برقم (٤٤٨٢).

بالعجز عن إحياء الأموات، وفي هذا تكذيب له عزَّ وجلَّ، مع أنه سبحانه قد أقام الأدلَّة والبراهين الدالَّة على إعادة الخلق والإحياء والبعث، فذكر أنه يُحيي الأرض بعد موتها، فتكون جدباء قاحلة ثم يُنزل عليها الماء وسرعان ما تهتزُّ فتصبح خضراءَ وبهيجةً، فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على أن يُحييَ الأموات يوم القيامة. ثم إنَّ الذي خلقهم أوَّل مرَّةٍ من عَدَم أليس قادراً على أن يُعيدَهم مرة ثانية؛ والإعادة في نظر العقول أهونُ من البداية؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، فالذي قدر على البداءة من لا شيء لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]؛ وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فهو قادرٌ على الإعادة من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠].

ثم إنَّ خَلْق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، فالذي قدر على خَلْق ما هو أعظم قادرٌ على خَلْق ما هو دون ذلك من باب أَوْلى، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وهذه كلها براهين عقلية على حصول البعث، ومع ذلك فإن بعض الخلق ينكر ذلك، ويكذب الخالق جلَّ وعلا، وما كان لهم أن يكذِّبوه سبحانه وتعالى!

وأمَّا شَتْمُه لله سبحانه وتعالى وذلك بأنْ ينسبوا له الولد، والله جلَّ وعلا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولأنَّ الولد يُشبه الوالد، وهو سبحانه وتعالى لا شبيه له، والولد كذلك جزءٌ من الوالد، وهو سبحانه وتعالى ما ينبغي أن يكون له جزء مخلوق - تعالى الله عن ذلك - وفي القرآن الكريم: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]؛ يعني: ولداً، والولد كما ذكرنا جزءٌ من الوالد، والولد بذلك يكون إلهاً مع الله، والله جلَّ وعلا ليس له شريك، فلو كان له ولد لصار له شريك، تعالى الله عن ذلك.

والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، وأهل الجاهلية من مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله؛ لأنه -

سبحانه بزعمهم ـ تزوّج من الجنّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، فينسبون البنات إليه سبحانه وتعالى، وهم لا يريدون البنات لأنفسهم! قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢]، تعالى الله عمّا يقولون.

وقوله في حديث ابن عباس: «سبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً» قوله «صاحبة»، يعني: زوجة؛ لأن الولد لا يكون إلا من زوجة، والله سبحانه ليس له صاحبة؛ قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ يعني: ليس له سبحانه زوجة.

[النهي عن سبِّ الدَّهر]

٣٨- وهما[1] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيدي الأمرُ أُقلِّبُ الليلَ والنَّهارَ». [٣٩].

---

[٣٩] في هذا الحديث بيان أنَّ ابن آدم يسبُّ الله من خلال سبِّه للدَّهر، فإذا ما أصابه شيء أخذ يلوم الدَّهرَ واليومَ والساعةَ والسنةَ، والدَّهرُ إنما هو زمان خلقه الله جلَّ وعلا، وهو ظرف زمان ليس بيده شيء، وإنما الذي أوجد هذه النوازل والحوادث والمصائب والمكاره هو الله جلَّ وعلا، فكان سبُّه للدَّهر سبّاً لله عزَّ وجل؛ لأن الله هو الذي قدَّر هذه الحوادث والنوازل والمصائب التي تقع على العباد.

وقوله: «أنا الدهر» ليس معناه أن الدَّهر من أسماء الله جلَّ وعلا، وقد فسَّر ذلك في آخر الحديث وقال: «بيدي الأمر أُقلِّب الليل والنهار»، وهذا تفسير منه ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجل، وهو في سياق حديث قدسي شريف.

---

(١) البخاري (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦).

وقوله: «بيدي الأمر» تفسير لقوله: «وأنا الدَّهرُ»؛ إذ البعض يعتقد أن كلمة «الدهر» من أسماء الله جلَّ وعلا!

باب الإيمان بالقدر

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٣٩- وفي «صحيح» مسلم[١] عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يَخْلُقَ السماواتِ والأرَضِينَ بخمسين ألف سنةٍ» قال: عرشُه على الماء». [٤٠]

---

[٤٠] قوله رحمه الله: «باب الإيمان بالقدر»: القَدَرُ: هو إحاطة الله سبحانه وتعالى بمقادير الأشياء. وقضاؤه سبحانه ما يجري بهذا الكون من الحوادث التي تقع شيئاً فشيئاً في هذا الكون، فإنه لا يقع في هذا الكون من شيء، أو يحصل فيه من شيء إلا وقد علمه الله

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

جلَّ وعلا في الأزل وقضاء وقدَّره لا يخرج شيء عن قدره وقضائه، والأزل معناه: الزمان الماضي الذي لا حدَّ ولا بداية له، والأبد: هو الزمان المستقبل الذي لا حدّ لنهايته، فلا يجري في هذا الكون شيء اعتباطاً أو دون تقدير وقضاء من الله جلَّ وعلا، ولا يكون فيه شيء يخرج عمّا قضاء سبحانه وتعالى وقدَّره في الأزل.

والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة كما قال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»[1] ومحلُّ الشاهد قوله ﷺ: «وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»؛ فما يجري من الخير والشرِّ في هذا الكون فإنه قد قضاه الله وقدَّره، فمَن لم يؤمن بهذا فإنه ليس بمؤمن بالله عزَّ وجلَّ، وإذا مات وهو ينكر القضاء والقدر فإنه من أهل النار كما جاءت بذلك الأحاديث التي ستأتي في هذا الباب: أنَّ مَن لم يؤمن بالقضاء والقدر فإنه لم يؤمن بالله؛ لأنه نفى شيئاً من أفعال الله سبحانه وتعالى، وزعم أن الله عاجز وأنه يحدث في ملكه ما لم يَقضِه

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ولم يُقدِّرْهُ ـ تعالى الله عن ذلك ـ، فمن لم يؤمن بها فهو كافر وعليه وعيد شديد، وهو من أهل النار ولو أنفق مثل أُحدٍ ذهباً، فإنَّ الله لا يتقبَّله منه.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمَّن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بأنَّ الله علم ما كان وما يكون في علمه الأزليِّ، ولا يقع شيء لا يعلمه الله سبحانه وتعالى.

المرتبة الثانية: الإيمان بأنَّ الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كلِّ شيء إلى أن تقوم الساعة، علمه أولاً ثم كتبه في اللوح المحفوظ، «أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1]، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، والكتاب: هو اللوح المحفوظ. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نوجدها.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧)، وأبوداود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣٩٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأنَّ الله سبحانه وتعالى شاء كلَّ شيء وأراده ممّا قضاه وقدَّره في اللوح المحفوظ، فلا يقع شيء إلا بإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى، ولا يقع في ملكه ما لا يريد؛ قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

المرتبة الرابعة: الإيمان بأنَّ كلَّ ما يقع في هذا الكون هو من خَلْق الله جلَّ وعلا، فكل شيء في هذا الكون من خير أو شرٌّ إنما هو من خلقه جلَّ شأنه، وهو فِعْل العباد، فالخير والشر من أفعال العباد وهما خلقٌ من خَلْق الله كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] أي: وخَلَق ما تعملون، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وكل ما يجري وما يحدث وما يكون فإنه خَلْق الله جلَّ وعلا.

فلا بدَّ من الإيمان بهذه المراتب كلِّها، سواء الإيمان بعلم الله السابق، أو الإيمان بالكتابة باللوح المحفوظ، والإيمان بمشيئة الله وإرادته وبكل ما يحدث، والإيمان بأنَّ كلَّ ما يحدث بأنه خَلْق الله سبحانه وتعالى، فلا أحد يخلق مع الله عز وجل، ولا يكفي الإيمان بمرتبة دون مرتبة أخرى أو بمرتبة واحدة أو اثنتين أو

ثلاث، فلا بدَّ من الإيمان بكل هذه المراتب الأربع، وهي موجودة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾؛ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه مرتبة العلم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ وهذه مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، فهذه مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إنه بعد الإيمان بالقضاء والقدر وإثباته كما جاء فلا ينبغي تَرْكُ العمل بحُجَّة أنَّ كلَّ شيء مقدَّر ويكفي التسليم بالقضاء والقدر، وبُحجَّة أنَّ دخول الجنَّة والنَّار مقدَّر منه سبحانه وتعالى ولا فائدة من العمل! هذا كلام باطل؛ لأن الإنسان مأمور بالعمل، إذ دخول الجنة لا يكون إلا بالعمل لها، ولا يمكن دخول النار إلاَّ بسبب، والله لا يعذِّب على القضاء والقدر، وإنما يعذِّب على الأعمال، ولا يُنعِّم بالقضاء والقدر وإنما بالأعمال؛ قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فالثواب والعقاب لا يتعلقان بالقضاء والقدر، وإنما يتعلقان بأفعال العباد، ولهذا لمَّا أخبر النبي ﷺ الصحابة أن كلَّ إنسان مقدَّر مقعده

من الجنَّة ومقعده من النار، قالوا: يا رسول الله، ففيمَ العمل، أفلا نتَّكل على كتابنا ونَدَع العمل؟ قال: «اعملوا فكُلٌّ ميسَّر لِمَا خُلق له، أمّا مَن كان مِنْ أهل السعادة فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأمّا مَنْ كان مِنْ أهل الشَّقاء فيُيَسَّر لعمل أهل الشقاء» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الآية[1] [الليل: ٥-٦]. يعني: الجنة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ رتب تفسيره لليسرى على العمل على عمل العبد ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠] هي النار على رتب تيسيره للعسر، عمل العبد، وليس بسبب القضاء والقدر، فإذا ما كان الجوع الذي يشعر به الإنسان يتطلَّب البحث عن الطعام والرزق، وكذا دفع الظُّلم يحتاج إلى عمل وردَّة فعل وَطَلَب القصاص ممن ظَلَم، فكيف يُقال: إنَّ الجنة والنار لا تحتاجان إلى عمل، أو إن المصير إليهما لا يترتب على العمل الذي يقوم به العبد، والحق أنه لا بدَّ من السَّعي والعمل سواء في أمور الآخرة أو في أمور الدنيا، فإذا كان الإنسان في أموره الدنيا لا يتكل على القضاء

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، وبنحوه مسلم (٢٦٤٧) من حديث عليّ رضي الله عنه.

والقدر فأمور الآخرة من باب أولى، فليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر ترك العمل، لأن هذا لا يكون إلاّ من القدرية الذين يحتجون بالقضاء والقدر على ترك الفرائض، وهؤلاء محجوجون، كونهم لا يحتجون بالقضاء والقدر في مصالحهم الدُّنيوية.

وفائدة الإيمان بالقضاء والقدر معناه الصبر على المصائب وعدم الجزع، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]؛ والحكمة في ذلك متمثلة في قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣] هذه هي الحكمة في ذلك، وهي أن الله أخبرنا بأن كل ما يحدث من مصائب إنما هو في كتاب في اللوح المحفوظ؛ لأجل أن لا يجزع الإنسان بل يصبر ويحتسب، هذه هي حكمة الإيمان بالقضاء والقدر، وليس معناه ترْك العمل وتعطيله؛ ولهذا يقول ﷺ: «احرِصْ على ما يَنفعُكَ واستَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، وإنْ أصابكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء

فعل، فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطان»[1] هذه هي فائدة الإيمان بالقضاء والقدر المبنية على الصبر والاحتساب وعدم الجزع والتسخُّط.

والإيمان بالقضاء والقدر ضَلَّ فيه طائفتان؛ طائفة الجَبْريَّة، وطائفة القَدَريّة من المعتزلة:

فالجبريَّة غَلَتْ في إثبات القَدَر ونَفَت أفعال العباد، وقالت: إنما هذه أفعال الله وقضاؤه، والعبد إنما هو مجبور كالآلة أو كالريشة يُحركها الهواء، تعالى الله عمّا يقولون، فالزِّنى والسرقة وظلم العباد وشرب الخمر إنما هي أفعال الله جل وعلا وليست أفعال العبيد، وكفى بهذا القول شناعة وكفراً!!

وأمّا القَدَريّة فكانت في مقابلة الجَبْرية، فغَلَوا في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقدر، وقالوا: إن الإنسان حُرٌّ حريّة كاملة ليس لها تعلُّق بقضاء الله وقَدَره، فهو الذي يخلق فِعْل نفسه، ولم يَخْلُقْه الله، وليس له سبحانه تدخُّل في أفعال العباد؛ وهم في ذلك كانوا على النقيض من الجَبْرية الذين غَلَوا في إثبات القضاء والقَدَر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ونَفَوا أفعال العباد، وهؤلاء القدرية كانوا على العكس فقد غَلَوا في إثبات أفعال العباد ونَفَوا القضاء والقَدَر؛ ولذلك يسمَّون بالقدرية؛ لأنهم نَفَوا القَدَر، فهؤلاء لا يؤمنون بالقضاء والقدر، وهم بذلك جحدوا الركن السادس من أركان الإسلام.

وأمّا أهل السُّنة والجماعة فقد توسَّطوا - كعادتهم أنهم وسط في جميع الأمور - بين الإفراط والتفريط، وبين الغُلوّ والجفاء، فقد أثبتوا القضاء والقدر وأثبتوا أفعال العباد، ولا تناقض بينهما، فالله جلَّ وعلا قضى وقدَّر، والعبد يفعل باختياره وإرادته، ولكنه لا يخرج على قضاء الله وقدره، وهذا هو موجب الكتاب والسُّنة، وهو المذهب الوسط والعدل المتمشِّي مع الأدلة. هذا حاصل الخلاف في مسألة القضاء والقدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] يعني: في القضاء والقدر، حيث إنَّ الله قدَّر لهم الجنَّة والنَّجاة من النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: عن

النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٢-١٠٣] هذا فيه إثبات القضاء والقدر. فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي: قدَّرنا لهم ذلك، فهم عملوا ما يسبِّب لهم دخول الجنة، فأبعدهم الله من النار.

وسبب نزول الآية أن الله جلّ وعلا لمّا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩] لمّا سمع المشركون هذه الآية قالوا: نحن نعبد أُناساً صالحين، فإذا كانوا معنا في النار فإنَّ الأمر يَهُون علينا، يعني: هم ينتقدون كلام الله سبحانه وتعالى، ومن جملة ما يعبدون من دون الله ملائكة ورسلاً مثل عيسى عليه السلام؛ فكيف يكونون في النار؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وهم الملائكة والأنبياء والرسل والصالحون، هؤلاء لا تتناولهم هذه الآية، فهو تخصيص بعد عموم، لمّا نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبعرى: فنحن نعبد

الملائكة، واليهود تعبد عُزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فهل هؤلاء معنا في النار[1] وغرض المشركين من هذا انتقاد كلام الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٥٨]؛ لأنه من المعروف أن عيسى بن مريم والصالحين لا يدخلون النار لأن الله تكفَّل بأن يدخلهم الجنة، وهم يعرفون هذا، لكنهم من باب المغالطة يقولون ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٨ - ٥٩] وقد ردَّ الله جلَّ وعلا عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ كعيسى عليه السلام وعُزير ومَن عُبد من دون الله من عباد الله الصالحين، هؤلاء مستثنون من دخول جنهم.

والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ هذا فيه إثبات القضاء والقدر.

---

(١) انظر «تفسير» ابن جرير الطبري ٩/ ٩٠، و«تفسير» ابن كثير ٣/ ٢٦٥.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وهذه الآية متضمنة إثبات القضاء والقدر، فقوله تعالى: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأمر الكوني، على اعتبار أنَّ أمر الله قسمان:

الأول: الأمر الكوني كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

والثاني: الأمر الشرعي، كالأمر بالصلاة والزكاة وبر الوالدين ونحو ذلك من الأمور التكليفية.

والأمر الكوني لا بدَّ أن يقع، وأمّا الأمر الشرعي، فقد يقع وقد لا يقع، فمن الناس مَن يمتثل ومنهم مَنْ يعصي، هذا الفرق بين الأمرين؛ فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ يراد به الأمر الكوني القَدَري، بمعنى أن كل ما يجري في هذا الكون مقدَّر.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]؛ أي: وخلق ما تعملون، هذه الآية فيها أنَّ أعمال العباد إنما هي من خَلق الله سبحانه وتعالى، نعم هي فعل الخَلْق ولكنها خَلق الخالق سبحانه وتعالى، فيجتمع فيها الأمران، أنها خَلق الله وأنها فِعْل العبد، وفي

الآية ردٌّ على المعتزلة الذين ينفون القضاء والقدر، ويقولون: إن العبد إنما يفعل باختياره المطلق الذي ليس لله فيه أيّ قضاء وقدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وفي هذه الآية أيضاً إثباتٌ للقضاء والقدر؛ إذ كل المخلوقات من خير أو شر إنما يقع بقَدَر الله سبحانه وتعالى؛ ففي الآية أمران:

الأول: أن كلَّ ما يحدث في هذا الكون إنما هو خَلْقُ الله سبحانه وتعالى.

الثاني: أن كلَّ ما يحدث إنما هو بقَدَر الله جلَّ وعلا.

وأمّا حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وهو حديث الباب الذي فيه: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق.. الخ» فهذا فيه إثبات أن الله قدَّر مقادير الخلائق، وأن التقدير سابقٌ لخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فهذا فيه إثبات أسبقية القضاء والقدر على حدوث الأشياء وأنها مقدَّرة قبل وقوعها.

[عدم جواز الاتكال على القضاء والقدر وترك العمل]

٤٠- وعن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ إلاّ وقد كُتبَ مقعدُه مِنَ النارِ ومقعدُه مِنَ الجنَّةِ» قالوا: يا رسولَ الله، أفلا نَتَّكِل على كتابِنا ونَدَعُ العَمَلَ؟ قال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له؛ أمّا مَن كان مِن أهلِ السَّعادة فسيُيَسَّرُ لعمل أهلِ السَّعادةِ، وأمّا مَنْ كان مِنْ أهلِ الشَّقاوةِ فسيُيَسَّرُ لعمل أهلِ الشَّقاوةِ، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]. متفق عليه(١). [٤١]

[٤١] لمّا ذكر الشيخ رحمه الله الأدلة على إثبات القضاء والقدر بيَّن أنه لا يجوز الاعتماد على القدر وترك العمل، وإنما ينبغي للمسلم أن يعمل الأعمال التي تنفعه في الدنيا والآخرة وعدم الاتكال على أن كل شيء مقدَّر سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فكما أنَّ الإنسان لا يتَّكل في أمور دُنياه على القضاء والقدر لأنَّ الله جلَّ وعلا رتَّب الأشياء على الأسباب، وكذلك الأمر نفسه يقال في أمور الآخرة، فالإنسان بفطرته التي تقتضي أنه عليه أن يعمل لتحصيل أمور دُنياه،

(١) البخاري (٦٦٠٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

فكيف يُعطِّل أعمال الآخرة ويعتمد على القضاء والقدر؟!

ومن دلالة فقه الشيخ رحمه الله أنه لمَّا ذكر أدلة القضاء والقدر ذكر أدلة إثبات العمل، فساق هذا الحديث الذي يدل على أن الأصل في الإنسان عدم ترك العمل اعتماداً على القضاء والقدر، فقد بيَّن ﷺ في هذا الحديث للصحابة بعدما ذكر لهم أن كل إنسان قد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، وأجابوا بقولهم: أفلا نتَّكل وندَع العمل؟ ولكنه ﷺ بيَّن لهم غَلَطهم في هذا، وأن ما فهموه من قوله إنما هو فَهْم خاطىء، وأنه ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر ترك الأعمال، بل بيَّن ﷺ أنَّ هذا فيه حثٌّ للإنسان على العمل، لأن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ عمل لها، وأن النار لا يَسْلَمُ منها إلا مَنْ ترك الأعمال التي من شأنها أن تورد المرء إيَّاها.

ثم استدلَّ ﷺ بالآية الكريمة فقرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]، فدلَّ على أن دخول الجنة إنما هو بسبب الأعمال، وأن دخول النار كذلك، لا بسبب القضاء والقدر فحسب، لأن القضاء والقدر إنما هو من شأن الله جلَّ وعلا،

والإنسان لا يدخل بشؤون خالقه، وإنما يدخل في شؤون نفسه التي ينبغي له العمل، لا السؤال عن القضاء والقدر.

٤١- وعن مسلم بنِ يسارٍ الجُهني قال: سُئل عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقال عمرُ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ سُئل عنها فقال: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ ثم مَسَحَ ظَهرَه بيمينِه، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً فقال: خَلقتُ هؤلاء للجنَّةِ وبعمل أهلِ الجنَّة يعملون، ثم مسح ظَهرَهُ فاستخرَج منه ذُرِّيَّةً فقال: خَلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النارِ يَعملون» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، ففِيمَ العملُ؟ فقال: «إنَّ الله إذا خَلَقَ العَبدَ للجنَّة استعمَلَه بعمل أهل الجنَّةِ حتَّى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنَّةِ فيُدخِلَه به الجنَّة، وإذا خَلَقَ العبدَ للنَّار استعمَلَه بعمل أهلِ النَّارِ حتَّى يموتَ على عملٍ مِن أعمالِ أهلِ النَّارِ فيُدخِلَه النَّارَ» رواه مالك والحاكم وقال: على شرط مسلم[١].

ورواه أبوداود[٢] من وجه آخر عن مسلم بنِ يسارٍ، عن

---

(١) مالك في «الموطأ» ٢/ ٨٩٨، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٨٠.

(٢) برقم (٤٧٠٣).

نُعيم بن ربيعةَ، عن عمرَ. [٤٢].

[٤٢] قوله: «ويعمل أهل الجنّة يعملون» لم يقل: خلقتهم للجنة فهم يدخلون الجنة، وإنما قال: «ويعمل أهل الجنة يعملون»؛ فدلَّ على أن الجنة لا تُدخل إلّا بعمل. كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢].

وكذا قوله: «ويعمل أهل النار يعملون»، لم يقل: خلقتهم للنار فحسب، بل قال: «ويعمل أهل النار يعملون» فدلَّ على أنه ـ كما ذكر ـ أنه لا أحد يدخل الجنة إلاّ بعمل، ولا يدخل النار إلا بعمل، أي: ليس بمجرد القضاء والقدر، وهذا واضح من الحديث.

ففي الحديث بيان أنه لا بدَّ من العمل، ولا يعني هذا أن مَن قضى الله له أنه من أهل النار أنه يترك العمل الذي ينجيه من النار، أو مَن قدَّر الله له أنه من أهل الجنة أنه يترك العمل الذي يسبِّب له دخول الجنَّة، فلا بدَّ من العمل، لأن الجنة لا تُدخل إلا بعمل الخير، والنار كذلك لا تُدخَل إلا بعمل الشر. فلا ينبغي أن تُعطَّل الأعمال.

٤٢- وقال إسحاقُ بن راهَويه: حدَّثنا بقيَّةُ بنُ الوليد، قال: أخبرني الزُّبيدي محمَّدُ بنُ الوليد، عن راشد بن سعد بن عبد الرَّحمن بن أبي قتادة، عن أبيه، عن هشام بن حكيم بن حزام: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، أتُبتَدأُ الأعمالُ أم قد قُضيَ القضاءُ؟ فقال: «إنَّ الله لمّا أخرج ذُرِّيةَ آدمَ مِن ظهرِه أشهدَهم على أنفسِهم، ثم أفاضَ بهم في كَفَّيه، فقال: هؤلاء للجنَّةِ وهؤلاء للنَّار، فأهلُ الجنَّةِ مُيسَّرون لعمل أهلِ الجنَّة، وأهلُ النَّار مُيسَّرون لعملِ أهلِ النَّار»[1]. [٤٣].

---

[٤٣] هذا الحديث يشهد للذي قبله في أن القضاء والقدر حاصل، ولكنه لا بدَّ من العمل، سواء العمل الذي يُنجي من النار ويدخل الجنة أو الذي يدخل الجنة.

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» ٣/ ٩١ (١٨٥٤).

[كتابة العمل والأجل والرزق والشقاء والسعادة]

٤٣- وعن عبدالله بن مسعود ﷺ، قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ - وهو الصادقُ المصدوق -: «إنَّ أحدَكُم يُجمع خَلقُه في بطنِ أُمِّه أربعين يوماً نُطفةً، ثم يكون عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مُضغةً مثلَ ذلك، ثم يَبعثُ الله إليه مَلَكاً بأربع كلماتٍ: فيُكتبُ عملُه وأجلُه ورزقُه وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يَنفخُ فيه الرُّوح، فوالذي لا إله غيرُه إنَّ أحَدَكُم ليَعملُ بعمل أهلِ الجنَّةِ حتى ما يكونُ بينَه وبين الجنَّةِ إلا ذِراعٌ، فيَسبقُ عليه الكتابُ فيَعملُ بعمل أهلِ النَّارِ فيَدخلُها، وإنَّ أحدَكُم ليَعملُ بعملِ أهلِ النَّارِ حتّى ما يكون بينَه وبينها إلاَّ ذراعٌ فيَسبقُ عليه الكتابُ فيَعملُ بعَملِ أهلِ الجنَّةِ فيَدخلُها» متفق عليه(١). [٤٤].

[٤٤] قوله ﷺ: «أربعين يوماً نُطفة» النُّطفة: هو المَنِيُّ الذي يقذفه الرَّجل في رحم المرأة، فيبقى منياً أربعين يوماً، ثم بعد الأربعين يتحوَّل إلى «علقة»؛ يعني إلى دم، فيبقى أربعين يوماً كذلك وهو دم، ثم بعد الأربعين الثانية يتحول إلى «مضغة» يعني:

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

قطعة لحم، والمضغة هي التي يكون منها تركيب الإنسان من العُروق والأعضاء والعَصَب والسَّمع والبَصَر والعِظام، وغير ذلك من تراكيب الإنسان، ثم في الأربعين الأخيرة تُنفخ فيه الرُّوح بعدما يأتيه المَلَك، ثم يؤمر المَلك بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله ورزقه، وهل هو شقي أو سعيد، وهي كتابة خاصة غير الكتابة التي في اللوح المحفوظ، بل هي كتابة مأخوذة من اللوح المحفوظ التي هي كتابة عامّة. فهناك كتابة خاصة وكتابة عامة، ومن الكتابات الخاصة ما يأتي في ليلة القدر ومنها ما جاء في هذا الحديث ، وأمّا ما يأتي في كل يوم من الأيام فكلها من باب الكتابة الخاصة المنقولة من اللوح المحفوظ.

وقوله ﷺ: «ثم يكون علقة مثل ذلك» العَلَقة: قطعة اللحم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾[المؤمنون:١٢-١٤] وتفصيل هذه الأمور في سورة «المؤمنون»، وقوله في الآية الكريمة: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام. والقرار المكين: هو رحم المرأة الذي هو ثابت لا يتغير، والنطفة مستقرة فيه دون

اضطراب، وقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ يعني: المنيّ ﴿عَلَقَةً﴾ يعني: دماً يعلق باليد؛ جاء بـ«ثم» التي تفيد التَّراخي؛ إذ كل طَوْر له أربعون يوماً ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: «ثم يبعث الله إليه الملك» لينفخ فيه الروح ليحيى ويتحرَّك. ولذلك يتحرك الحمل في الشهر الرابع.

وقوله: «فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد» مع نفخ الروح فيه يُكتب ما يجري عليه من الكتابة الخاصة بالنسبة لكل فرد من بني آدم، وأما الذي في اللوح المحفوظ فهي كتابة عامة للجميع فلا تعارض بين الكتابتين، فالكتابة العامة سابقة لخلق السَّماوات والأرض، والكتابة الخاصة تتكرر بإذن الله إلى آخر الخليقة مع كل مولود.

وقوله: «ثم ينفخ فيه الرُّوح» كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]؛ أي: من روح الله عزَّ وجلَّ المخلوقة فالروح

مخلوقة، وإضافتها إلى الله إضافة مخلوق إلى خالقه، فهي ليست من صفات الله عزّ وجلّ، وإنما معنى قوله: ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي: الروح المخلوقة له سبحانه وتعالى.

وقوله: «إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» إذا قدّر أنه من أهل النار فلا بدَّ وأن يعمل بعمل أهل النار، إمّا في كلِّ عمره، يكون من أهل المعاصي وأهل الكفر ويَموت على هذا، وإما بأن يعمل بعمل أهل الجنة يُختم له بعمل أهل النار، فتسوء خاتمته فيدخل النار، أو العكس يعمل بعمل أهل النار طول عمره، ثم يُختم له بعمل صالح فيكون من أهل الجنة، والأعمال بالخواتيم. وفي هذا مسألتان:

المسألة الأولى: أنه لا بدَّ من العمل.

المسألة الثانية: أن الأعمال بالخواتيم، ولذلك لا ينبغي أن يُشهد لأحد بجنّة أو نار، لأنه لا يُدرى ما يُختم له؛ لأنه في علم الله جلَّ وعلا.

ففي هذا الحديث العظيم جملة من الفوائد، منها أولاً: بيان قدرة الله جلَّ وعلا على خلق هذا الإنسان وتَقَلُّبِهِ من طور إلى طور.

ثانياً: فيه إثبات القضاء والقدر، لأن الملك يكتب رزق الإنسان وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد.

ثالثاً: فيه أنَّ الجنة والنار لا تُدخلان إلاّ بعمل، إمّا بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ولو بعملٍ قليل، فإذا خُتم له بعمل صالح دخل الجنّة، وإمّا بعمل أهل النار، فيدخل النارَ، ولو عمل ابتداءً بعمل أهل الجنة، لأنّه في آخر عمره عمل بعمل أهل النار كأنْ يرتدّ فيموت على الرِّدة فيكون من أهل النار.

رابعاً: وفيه أن الأعمال بالخواتيم، فعلى الإنسان أن لا يغترَّ بصلاته وصلاحه واستقامته، بل عليه أن يخشى من سوء الخاتمة، وعلى العاصي أنْ لا يقنط من رحمة الله، بل يرجو حُسن الخاتمة ويسأل الله حُسنها.

خامساً: فيه أنه لا يُشهد لأحد بجنّة أو نار، وإنما يُرجى للمحسنين ويُخاف على المسيئين، لأنَّ الشهادة لا بدَّ فيها من خبرِ المعصوم ﷺ أن هذا من أهل النار وهذا من أهل الجنة.

٤٤ - وعن حذيفةَ بن أسيد رضي الله عنه يَبلغُ به النبيَّ ﷺ قال: «يدخلُ المَلَكُ على النُّطفة بعدما تَستقرُّ في الرَّحِم بأربعين أو خمسٍ وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربِّ أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيُكتَبانِ، فيقول: يا ربِّ أذكَرٌ أو أنثى؟ فيُكتَبانِ، ويُكتبُ عَمَلُه وأثرُه وأجلُه ورزقُه، ثم تُطوى الصُّحفُ فلا يُزاد فيها ولا يُنقصُ» رواه مسلم[1]. [٤٥].

[٤٥] هذا الحديث كحديث ابن مسعود ﷺ الذي سلف قبله، ففيه أنَّ الملك يدخل على الجنين في بطن أُمِّه - والله قادرٌ على كل شيء - فيسأل ربَّه ماذا يكتب، والله جلَّ وعلا يخبره ماذا يكتب.

ففي هذا الحديث بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله جل وعلا، وفيه إثبات حقيقة القضاء والقدر، وفيه أنه لا بدَّ من العمل.

(١) برقم (٢٦٤٤).

[لا يقطع لأحد بدخول الجنة والنار إلا بدليل]

٤٥- وفي «صحيح مسلم»(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دُعيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازةِ صَبيٍّ مِنَ الأنصار، فقلت: طُوبى له، عصفورٌ مِنْ عصافير الجنَّةِ لم يعمل السُّوءَ ولم يُدرِكْهُ، فقال: «أوَ غيرَ ذلك يا عائشة! إنَّ الله خَلق للجنَّةِ أهلاً، خَلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنَّار أهلاً، خَلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم». [٤٦].

[٤٦] في هذا الحديث أنه لا يُشهد لأحدٍ بأنه من أهل الجنَّة إلاَّ بدليل، وكذلك لا يُشهد لأحدٍ أنه من أهل النار إلاَّ بدليل، وعائشةُ رضي الله عنها قالت في هذا الحديث: «طُوبى له عصفور من عصافير الجنَّة» وهي بذلك شهدت له بدخول الجنة، ولكن الرسول ﷺ أنكر عليها هذه الشهادة.

وأمّا مسألة أطفال المسلمين وماذا يكون مصيرهم في الآخرة، نقول: إن أطفال المؤمنين تَبَع لآبائهم في الجنّة، وأمّا أطفال الكفّار فهؤلاء موضع خلاف بين العلماء، منهم مَن يقول: إنهم من أهل النار وهم تَبَع لآبائهم، ومنهم مَن يقول: إنهم من أهل الجنة؛ لأنهم

(١) برقم (٢٦٦٢).

لم يعملوا عملَ أهل النّار، فهم من أهل الجنّة، ومنهم مَن يقول: إنه يُرسل إليهم رسول يوم القيامة ويدعوهم، فمَن آمن دخل الجنة ومن كفر دخل النار ـ والصحيح ـ التوقُّف في هذا الأمر، وهو أمر موكول إلى الله جلَّ وعلا، فهو أعلم بهم وبمصيرهم، وأمّا نحن فينتهي علمنا عند ذلك.

[كلُّ شيءٍ بقدر]

٤٦- وعن ابنِ عمرَ رضيَ الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ حتى العَجْزِ والكَيْسِ» رواه مسلم(١). [٤٧].

[٤٧] قوله ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقَدَر» فيه إثبات القَدَر «حتى العجز والكيس» فالعجز من الإنسان وكونه يترك العمل تكاسلاً فهو مقدَّر عليه؛ قال تعالى عن المنافقين: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٦].

و«الكَيْس»: هو النشاط والعَزْم والحزم على مزاولة العمل الصالح، فهما مكتوبان في اللوح المحفوظ ومقدّران على الإنسان، بأن يكون كسلان أو نشيطاً وحازماً في العمل؛ فدلَّ هذا على أنَّ الكسل والحزم إنما هما من فعل العبد إلاّ أنهما مقدّران مكتوبان في اللوح المحفوظ.

---

(١) برقم (٢٦٥٥).

[تفسير قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾]

٤٧ – وعن قتادةَ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] قال: يُقضى فيها ما يكون في السَّنة إلى مِثْلِها». رواه عبد الرزاق وابن جرير[١].

وقد رُوي معنى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن، وأبي عبد الرَّحمن السُّلمي وسعيد بن جُبير ومقاتل[٢]. [٤٨]

---

[٤٨] قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ هذا التقدير الحَوْلي سَبَق التقدير العُمُري في بطن الأم؛ والتقدير الحَوْلي: هو ما يحصل في ليلة القدر، وهي من ليالي رمضان؛ قال الله جلَّ وعلا: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ

---

(١) عبد الرزاق في «تفسيره» ٣/ ٣٨٦، و الطبري في «تفسيره» ١٣/ ٦٥٣.

(٢) انظر «الدر المنثور» ٨/ ٥٦٨، ٥٦٩.

أَمْرٍ ۝ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥]، هذه ليلة القدر يُقدَّر فيها ما يجري في السنة من حياة وموت، وخصب وقحط، وغنًى وفقر وغير ذلك، وهو مأخوذ من القَدَر السابق المكتوب في اللوح المحفوظ، هذا التقدير الحولي وهو تقدير خاص.

وقوله: «يُقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها» أي: يُقدَّر فيها ما يكون في السنة وهو مأخوذٌ من التقدير العام المدوَّن في اللوح المحفوظ.

[ما جاء في صفة اللوح المحفوظ]

٤٨- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ الله خَلَقَ لوحاً محفوظاً من دُرَّة بيضاء، دفَّتاه من ياقوتة حمراء، قلمُه نورٌ، وكتابُه نورٌ، عرضُه ما بين السَّماء والأرض، يَنظر فيه كلَّ يوم ثلاث مئة وستين نَظرة، ففي كلِّ نَظرةٍ منها يَخلُقُ ويَرزق، ويُحيي ويُميت، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩][١]. رواه عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني والحاكم.

قال ابن القيِّم[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها، قال: فهذا تقدير يوميّ، والذي قبله تقدير حَوْلي، والذي قبله تقدير عُمري عند تعلُّق النفس به، والذي قبله كذلك عند أوَّلِ تَخليقه وكَونه مُضغة، والذي قَبله تقدير سابقٌ على وُجوده لكن بعد خَلْق السماواتِ والأرضِ، والذي قَبله تقديرٌ سابقٌ على خَلْق السَّماوات والأرضِ بخمسين ألف سنة، وكلُّ واحدٍ من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الربِّ وقُدرته وحكمته،

---

(١) الطبراني في «الكبير» ١٠/ ٢٦٠، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٥١٦، ٥٦٥.

(٢) انظر «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» ١/ ٢٣، ٢٤.

وزيادةِ تَعريفِه الملائكة وعباده المؤمنينَ بنفسِه وأسمائه.

ثم قال: فاتفقتْ هذه الأحاديث ونظائرها على أنَّ القَدَر السابقَ لا يمنع العملَ ولا يُوجب الاتكالَ عليه، بل يُوجب الجِدَّ والاجتهادَ؛ وهذا لمَّا سمع بعضُ الصحابة ذلك قال: ما كنت بأشدَّ اجتهاداً منِّي الآن.

وقال أبوعثمان النَّهدي لسلمانَ: لأنا بأوَّل هذا الأمرِ أشدُّ فَرحاً منِّي بآخرِه.

وذلك لأنه إذا كان قد سَبق له من الله سابقةٌ وهيَّأهُ ويسَّره للوصول إليها كان فَرحُه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بعدها. [٤٩].

---

[٤٩] قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، هذا من التقدير اليومي بعد التقدير السَّنوي أو الحَوْلي. وهناك ثلاثة أنواع من التقدير: الأول: التقدير العُمُري، والثاني: السنوي، والثالث: التقدير اليومي كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وجاء تفسير ذلك في الحديث الذي ساقه المصنف في هذا الباب وفيه: «ينظر فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة» فيدبِّر ما يشاء

سبحانه وتعالى، ويقضي ويخلق ويرزق كل يوم إذا نظر في اللوح المحفوظ، وهذا تقدير خاص من التقدير العام.

وابن القيِّم رحمه الله ساق جملة من نحو هذه الأحاديث وعلَّق عليها في كتابه «شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل»، فقوله: «فهذا تقدير يوميّ، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عُمُري» هذا قد أخذه واستنبطه رحمه الله من مجموع الأحاديث.

فقوله: «هذا تقدير يومي» كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقوله: «والذي قبله تقدير حَوْلي» كما في قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقوله: «والذي قبله تقدير عُمُري» وهو ما يُكتب على الجنين في بطن أمه.

وقوله: «والذي قَبله كذلك عند أول تَخليقِهِ وكَونِه مُضغةً» يشير بذلك إلى ما جاء في حديث حذيفة بن أسيد[1] من أن «الملك يدخل على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين

(١) السالف برقم (٤٤).

ليلة»، وأما حديث ابن مسعود(١) فذكر أنه عندما تُنفخ فيه الرُّوح، وهذا مراده من ذِكر هذا القول. وهو بيان اختلاف الحديثين؛ حديث ابن مسعود والذي بعده.

وقوله: «والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السَّماوات والأرض» يشير بذلك إلى التقدير العام السابق على وجود المخلوقات وهو ما كان في اللوح المحفوظ؛ والمراد به حديث آدم عندما أخذ الله ذريته وقال: «هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار»(٢) وهذا بعد خلق السماوات والأرض؛ لأن خلق آدم متأخِّر عن خلقهما.

وقوله: «والذي قبله سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» يريد بالذي قبله ما جاء في الحديث من أنَّ الله «مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذرية وقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار»(٣) فهذا تقدير بعد خلق السماوات والأرض حين خلق آدم عليه السلام. والذي قبله النهائي هو التقدير العام.

---

(١) السالف برقم (٤٣).
(٢) السالف برقم (٤١).
(٣) السالف برقم (٤١).

فلقد رتَّب ابن القيم رحمه الله مدلولات هذه الأحاديث على هذا الترتيب الدَّقيق العجيب، فكل واحد من هذه التقادير التي بعد ما في اللوح المحفوظ تفاصيل لِمَا في اللوح المحفوظ، وهذه التقادير الدقيقة التي لا تتخلف أبداً إنما هي دليل على علم الرب وقدرته سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه أظهر هذا لعباده ليتعرفوا عليه، ولتتعلَّق رغبتهم في الله عزَّ وجل ليخافوا منه ويرجوه، وليعبدوه سبحانه وتعالى، فإطلاعه سبحانه لهم على هذه التقادير وأنواعها في القرآن والأحاديث إنما هو من مصلحة العباد؛ لأجل أن يعرفوا ربَّهم سبحانه وتعالى وقضاءه وقَدَره وتدبيراته وأحكامه ليكونوا على بصيرة، لا أن يكونوا كالبهائم التي لا تدري لماذا خُلقت! هذا مراده رحمه الله من قوله: «وفي ذلك دليل على كمال علم الرب...الخ».

وأما قوله: «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القَدَر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال..» إذ كل الأحاديث يأتي فيها ذِكر العمل، فدلَّ على أن التقادير لا تسدُّ مسدَّ العمل؛ ولذلك أعطى الله جلَّ وعلا الإنسان القدرة والمشيئة والاختيار بعد أن بيَّن له الخير من الشر، كلُّ ذلك لأجل أن يعمل، لا من أجل

الاطلاع فقط، وهذا من لُطفه جلّ وعلا بالإنسان. وهذا يوجب عليه بعد معرفته لهذه الأمور أن يجتهد للعمل الصالح ويتجنَّب العمل السيِّىء.

وقوله: «لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت بأشدَّ اجتهاداً منِّي الآن» هذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم، فلمّا عرفوا هذا زاد اجتهادهم في العمل، ولم يتكاسلوا أو يتكلوا على القضاء والقدر.

[ثمرة الإيمان بالقدر]

٤٩- وعن الوليد بن عُبادة قال: دخلتُ على أبي وهو مريضٌ أتخايَلُ فيه الموت، فقلتُ: يا أبتَاهُ أوصِني واجتهد لي، فقال: أجلسوني؛ فلمّا أجلَسُوه قال: يا بُنيَّ إنكَ لن تَجِدَ طَعمَ الإيمانَ ولن تَبلُغَ حقيقةَ العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه، قلت: يا أبتاه وكيف لي أنْ أعلمَ ما خيرُ القَدَرِ وشرِّه؟ قال: تَعلَمُ أنَّ ما أخطأكَ لم يكن لِيُصيبَكَ، وما أصابكَ لم يَكن ليُخطئكَ، يا بُنيَّ؛ إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أوّلَ ما خَلقَ الله القَلَمَ قال: اكتُبْ، فجَرى في تلك الساعةِ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ، يا بُنيَّ، إنْ مِتَّ ولست على ذلك دخلتَ النارَ» رواه أحمد(١). [٥٠]

[٥٠] وهذا الحديث أيضاً في موضوع الإيمان بالقضاء والقَدَر، والإيمان بهما هو أحد أركان الإيمان الستّة، ففي هذا الحديث أنَّ الوليد بن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه دخل على أبيه عُبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو في آخر حياته عند الموت، فلمّا علم بأنَّ أباه قد احتُضر أو قارب الموت طلب منه وصيَّةً تكون من الميت،

(١) في «المسند» برقم (٢٢٧٠٥).

لأنه يُستحب للميت أن يُوصيَ قبل موته أولاده وأقاربه بتقوى الله والتمسُّك بالدِّين من بعده كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، هكذا يطمئن الوالد على عقيدة أولاده من بعده، وهذا من النُّصح ومن كمال الشفقة، وإذا كان هذا عند الموت فكيف بحال الحياة والصحة! ولهذا فإنه ينبغي للوالد أن يعتني بالمحافظة على أولاده، والمحافظة على عقيدتهم وعلى دينهم، وأن يعلِّمهم الخير ويجنبهم على تجنُّب الشرِّ ووسائل المعاصي حتى ينشؤوا نشأةً صالحةً.

وفي هذا الحديث أيضاً أنَّ الوليد يطلب من والده أن يوصيه، وهذا من حرص السَّلف على الخير والتواصي به كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي الحديث أن عبادة بن الصامت طلب أن يُجلسوه، اهتماماً منه رضي الله عنه بالوصية، فأجلسوه، فأوصى ابنه وصيته العظيمة، أوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر، فدلَّ على أهمية هذا الأمر، فإنه في هذا الموقف وهذه الحالة الحرجة أوصاه الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنه قد ظهرت في آخر عهد الصحابة فرقة القَدَرية الذين كانوا

يَنفون القَدَر، فتحاذرهم الصحابة رضي الله عنهم وحذَّروا منهم؛ وهكذا ينبغي للمسلمين إذا ظهرت فرقة ضالة أن يُحاصروها وأن يحذِّروا منها، وأن يقوموا ضدَّها حتى يسلم هذا الدِّين من دُعاة الضلال، ولما ظهرت فرقة القَدَرية أوصى عبادة ابنه بالحذر من هذه الفرقة ومذهبها وأن يؤمن بالقضاء والقدر عكساً لِما عليه هذه الفرقة الضالة التي تُشكِّك أو تنفي القضاء والقدر، فأوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر، وقال له: لن تجد طعم الإيمان حتى تؤمن بالقضاء والقدر، وأنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وروى عن رسول الله ﷺ ـ وهكذا ينبغي لمن يقول قولاً أن يذكر دليله من الكتاب والسُّنة ـ فهذا عبادة بن الصامت لَمَّا أوصى ابنه بهذه الوصية العظيمة ذكر دليله على هذه الوصية من حديث الرسول ﷺ، وأشار بأنه ﷺ ذكر بأنَّ من لم يؤمن بالقضاء والقدر أحرقه الله بالنار، هذا وعيد شديد، يدل على كُفر من أنكر القضاء والقدر.

[عدم المنافاة بين الإيمان بالقدر والتداوي]

٥٠- وعن أبي خُزامةَ عن أبيه ﷺ قال: قلت: يا رسولَ الله، أَرَأَيتَ رُقًى نَسترقيها، ودواءً نَتداوى به، وتُقاةً نتَّقيها، هل تَردُّ من قَدَر الله شيئاً؟ قال: «هي مِنْ قَدَرِ الله» رواه أحمد والترمذي وحسَّنه(١). [٥١].

[٥١] هذا حديث عظيم، فيه أنه لا مُنافاة بين الإيمان بالقضاء والقدر واتخاذ الأسباب النافعة، فلا يقال: نؤمن بالقضاء والقدر دون الحاجة إلى اتخاذ الأسباب، لأنه من الخطأ، ولا يقال: نتخذ الأسباب وحسب ولا حاجة إلى الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا أيضاً من الخطأ، لأن الاعتماد على القضاء والقدر ضلال، وكذلك الاعتماد على الأسباب لوحدها ضلال، والحق هو الجمع بين الإيمان بالقضاء والقدر واتخاذ الأسباب النافعة، لأنها لا تنافي القضاء والقدر، لأن اتخاذ الأسباب إنما هو من القضاء والقدر، فلولا أنَّ الله قدَّر اتخاذ هذه الأسباب لَمَّا اتخذها الإنسان، فلا تنافي في ذلك بينهما؛ لأنه لا يكون في هذا الكون شيء إلا بقضاء الله وقدره.

وقوله في الحديث «رُقًى نسترقيها» رُقًى: جمع رُقية، والمراد بها

(١) أحمد في «المسند» (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٥٦) و(٢١٤٨).

التعويذة التي يتعوَّذ بها المريض. وهذه الرُّقى إن كانت من كتاب الله عزَّ وجلَّ ومن الأدعية المشروعة فهي رُقىً شرعية صحيحة، فقد رَقى النبيُّ ﷺ ورُقي الرُّقى الشرعية، وهي صحيحة فِعْلها ومضمونُها؛ لأنها من اتخاذ الأسباب، والله جلَّ وعلا جعل القرآن شفاءً من الأمراض ومن الشكوك والأوهام والشُّبهات، فهو شفاءٌ للأجسام وللقلوب كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فصلت: ٤٤]، فهو يشفي من الأمراض والأسقام ويشفي من الشُّبهات والشكوك والوساوس التي تكون في القلوب.

فإذا كانت الرُّقية من القرآن الكريم ومن الأدعية المشروعة فإنه لا بأس بها، وأمّا إن كانت من الشركيات وعن طريق الاستعانة بالجن والشياطين أو كانت بألفاظ مجهولة وبحروف مقطَّعة وطلاسم فهي رُقية شركية شيطانية فلا يجوز العمل بها. وقد قال النبيُّ ﷺ: «اعرضوا عليَّ رُقاكم، لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شِركاً»[1]؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يعملون الرُّقى الشِّركية، وأمّا الإسلام فقد

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٦) من حديث عوف بن مالك ﷺ.

جاء بالرُّقى الشَّرعية.

وقوله: «ودواء نتداوى به» المراد: الأدوية الحسِّية التي يتداوى بها الناس في المستشفيات والمستوصفات، أو بالطب النبويّ المعروف. وما يُسمُّونه بالطب الشعبي، والصحيح منه هو الطب النبوي، وما ليس بصحيح فهو ليس من الطب النبوي؛ فالأدوية الحسّية لا بأس بها، فقد قال ﷺ: «ما أنزل الله داءً إلاّ أنزل له شفاءً»(١)، وفي رواية بزيادة «عَلِمَه مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِلَه»(٢) فهو سبحانه جعل في هذه المخلوقات وهذه النباتات أدوية يستخرجها الأطباء وأهل الخبرة فينفع الله بها، فلا بأس بالتداوي والعلاج بالأدوية المباحة، لكن السائل سأل النبيَّ ﷺ عن هذه الرُّقى والأدوية والتُّقاة التي يتّقون بها المكروه: هل هي تردُّ القضاء والقدر؟ فقال النبي ﷺ: «هي مِنْ قَدَرِ الله»؛ لأنها مخلوقة والله هو الذي قدَّرها سبحانه وتعالى وجعلها أدوية وشفاء للناس، فهي من القضاء والقدر ولا تُنافيه، فأن يتداوى الناس ويؤمنوا بالقضاء والقدر فذلك هو المنهج

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٧٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الصحيح والعقيدة السَّليمة، فاتخاذ الأسباب المباحة لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنها هي من القضاء والقدر؛ فلا شيء في هذا الكون إلا وقد قدَّره الله جلَّ وعلا.

[المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف]

٥١- وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وَأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلِّ خيرٌ، احرِص على ما يَنفعُكَ واستَعن بالله ولا تَعجَزنَّ، فإنْ أصابكَ شيءٌ فلا تَقُل: لو أنِّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا! ولكنْ قُل: قدَّر الله وما شاء فَعَلَ؛ فإنَّ لو تفتحُ عَمَلَ الشَّيطانِ» رواه مسلم(١). [٥٢].

---

[٥٢] في هذا الحديث الصحيح: أنه لا تنافي بين فِعْل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر.

قوله ﷺ: «المؤمن القويّ» أي: القويّ في إيمانه وعزيمته ورأيه وفي بَدَنِهِ، فإذا اجتمع له قوة الإيمان والقوّة البدنية فهو خيرٌ من المؤمن الضعيف في رأيه وإيمانه؛ لأن المؤمن القوي ينفع نفسَه وينفع غيرَه، وأمّا المؤمن الضعيف فهذا يقتصر نَفعُهُ على نفسِه فقط ولا ينفع غيرَه.

وقوله: «وفي كلٍّ خيرٌ» أي: المؤمن القويّ والمؤمن الضعيف، كلٌّ منهما فيه خير، لكن الخير الذي في المؤمن القوي أكثر منه في

---

(١) برقم (٢٦٦٤).

الضعيف، فهذا فيه مدح للمؤمن القوي؛ لِمَا يجعل الله فيه من الخير والبركة للمسلمين، وفيه أنَّ المؤمن الضعيف فيه خير فلا يُزهد فيه؛ لأنه مؤمن، لكن نفعُه قاصرٌ على نفسه.

وقوله ﷺ: «احرِصْ على ما يَنفعُكَ» احرصْ؛ أي: جِدَّ في طلب الخير ولا تكسل، واحرص على ما ينفعك في دينك ودُنياك، وهذا فيه الحثُّ على الكسب والعمل، وأن لا يركن الإنسان إلى الراحة والخمول، أو الاتّكال على القضاء والقدر دون العمل والمثابرة عليه، فهذه مغالطة يُضلِّل فيها شياطين الإنس والجنِّ الجُهّال من المسلمين، لتخذيلهم عن السعي لطلب الخير، بحجَّة أنَّ المقسوم حاصل.

وقوله ﷺ: «واستَعِنْ بالله» يعني: لا تعتمد على حرصك وأعمالك بل لا بدَّ من الاستعانة بالله والتوكُّل عليه سبحانه وتعالى، فالأصل في هذا هو الجمع بين الأمرين، الحرص على ما ينفع، والاستعانة بالله والتوكُّل عليه جلَّ وعلا؛ فهذا فيه دليل على أنَّ السَّعي في طلب الرزق وغيره من الأمور النافعة لا يكفي دون التوكُّل على الله والاستعانة بطلب العون منه سبحانه وتعالى؛ فلا

يقتصر الإنسان على التوكُّل على الله ويترك السعي لطلب الخير، ولا يعتمد على السَّعي ويترك التوكُّل على الله، فلا بدَّ من الجمع بين الأمرين.

وقوله: «ولا تَعجزَنَّ» يعني: لا تكسل؛ والعجز هنا معناه: الكسل والخمول؛ إذ بعض الناس يُقعده العجز والكسل، ولهذا ينهى ﷺ عن العجز والكسل؛ ولهذا استعاذ ﷺ من العجز والكسل ومن الجبن والبخل بقوله: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل والجُبْن والبُخل»[(١)]، فإذا فعلت هذا بأنْ سعيت في طلب الخير واستعنتَ بالله، فإن حصل كل مقصودك فاحمد الله سبحانه وتعالى، وإن لم يحصل لك مقصودك فلا تتحسَّر وتتأس، بل اعلم أن هذا قضاء وقدر، وأنه لو كان قُدِّر لك هذا الشيء لحصل، فارضَ بقضاء الله وقدره بعد تقديم الأسباب، وأما الرضى بقضاء الله وقدره مع تعطيل الأسباب فهو غير مشروع. فإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فالقدر لا يُنجي منه شيء، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، هذا هو الإيمان بالقضاء والقدر،

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

وهذا يُطمئن المؤمن، لأن الذي لا يؤمن بالقضاء والقدر إذا فاته ما يريد فإنه يتحسَّر، وأمّا المؤمن فلا يحزن ولا يتحسَّر ولا يلوم أحداً؛ لأنه يؤمن بالقضاء والقدر لِمَا فيه راحة للمؤمن.

باب ذكر الملائكة عليهم السَّلام والإيمان بهم

وقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [غافر: ٧]. [٥٣]

[٥٣] كما ذكرنا سابقاً أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان الستة، فكذلك الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والملائكة: جمع مَلَك، والملك أصله مَلْأَك بالهمز مأخوذ من الألوكة: وهي الرسالة، لأن المَلَك رسولٌ من الله سبحانه وتعالى. والملائكة خَلْق من خلق الله جلّ وعلا من عالَم الغيب، نؤمن بهم ولو لم نرهم؛ اعتماداً على خبر الله جلّ وعلا وخبر رسوله ﷺ، فإنَّ الله أخبر عن الملائكة، وكذا النبيُّ ﷺ، فليس كلُّ موجود يُرى ويُشاهد، فالرُّوح مثلاً هي موجودة ولكنها لا تُرى، وكذا العقل هو موجود ولكننا لا نراه، ونحن نؤمن بالملائكة وإن لم نَرَهُم بخلاف الملاحدة الذين يقولون: لا نؤمن إلا بما نشاهده، فهؤلاء ليس لهم مِيزة، ولكن المِيْزة تكون للذين يؤمنون بالغيب اعتماداً على

خبر الله جلَّ وعلا وخبر رسوله ﷺ، ولهذا فإنه جاء في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]؛ أي: ما غاب عنهم، والله جلَّ وعلا عالِمُ الغيب والشهادة، يعلم المشاهَد ويعلم الغائب، أمّا نحن فلا نعلم إلاّ المشاهَد، وأمّا الغائب فلا نعلمه إلا بواسطة الوحي المنزَّل من عند الله سبحانه وتعالى.

فالملائكة من عالَمِ الغيب، خلقهم الله من نور، وخلق الشيطان من لهب النار، وخلق آدم من تراب، قال ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم ممّا وُصِفَ لكم»(١).

وقد خَلق الله الملائكة لِحِكَم عظيمة، ومن ذلك أنه خَلقهم لعبادته؛ قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وخَلقهم سبحانه وتعالى أيضاً لتنفيذ أوامره في هذا الكون، فكلُّ صنفٍ من الملائكة موكَّل بشيءٍ من العمل، فمنهم الموكَّل بالوحي وهو جبريل عليه السلام، ومنهم الموكَّل بالقَطْر والنبات، وهو ميكائيل، ومنهم الموكَّل بقبض الأرواح والنَّفْخ في الصور وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

إسرافيل، ومنهم الموكَّل بالأجنَّة في البطون، فيدخل على الجنين ويكتب رزقه وأجلَه وعمله وشقيٌّ أو سعيد، ومنهم الموكَّل بحفظ أعمال بني آدم وهم الحَفَظَة الذين يتعاقبون على بني آدم بالليل والنهار، يُسجلون أعمالهم ويصعدون بها إلى الله سبحانه وتعالى، وكلُّ صنفٍ من الملائكة له وظيفة وكلها الله إليه لا يتخلف عنها؛ قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧] وقال عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] فلا أحد منهم يتخلَّف عن عمله الذي أوكله الله إليه، بل هم يمتثلون أوامر الله جلَّ وعلا، فيجب الإيمان بهم، وهم كما ذكرنا أصناف:

منهم الموكلون بحمل العرش، ومنهم مَنْ هم حول العرش، ومنهم المقرَّبون من الله سبحانه وتعالى، ومنهم خازن الجنان ومنهم خزنة النار، فهم أنواع كثيرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. وخِلْقة المَلَك الواحد عظيمة ليست كخلقة بني آدم؛ ولذلك لا يأتون إلى البشر في خِلْقتهم الأصلية المَلَكية وإنما يأتون إلى البشر بصورة البشر؛ لئلا ينفروا منهم، لأن البشر لا يُطيقون رؤية الملك

على هيئته الملكية؛ ولذلك يأتون بصورة آدمي كما كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صورة رجل من الصحابة وهو دحية الكلبي فيتخاطب مع الرسول بما أرسله الله به، ولم يرَ الرسولُ ﷺ جبريل على خِلقته إلاّ مرتين، مرّة رآه بين السماء والأرض له ست مئة جناح كل جناح منها سدَّ الأُفق، ومرة ثانية رآه ليلة المعراج عند سدرة المنتهى[1]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٤] لمّا عُرج به ﷺ إلى السماء، وأما بقيّة مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ فإنه كان يأتيه على صورة آدميّ.

والمَلَك الواحد أعطاه الله جلَّ وعلا قوّة كبيرة، ومنهم جبريل عليه السلام، الذي قال الله جلَّ وعلا عنه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] يعني: جبريل ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قيل: المِرَّة: الهيئة الحسنة. وقيل: المِرَّة: القوّة، فجبريل عليه السلام قويّ. ومما يدلُّ على قوّته أنَّ الله لمّا أمره بقلب قُرى قوم لوط رفع سبع مدائن مملوءة بالخَلْق والمباني جميعاً على طرف جناحه حتى سمعت الملائكة

(١) انظر البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

في السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها عليهم، فخسف الله بهم، وهذا ما يدل على قوّة جبريل عليه السلام. ولما صاح بقبيلة ثمود صيحة واحدة صاعقة قطّعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، صيحة واحدة من جبريل عليه السلام، أهلكت أمة عظيمة، وهذا أيضاً ما يدلُّ على قوّته عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، سبب نزول هذه الآية أن اليهود اعترضوا على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة وهم يعلمون أنه حقّ ويجدون هذا في كتبهم التي فيها وصف النبي ﷺ، بحيث لو أن الرسول ﷺ بقي على استقبال بيت المقدس لاعترضوا أيضاً بحجّة أن الرسول الموصوف عندهم في كتبهم يستقبل الكعبة ولقالوا: إنك تستقبل بيت المقدس، فهم سيعترضون على كلا الحالتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ يعني: حوّلناكم إلى الكعبة؛ لئلا يكون لليهود عليكم حجة؛ لأنهم يعلمون أن الرسول الذي سيبعث سيستقبل الكعبة المشرفة، فلو

بقي محمدٌ ﷺ يستقبل بيت المقدس لقالوا: ليس هذا الرسول الموعود، فلمّا حُوِّلت القبلة إلى الكعبة المشرفة، قبلة إبراهيم عليه الصّلاة والسلام اعترضوا، فالله جلَّ وعلا يقول: ليست الطاعة أن تُستقبل المشرق أو المغرب ولكن الطاعة أن تستقبل الجهة التي آمركم بها، فالمدار على الأمر لا على الجهة.

فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ يعني أنه من الإيمان بالله استقبال الجهة التي يأمر الله جلَّ وعلا بها.

وقد ذكر الله جلَّ وعلا في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ذكر في هذه الآية خمسة أركان من أركان الإيمان الستة، والشاهد في ذلك هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فجعل الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان السّتّه، فمَن لم يؤمن بالملائكة فقد افتقد ركناً من أركان الإيمان ولا يكون مسلماً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]، هذا خبرٌ من الله جلَّ وعلا، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: أعلنوا توحيد الألوهية

ولا إله إلا الله؛ أي: لا معبود عندهم بحق إلا الله سبحانه وتعالى، فنطقوا بالحقِّ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وليس المراد النطق بالحروف فحسب، ولكن النُّطق بالألسنة والاعتقاد بالقلوب والعمل بالجوارح، فشهادة أن لا إله إلا الله لا بدَّ من التلفُّظ بها ومعرفة معناها والعمل بمقتضاها، فلا بدَّ من هذه الأمور مجتمعة، أما قول: لا إله إلا الله، دون معرفة معناها، أو معرفة معناها دون العمل بمقتضاها، أو معرفة معناها والعمل بمقتضاها دون التلفظ بها كحال المشركين، كل هذا لا ينفع حتى ينطق بها ويعرف معناها ويعمل بمقتضاها، ومن العمل بمقتضاها البراءة من الشرك والمشركين هذا مقتضى التوحيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ لم يقتصر على قوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بل قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ يعني: عملوا بهذه الكلمة، فأفردوا الله جلَّ وعلا بالعبادة، هذه هي الاستقامة، أما مجرَّد النطق بها من غير استقامة؛ أي: من غير عمل بمقتضاها، فإنها لا تنفع صاحبها.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ هذا هو محلُّ الشاهد، والملائكة تتنزل عليهم عند الموت، وهي ملائكة الموت، فملَك

الموت جعل الله معه ملائكة يساعدونه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. وقال في آية أخرى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] يعني: الملائكة لأنهم رسل، وفي آية أخرى قال: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٣٢]، والجمع في ذلك: هو أن ملك الموت معه أعوان من الملائكة يستخرجون الرُّوح من جسد الإنسان، ثم يقبضها منهم ملك الموت، وأما الباقون فهم أعوان له. فالملائكة تتنزل على الإنسان عند الاحتضار في الموقف الحرج، وحينها يطَّلع الإنسان على ما هو أمامه، فيطَّلع على منزلته في الآخرة، إما في الجنة وإمّا في النار، فيحصل عند الإنسان في هذا خوف شديد، فتطمئنه الملائكة بقولهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ مما أنتم قادمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الدنيا، على أولادكم وأموالكم ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ بعدما هدَّؤوهم بشَّروهم ﴿بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ يعني: نتولى أمركم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾

[فصلت: ٣١-٣٢]، هذه صفة احتضار المؤمن.

وأما الكافر والمنافق فإنَّ الملائكة إذا نزلت لقبض روحه فإنها تبشِّره بالنار والتهديد والضرب؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] يعني: باسطو أيديهم بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، بعدما استصعبت أنفسُهم وامتنعت عن الخروج من الأجساد، وذلك إذ يُبشَّرونهم بالنار والعذاب؛ هذه صفة احتضار الكافر والمنافق.

وفي هذا دليل على وجوب الإيمان بالملائكة، وأن منهم صنفاً مهمَّتهم قبض الأرواح، وبشارة المؤمنين بالجنة، وبشارة الكفار والمنافقين بالنار عند هذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ أي: عيسى بن مريم عليه السلام، فلا يستكبر أو يمتنع من أن

يكون عبداً لله عزَّ وجل؛ لأن النصارى اعتقدت في المسيح أنه هو الله، أو إنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والله جلَّ وعلا يقول: إن المسيح عليه الصَّلاة والسَّلام لا يدَّعي هذا الذي تقولونه، وهو عليه السلام يعترف بأنه عبد الله عزَّ وجل، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] يعني: المسيح عليه السلام، وقال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] هذا أول ما نطق به وهو في المهد، ولم يقل: إني ابن الله، وقال كما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، هذا قول المسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله، بخلاف ما تدَّعيه النصارى من أنه ابن الله ـ تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً ـ وهذا فيه ردٌّ على زعمهم بأنه ابن الله، فهو عليه السلام يتشرف في أن يكون عبداً لله، وأفضل الخلق محمد ﷺ يقول: «إنما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»[(١)]، والعبودية هي أعلى مراتب الشَّرف لبني آدم وللملائكة ولجميع الخَلْق، وأمّا الألوهية فإنها لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى:

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لله حـــقٌ لـيـس لعبـده ولعبده حـقٌّ هـما حقّانِ
لا تجعل الحَقَّينِ حقاً واحداً من غـير تمييزٍ ولا فُرقانِ

فيجب التفريق بين حقِّ الله وحق الرسول ﷺ، فحقُّ الله: العبادة، وحقُّ الرسول ﷺ: المتابعة والطاعة له ﷺ والإيمان برسالته ومحبّته أكثر من محبّة النفس والأهل والمال والولد والناس أجمعين، هذا هو حق الرسول ﷺ؛ لأنه ليس له في العبادة حق، لأنها حقٌّ لله عزَّ وجل وحده دون سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ هذا هو محلُّ الشاهد؛ فالملائكة لا يستكبرون أن يكونوا عبيداً لله جلَّ وعلا، بل هم معترفون بالعبودية ولهذا فهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ فيه دليل على أن هناك صنفاً من الملائكة مقرَّبون عند الله سبحانه وتعالى، فالملائكة درجات، فمنهم المقرَّبون عند الله جلَّ وعلا، ولكن مع كونهم مقرّبين عند الله إلاّ أنهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾

[الأنبياء: ١٩ - ٢٠]، وهذا أيضاً في وصف الملائكة عليهم الصلاة والسلام؛ يقول الله جلَّ وعلا: ﴿ وَلَهُۥ ﴾ أي: لله سبحانه وتعالى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ كلهم عبيده، المؤمن والكافر، والجن والإنس، كلهم عبيد لله، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣] لكن الكافر عبدٌ لله العبودية العامة، وأما المؤمن فهو عبدٌ لله العبودية الخاصّة، وإلا فكلهم عباد لله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ أي: الملائكة، وقوله: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، أي: لا يستكفون ولا يسأمون ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالملائكة لا يدَّعون الألوهية، ولو قُدِّر أنهم ادَّعوا الألوهية لأحرقهم الله في النار؛ لأن العبودية حقٌّ له سبحانه وتعالى دون سواه.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١]. قوله: ﴿رُسُلًا﴾ إلى خلقه يرسلهم الله جلَّ وعلا بالمهمَّات التي يُنفِّذونها في الأرض، فمنهم من ينزل بالوحي، ومنهم من

ينزل بالعذاب، ومنهم من ينزل بالبشارة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فهناك رسلٌ من الملائكة ورسلٌ من البشر، فالملائكة رسل يرسلهم الله جلَّ وعلا لِمَا يريد من أمره.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ هذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة، لأن الملائكة تطير في الهواء، وهذه الأجنحة كثيرة لا يعلمها إلا الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ يعني: منهم مَن له جناحان ﴿وَثُلَٰثَ﴾، أي: ومنهم من له ثلاث أجنحة ﴿وَرُبَٰعَۚ﴾ أي: منهم من له أربعة أجنحة ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: زيادته تبارك وتعالى في خلق هذا المَلَك من الأجنحة على الآخر ما يشاء ونُقصانه عن الآخر ما أحبَّ، فمنهم مَن له ست مئة جناح كما في الحديث الصحيح(١).

فهذا فيه إثبات أن الملائكة رسل، وأنهم ليس لهم من الرُّبوبية والألوهية شيء، وإنما هم مجرَّد رسل، وأنَّ لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وأنَّ هذه الأجنحة متعدِّدة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، وهذا صنفٌ آخر من الملائكة أيضاً هم حملة العرش، الذي هو أعظم المخلوقات يحمله ملائكة وهم أربعة، ومع عِظَم العرش الكريم يُذكر عظَم هؤلاء الملائكة الذين يحملونه، ويوم القيامة يُضاعف عددهم فيكونون ثمانية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، يعني: من الملائكة الذين يقال لهم: حملة العرش.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ أي: حول العرش وهم الملائكة المقرَّبون.

ومن نُصحهم ومحبَّتهم للمؤمنين فإنهم يستغفرون لهم، ولهذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُنزِّهون الله جلَّ وعلا ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهم يستغفرون للمؤمنين من بني آدم، لأنهم يحبُّون المؤمنين منهم، وهم أنصح الخلق لبني آدم، بخلاف الشياطين الذين هم أكثرهم غشّاً لبني آدم.

[خُلقت الملائكة من نور]

٥٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلق الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نار، وخُلق آدمُ مِمَّا وُصِفَ لكم» رواه مسلم(١). [٥٤].

[٥٤] ما زال المصنِّف رحمه الله يذكر الأحاديث الواردة في الملائكة عليهم الصَّلاة والسَّلام، وفي هذا الحديث المرويّ عن عائشة رضي الله عنها فيه: أنَّ الله سبحانه وتعالى خَلقَ الملائكة من النُّور، وخلق الجانَّ وهم إبليس وذُريته من مارج من نار، والمراد بقوله ﷺ: «من مارج من نار» أي: من اللَّهب، وخلق آدمَ أبا البشرية عليه السَّلام «مِمَّا وُصِفَ لكم» يعني: مِمَّا ذكر الله في آياتٍ كثيرة أنه خلقه من تراب، هذا أصل خِلقة الملائكة والشياطين والإنسان، واللهُ على كلِّ شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

وكان إبليسُ قد استكبر على آدم وأبى أن يسجد له وعصى أمر الله، وقال كما ذكر الله عنه سبحانه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فبزعمه أنَّ النار أحسن من الطِّين، وهذا قياس فاسد، فإنَّ الطين أحسن من النار؛ لأنَّ النار محرقة متلفة ولا

(١) برقم (٢٩٩٦).

تُنتج شيئاً، أمّا الطّين فإنه مبارك ويُنتج النباتات والأشجار الطّيبة، وفيه منافع للناس كثيرة، فلو رجعنا إلى القياس والأصل لوجدنا أنَّ آدم أطيب أصلاً من إبليس، مع أنَّ هذا القياس الفاسد في مقابل الأمر؛ أي: أمر الله جلَّ وعلا الذي كان من الواجب امتثاله من قِبَل إبليس وغيره، فإذا أمر سبحانه بشيءٍ فلا اعتراض، ويجب الانقياد له، والله يؤتي فضله مَنْ يشاء، والذي حَمَل إبليس على هذا هو الحسد، فحسد آدم عليه السلام، واستكبر عن أمر الله، فحصل عليه من العقوبة ما حصل.

والشاهد من الحديث أنَّ الملائكة خُلقوا من النُّور، فيؤمن المسلم بما جاءه عن الله عزَّ وجلَّ وعن رسوله ﷺ، وقد سبق القول بأنهم عباد مكرمون وأنهم أصناف كثيرة.

[ذكر عبادة الملائكة والبيت المعمور]

٥٣- وثبت في بعض أحاديثِ المعراج[1]: أنه ﷺ رُفِعَ له البيتُ المعمورُ الذي هو في السَّماء السابعةِ. وقيل: في السادسة بمنزلة الكعبةِ في الأرض، وهو بحِيال الكعبةِ، حُرمتُه في السَّماء كحُرمةِ الكعبةِ في الأرض، وإذا هو يَدخلُه كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَكٍ ثم لا يَعودون إليه آخِرُ ما عليهم. [٥٥].

---

[٥٥] هذا الحديث فيه ذكر عبادة الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وأنَّ الله جلَّ وعلا جعل لهم بيتاً في السَّماء كما جعل لبني آدم بيتاً في الأرض، وهذا البيت الذي في السماء بِحِيال الكعبة المشرفة التي في الأرض؛ وذلك لعبادة الله عزَّ وجلَّ، وهذا البيت الذي في السَّماء هو البيت المعمور، يزوره هذا العدد كلَّ يوم من الملائكة ولا يرجعون إليه، بل يأتي غيرهم.

فهذا يدل على أمرين:

الأول: أنَّ الملائكة يعبدون الله عزَّ وجل، وأنهم عباد ليس لهم من الأمر شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس ﷺ.

الثاني: فيه دليل على كثرة الملائكة، حيث إنه يأتي البيت المعمور كلَّ يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، حيث لا يعلم عددهم الهائل إلاّ الله سبحانه وتعالى.

٥٤- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما في السَّماء مَوضعُ قَدَم إلاّ عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو مَلَكٌ قائمٌ، فذلك قول الله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾» [الصافات: ١٦٥-١٦٦] رواه محمد بن نصر وابن أبي حاتم وابن جرير وأبو الشيخ(١). [٥٦].

[٥٦] وهذا الحديث أيضاً يدلُّ على أنَّ الملائكة يعبدون الله عزَّ وجلَّ، بالركوع والسُّجود والقيام عبادةً لله عزَّ وجلَّ، وفيه بيان كثرتهم في السَّماء على سعتها، إذْ ليس فيها موضع قَدَم إلاّ وفيه مَلَك يعبد الله عزَّ وجلَّ، فهذا دليل على كثرتهم وأنهم ملؤوا السَّماء على سعتها، ويدل على هذا قوله عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ لأن الملائكة تَصفُّ عند ربِّها للعبادة؛ ولهذا قال ﷺ: «ألا تَصفُّون كما تَصفُّ الملائكة عند ربِّها؟» يعني في الصلاة، قالوا: وكيف تصفُّ الملائكة؟ فقال ﷺ: «يُتِمُّون الصَّفَّ الأوَّل ويَتَراصُّون في الصَّفِّ»(٢)، وفي هذا دليل على عبادة الملائكة لله عزَّ وجلَّ وعلى كثرة عددهم، حيث إنهم يملؤون السماء على سعتها.

---

(١) محمد بن نصر في «الصلاة» ١/ ٢٦٠، وابن جرير الطبري في «تفسيره» ١٠/ ٥٣٨، وأبو الشيخ في «العظمة» ٣/ ٩٨٤.

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٠)، من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

٥٥- روى الطبراني[1] عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السَّماء مَوضعُ قَدَمٍ ولا شِبْرٍ ولا كَفٍّ إلاّ وفيه مَلَكٌ قائمٌ أو مَلَكٌ ساجدٌ أو مَلَكٌ راكعٌ، فإذا كان يومُ القيامةِ قالوا جميعاً: سُبحانكَ ما عبدناكَ حَقَّ عبادتِكَ، إلّا أنّا لم نُشرِكْ بكَ شيئاً». [٥٧].

---

[٥٧] وهذا الحديث كالأحاديث السابقة، فيه ذكر عبادة الملائكة، وفيه ذكر كثرتهم، حيث إنه لم يَبْقَ في السَّماء فضاء بل هم ملؤوه، وفيه ذكر مسألة عظيمة وهي أنه على الإنسان أن لا يغترَّ بعمله مهما كثُر، فالملائكة يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ومع هذا يقولون لله عزَّ وجلَّ: «سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك»؛ لأنَّ حقَّ الله عظيم، ولو قارن الإنسان عمله بِنِعَم الله عليه لما بلغت شيئاً يُذكر أمام هذه النِّعَم، فالعمل قليلٌ وإن كثُر؛ لأن نِعَم الله أكثر وأكثر، فلا أحدَ يعبد الله حقَّ عبادته؛ لعظم حق الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا فإنَّ نبيَّنا محمداً ﷺ وهو أفضل الخَلْق على الإطلاق وأكثرهم عبادة لله عزَّ وجل، يقول: «سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما

---

(١) في «المعجم الكبير» ٢/ ١٨٤ (١٥٧١).

أثنيت على نفسك»(١)، هذا فيه اعتراف بأنَّ عمل المخلوق مهما بلغ فإنه لا يعادل حقَّ الله سبحانه وتعالى، وهذا فيه أيضاً أنه على الإنسان أن لا يَغترَّ بعمله، أو يُعجَب به.

وفي قولهم: «إلاّ أنّا لم نُشرك بك شيئاً» بيان أنَّ مَنْ سَلِمَ من الشِّرك فإنه سَلِمَ من خطر عظيم، وفيه أيضاً الخوف من الشِّرك، وأنَّ الملائكة عليهم السلام شكروا الله عزَّ وجلَّ أنه سلَّمهم من الشِّرك، وهذه نعمة عظيمة، فمَن سَلِمَ من الشرك فإنه قد سَلِم من الخطر العظيم، ومَن وقع في الشِّرك ولم يَتُبْ منه فإنه لا نجاة له.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[ذكر عِظَم خِلْقة الملائكة]

٥٦- وعن جابرٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحدِّثَ عن مَلَكٍ مِنْ ملائكة الله مِنْ حَمَلة العرشِ، ما بين شَحمةِ أُذنِه إلى عاتقِه مسيرةُ سبع مئة عام» رواه أبوداودَ والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» والضياء في «المختارة»[1]. [٥٨]

---

[٥٨] هذا الحديث فيه ذكر عِظَم خِلْقة الملائكة، وأنَّ هذا الملك من حَمَلة العرش ما بين شحمة أُذنه وعاتقه مسيرة سبع مئة عام، فدلَّ على عِظَم خِلْقة الملائكة، وأنه لا يعلم خِلْقه المَلَك إلا الله سبحانه وتعالى، وإذا كان هذا عِظَم المخلوق فكيف بعِظَم الخالق سبحانه وتعالى!

وفيه أنَّ من الملائكة صنفٌ يحملون العرش وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

---

(١) أبو داود (٤٧٢٧)، والبيهقي (٨٤٦).

فمِنْ سادتِهم جبرائيل عليه السَّلام، وقد وَصفَه الله تعالى بالأمانةِ وحُسنِ الخَلْقِ والقوَّة، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥-٦]. [٥٩].

---

[٥٩] من سادات الملائكة جبريل عليه السلام، وهو الملَك الموكّل بالوحي، وقد مدحه الله جلَّ وعلا بالأمانة، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فهو أمين على الوحي، ومدحه بالقوَّة، قوَّة الخِلقة والبَدَن، فقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ووصفه بحسن الصورة فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: خلقة حسنة ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] علَّم نبيَّنا محمداً ﷺ وهو جبريل عليه السلام. وسيأتي ذكر شيء من قوته عليه الصلاة والسلام.

ومِن شدَّة قوَّتِه أنَّه رفع مدائنَ قوم لوطٍ عليه السلام ـ وكُنَّ سبعاً ـ بمَن فيهنَّ من الأُمم، وكانوا قريباً من أربع مئة ألف وما معهم مِنَ الدَّوابِّ والحيواناتِ، وما لتلك المدائن مِنَ الأراضي والعمارات؛ على طَرَف جناحيه، حتى بلغ بهنَّ عَنانَ السَّماءِ، حتى سَمعتِ الملائكةُ نباحَ كلابِهم وصياحَ دِيكَتِهم، ثم قَلَبَها فجعل عالِيَها سافِلَها، فهذا هو ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. [٦٠]

---

[٦٠] قوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، أي: جبريل عليه السلام، جاء أنه لمّا أمره الله بإهلاك قوم لوط عليه السلام، ولوط نبيٌّ من أنبياء الله، وهو ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإبراهيم هو عمُّه عليهما الصلاة والسلام، وجاء مهاجراً مع إبراهيم من أرض بابل بالعراق إلى الشام، وأرسله الله إلى قومه، وكان قومه أمّةً خبيثة، قومَ سَوْء، وكانوا يأتون الذُّكران من العالمين، وهم أول مَنْ فعل هذه الفاحشة الشنيعة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فقد خلق الله للرجال النساء يكنَّ زوجات لهم، وهنَّ طيبات ومحلٌّ للحرث والإنجاب، وكون هؤلاء القوم الخبثاء يَعْدِلون عمَّا خلق الله لهم من أزواج، ويكفرون نعمة الله، ويهلكون الحرثَ

ويضعونه في أدبار الرجال، فهو دليل على خُبثهم، وهذه جريمة شنيعة تأنف منها حتى البهائم، فأرسل الله إليهم نبيَّه لوطاً عليه السلام وأنكر عليهم فِعْلَتهم، وقال لهم كما أخبر الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦] يعني: متجاوزون من الحلال إلى الحرام، وهؤلاء خرجوا من الإنسانية إلى البهائمية المنحطَّة، بل حتَّى البهائم لا تفعل هذا الفعل، فلمّا أَبوا أن يتركوا هذه الجريمة عاقبهم الله بعقوبة لم يُعاقب بها أمَّةً من الأمم؛ لأنَّ فِعْلهم لم يفعله أحد من قَبل، فأمر الله جبرائيل عليه السلام بأن يرفع ديارهم - وكانت سبع مدن مكتظَّة بالسكان - وما فيها من الأمتعة والحيوانات، فحملها جبريل على طرف جناحه إلى أن بلغ بها عنان السماء، فسمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها عليهم، وأُتبعوا بحجارة من سجّيل عقوبةً لهم. وكانت هذه البلاد المخسوفة ممرّاً للعرب إذا سافروا إلى الشام ولا يعتبرون؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ

عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]. وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وتسمّى بحيرة لوط أبقاها الله على هذه الصورة عبرة وعظة؛ ولهذا جاء في الأحاديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ وَجَدْتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[1]، وأجمع الصحابة على قتل من يفعل فعلهم، ولكنهم اختلفوا في كيفية القتل، فمنهم من يرى أنه يُرفع إلى أعلى مكان في البلد، ثم يُلقى ويُتبَع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، ومنهم مَنْ يَرى أنه يُحرَّق في النار، وقد حرَّق أبوبكر رضي الله عنه، ومن العلماء من يرى أنهم يُقتلون بالسيف، فالعلماء لم يختلفوا في قتلهم، وإنما اختلفوا في كيفية قتلهم.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٣٢)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]؛ أي: ذو خَلْقٍ حَسَنٍ وبهاءٍ وسناءٍ وقوَّة شديدة. قال معناها ابن عبّاس رضي الله عنهما.

وقال غيرُه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو قوَّة. [٦١]

وقال تعالى في صفته: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]؛ أي: له قوَّة وبأس شديد، وله مكانة ومنزلةٌ عاليةٌ رفيعة عند ذي العرش. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي: مطاع في الملأ الأعلى، أمينٍ ذي أمانةٍ عظيمة؛ ولهذا كان هو السَّفير بين الله وبين رسله. [٦٢]

---

[٦١] قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] لا بدَّ أنَّ بينهما فَرْقًا، فالمِرَّة غير القوة، والمِرَّة: هي الهيئة الحسنة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

[٦٢] هذه أوصاف جبريل عليه الصلاة والسلام، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فيه وصف جبريل عليه السلام بالكرم، ووصفه بالرسالة، فهو رسول من عند الله عزَّ وجل يرسله إلى مَنْ يشاء من رسله من بني آدم بالوحي، فهو واسطة بين الله عزَّ وجلَّ والرسل

من البشر بالوحي، وهذا مدحٌ له، ولهذا قال عنه تعالى: ﴿كَرِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ فوصفه تعالى بالقوة، ثمّ وصفه بما هو أعلى فقال: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠] بعُلوّ المكانة، فهو قريب من الله عزّ وجل، ثم قال: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عظيمة، ثم قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أي: تطيعه الملائكة، فهو رئيسهم ومقدَّمهم، ثم قال تعالى: ﴿ثَمَّ﴾ وهي اسم إشارة، فقوله تعالى: ﴿ثَمَّ﴾ أي: في السَّماء، ثم قال: ﴿أَمِينٍ﴾ فوصفه تعالى بالأمانة، هذه أوصاف جبريل عليه السلام.

ثم قال تعالى عن نبيِّنا محمد ﷺ الذي يتلقَّى الوحي من جبريل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، لأنهم كانوا يصفونه ﷺ بالجنون، والله جلَّ وعلا نفى عنه ذلك، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل على خِلقته التي خلقه الله عليها بالأفق، وذلك في بطحاء مكة لَمّا حصل على النبي ﷺ من الضيق والشدَّة من كفّار أهل مكة، فسمع ﷺ صوتاً من فوق رأسه فرفع طرفه إلى السماء، فإذا هو جبريل بين السَّماء والأرض له ستة مئة جناح[1]؛ قال

---

(١) انظر البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٣ - ٢٤]؛ ما هذا الرسول ﷺ ﴿بِضَنِينٍ﴾ على الغيب؛ أي: ما هو بمُتَّهم على الأخبار التي يُخبر بها عن الله سبحانه وتعالى، بل هو صادق عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ هذا القرآن ليس من قول الشياطين، لأن الشياطين لا تقرب الوحي، لأنه يُحرقها، وهي لا تُطيق ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يعني: بالقرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أي: لا يليق بهم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ يعني: عن الوحي فهم مبعدون يُرجمون بالشُّهب، فلا يستطيعون أن يَقربوا من الوحي ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٥ - ٢٦] ليس لكم طريق لتكذيب هذا الرسول وهذا القرآن بعد هذه الأوصاف العظيمة، وهذا السند المتصل إلى الله جلَّ وعلا، فالسند إنما هو عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى.

[ذكر صفة خِلْقة جبريل عليه السلام]

٥٧- وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ في صفاتٍ متعدِّدة، وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين وله ستُّ مئة جناح. روى ذلك البخاري عن ابن مسعود ﷺ[1]. [٦٣]

---

[٦٣] لقد رأى رسول الله ﷺ جبريلَ على خلقته التي خلقه الله عليها مرتين، مرة في مكة حين رفع رأسه ﷺ، وفي المرة الثانية ليلة المعراج؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤]، أي: ليلة عُرِج به ﷺ، وأمّا في بقيّة الأحوال فقد كان يأتي إلى النبي ﷺ في صورة البشر، ويراه الصحابة ويظنون أنه رجل من البشر، لأنهم لا يطيقون رؤية جبريل عليه السلام على خِلقته، فيأتي بصورة رجل كما في حديث عمر ﷺ: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد»، هذا جبريل عليه السلام؛ ولذلك قال ﷺ في نهاية الحديث: «أتدرون من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[2].

(١) برقم (٤٨٥٦) و(٤٨٥٧)، وأخرجه مسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨).

٥٨- وروى الإمام أحمد[١] عن عبد الله قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريلَ في صُورته وله ستُّ مئة جناح، كلُّ جناحٍ منها سَدَّ الأُفُقَ يَسقطُ من جَناحِهِ مِنَ التَّهاويلِ والدُّرِّ والياقوتِ ما الله به عليم». إسناده قويّ. [٦٤]

[٦٤] ما زال المصنِّف رحمه الله يسوق الأحاديث الدالَّة على عِظَم خِلْقة جبريل عليه السلام، ويؤيِّد ما جاء في هذه الأحاديث قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، دلَّت الآية على أن للملائكة أجنحة، وأنها كثيرة، منها ما هو مثنى وثلاث ورباع ثم قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

(١) في «المسند» برقم (٣٧٤٨).

[صفة ثياب جبريل عليه السلام]

٥٩- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ في حُلَّةٍ خضراءَ قد ملأَ ما بين السَّماء والأرض» رواه مسلم(١). [٦٥]

[٦٥] وهذا دليل آخر على عِظَم خِلْقَةِ جبريلَ عليه السَّلام، وأنَّ هيأته جميلة وقد بسط أجنحته بحُلَّته الخضراء الجميلة، وقد سبق بيان جمال وبهاء وعِظَم خلقته عليه السلام فيما مضى من الأحاديث.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٧٤٠)، والترمذي (٣٢٨٣) وعندهما: «من رفرف» بدل «خضراء» ولم يخرجه مسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ جبريلَ مُنهَبطاً قد ملأ ما بين الخافقينِ عليه ثيابُ سُندسٍ معلَّقٌ بها اللؤلؤ والياقوتُ». رواه أبوالشيخ(١).

ولابن جرير(٢) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: جبرائيل: عبدُ الله، وميكائيلُ: عُبيد الله، وكلُّ اسمٍ فيه إيل، فهو عبدالله.

٦٠- وله(٣) عن عليّ بن الحسين مثله، وزاد: وإسرافيل: عبد الرَّحمن [٦٦].

---

[٦٦] هذا تفسير لكلمة: (إيل) في أسماء الملائكة الكرام.

---

(١) في «العظمة» ٣/ ٩٧٢ (٤٩٥) بنحوه، وانظر «مسلم» (١٧٧).

(٢) في «تفسيره» ١/ ٢٨٦ و٤٧٦.

(٣) في «تفسيره» ١/ ٤٧٦.

[جبريل أفضل الملائكة]

٦٣- وروى الطبراني[(١)] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأفضلِ الملائكةِ؟ جبرائيلُ» [٦٧].

---

[٦٧] هذا فيه أن جبريل ـ ويقال: جبرائيل ـ هو أفضل الملائكة؛ لأن الله اختصَّه بالوحي، وبسماع كلامه سبحانه وتعالى، فهو عليه السلام يسمع كلام الله ويُبلِّغه لَمِن أمره الله بتبليغه له كما جاء في الحديث: «إذا أراد الله أن يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، فأخذت السماوات منه رَجفةٌ ـ أو قال: رعدة ـ شديدة خوفاً من الله عزَّ وجلَّ، فإذا سمع ذلك أهلُ السماوات صَعقوا ـ أو قال: خرُّوا ـ لله سُجَّداً فيكون أول مَن يرفع رأسَه جبرائيل عليه السَّلام، فيُكلِّمه الله من وَحيِه بما أراد»[(٢)] فهذا دليل على فضل جبريل عليه السَّلام على غيره من الملائكة.

---

(١) في «المعجم الكبير» ١١/ ١٦٠ (١١٣٦١).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» ١/ ٣٣٦ (٥٩١) من حديث النواس ابن سمعان ﷺ.

[خشية الملائكة من عصيان الله تعالى]

٦٤- وعن أبي عمران الجونيِّ أنَّه بَلغَه أنَّ جبرائيلَ أتى النبيَّ ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يُبكيكَ؟ قال: وما لي لا أبكي، فوالله ما جَفَّت لي عينٌ منذ خَلق الله النَّارَ، مخافةَ أنْ أعصيَه فيقذفَني فيها» رواه الإمام أحمد في «الزهد»(١). [٦٨].

[٦٨] وهذا الحديث فيه - كما سبق - أن الملائكة مع كثرة عبادتهم أنهم لا يَغترُّون بأعمالهم، ويخافون أن يعصوا الله - عزَّ وجل - فيقذفهم في النار كما حصل لإبليس، فإنه كان مع الملائكة يعبد الله، فلمّا عصى الله، لعنه الله عزَّ وجلَّ وأبعدَه، وجبرائيل لمّا رأى النار وشدَّة عذابها، وأنها دار العقاب خشي أن يعصي الله فيقع فيها.

وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يُزكِّي نفسَه، وأنه ينبغي له أن يخاف من النار، ويخاف الله ومكره عزَّ وجل بمن عصاه.

(١) لم أجده فيه، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١/ ٥٢١ (٩١٥).

[الملائكة لا تنزل إلا بأمر الله]

٦٥- وللبخاري[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ألا تزورنا أكثرَ مما تزورُنا؟»، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية [مريم:٦٤]، ومن ساداتهم ميكائيل عليه السَّلام، وهو موكَّل بالقَطْرِ والنَّباتِ [٦٩].

[٦٩] في هذا الحديث أنَّ رسول الله ﷺ طلب من جبريل أن يكثر الزيارة له، لأنه ﷺ يحبُّ جبريل، فيؤخذ منه الحثُّ على محبَّة عباد الله الصالحين وزيارتهم، فطلب رسول الله ﷺ من جبريل الإكثار من الزيارة ليكثر فرحُه وأُنسُه به ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ فهذا فيه أنَّ الملائكة تحت تدبير الله عزَّ وجل، وأنهم لا ينزلون إلا بأمره سبحانه وتعالى، ولا يَتنزَّلون بحسب رغبتهم هم، وإنما ينزلون إذا أمرهم الله بالنزول.

وقوله: «ومن ساداتهم ميكائيل عليه السلام، وهو موكل بالقطر والنبات» كان النبيُّ ﷺ إذا قام من الليل يستفتح فيقول:

---

(١) برقم (٣٢١٨) و(٤٧٣١).

«اللهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض.. الخ»[1]، وخصَّ ﷺ هؤلاء الثلاثة؛ لأن جبرائيل موكَّل بالوحي الذي فيه حياة القلوب، وميكائيل موكَّل بالقَطْر الذي فيه حياة الأرض، وإسرافيل موكَّل بالنفخ في الصُّور الذي فيه حياة الناس يوم القيامة بعد الموت، هؤلاء الثلاثة هم أفضل الملائكة؛ لأن كلَّ واحد منهم موكَّل بالحياة؛ حياة القلوب، وحياة الأرض، وحياة الأبدان عند البعث من القبور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فالذي ينفخ في الصُّور هو إسرافيل عليه السلام، ينفخ فيه نفخة الصعقة فيموت كلُّ مَنْ في السماوات والأرض إلاّ من استثنى الله سبحانه وتعالى، ثم ينفخ فيه ثانية فيحيى كلُّ مَنْ مات ويقوم سَوِيًّا، فهذا وجه كون الرسول ﷺ خصَّ هؤلاء الثلاثة في استفتاحه.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

٦٦- وروى الإمامُ أحمدُ[١] ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال لجبرائيل: «ما لي لم أرَ ميكائيل ضاحكاً قطُّ؟ قال: ما ضَحِكَ ميكائيلُ منذ خُلقتِ النَّارُ». [٧٠].

---

[٧٠] وهذا كما سبق في الحديث عن جبرائيل عليه السلام أنه كان يبكي فسأله النبيُّ ﷺ عن بكائه فقال: «وما لي لا أبكي، فوالله ما جَفَّتْ لي عين منذ خَلَقَ الله النارَ»[٢] وهذا ميكائيل مثله، لا يستطيع أن يضحك منذ خُلقت النار من شدَّة خوفه منها، فالملائكة مع عبادتهم وقربهم ومكانتهم من الله تعالى لم يأمنوا على أنفسهم من النار، فهذا فيه الحثُّ على شدَّة الخوف من النار، وليس المراد هو مجرَّد الخوف من النار فقط، ولكن الخوف والعمل للنجاة منها، فالمطلوب هو الخوف مقروناً مع عمل ما يُرضي الله وتَرْك معصيته جلَّ وعلا، فالخوف دون العمل لا يُفيد شيئاً، والعمل دون الخوف لا يفيد شيئاً كذلك، والمفيد هو الجمع بين الأمرين: العمل والخوف؛ والرجاء

(١) في «المسند» (١٣٣٤٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١/ ٥٢١ (٩١٥) من حديث أبي عمران الجوني بلاغاً.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، يعني: يؤتون من الأعمال الصالحة العظيمة وهم خائفون من ردها ومن عذاب الله سبحانه وتعالى، ولا يغترُّون بأعمالهم، أو يُدِلُّون بها على الله سبحانه وتعالى.

ومن ساداتهم إسرافيل ـ عليه السلام ـ وهو أحدُ حَمَلة العرش، وهو الذي ينفخ في الصُّور . [٧١].

---

[٧١] الصُّور، قَرنٌ لا يعلم عِظَم خِلقَتِه إلا الله تعالى، وفيه أرواح بني آدم، فإذا نفخ فيه إسرافيل خرجت منه كلُّ روح، ودخلت في بدن صاحبها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فتطير الأرواح، كلُّ روحٍ إلى جسمها.

[تهيُّؤ مَلَك النّفخ في الصُّور]

٦٧- روى الترمذيُّ - وحسَّنه(١) - والحاكم عن أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كيف أَنعُمُ وصاحب القَرْنِ قد التقَمَ القَرْنَ وأصغى سَمْعَه ينتظرُ متى يؤمرُ فينفخُ» قالوا: فما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيلُ، على الله توكَّلْنا». [٧٢].

---

[٧٢] هذا الحديث فيه ذكر خوف الرسول ﷺ ممّا أطلعه الله عليه من أنَّ مَلَك النّفخ في الصُّور قد تهيّأ لذلك منتظراً للأمر، وهذا فيه دليل على قُرب قيام الساعة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وقيام الساعة هول عظيم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، فكيف لا يخاف الإنسان من هذا الهول ولا يستعدّ له.

---

(١) برقم (٢٤٣١).

[إسرافيل من حملة العرش]

٦٨- وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مَلَكاً مِنْ حَمَلَةِ العرشِ يقال له إسرافيل، زاويةٌ من زوايا العرشِ على كاهِلِه، قد مَرَقَتْ قَدَماهُ في الأرض السابعةِ السُّفلى، ومَرق رأسُه مِنَ السَّماء السابعةِ العُليا» رواه الشيخ وأبونعيم في «الحلية»[1] . [٧٣].

[٧٣] وهذا دليل آخر على عِظَم خِلْقة الملائكة، فهذا مَلَك من الملائكة قَدماه في الطبقة السُّفلى من الأرض ورأسه قد اخترق الطبقة العُليا من السماء السابعة وهذا دليل على عِظَم خِلْقتهم وهيئتهم.

(١) أبوالشيخ في «العظمة» ٢/ ٦٩٧ (٢٨٨)، و٣/ ٩٤٩ (٤٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٦٦.

٦٩- وروى أبو الشيخ[1] عن الأوزاعي قال: ليس أحدٌ من خَلْق الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في التَّسبيحِ قَطع على أهل سبع سماواتٍ صلاتَهم وتسبيحَهم. [٧٤].

[٧٤] هذا فيه أنَّ الله أكرم إسرافيل بِحُسْنِ الصَّوتِ، وأنَّ الملائكة تُصغي لصوته، ويذهلون عن تسبيحهم وتهليلهم إذا سمعوه.

(١) في «العظمة» ٣/ ٨٥٦ (٤٠٠).

ومن ساداتهم مَلَكُ الموتِ عليه السَّلام، ولم يجئ مصرَّحاً باسمه في القرآنِ ولا في الأحاديث الصَّحيحةِ، وقد جاء في بعض الآثارِ تَسميتُه بعزرائيلَ، فالله أعلم؛ قاله الحافظ ابن كثير(١). [٧٥]

[٧٥] تسمية مَلَك المَوْت هكذا جاءت في القرآن؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ولكن لم يُسمَّ بعزرائيل، ولم يثبت له اسم معيَّن في القرآن ولا في السُّنة، وإنما قال الله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، وجاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل، والله أعلم بصحة ذلك!

انتهى المصنف الآن من بيان عِظَم خِلْقة الملائكة وعبادتهم وخوفهم من الله جلَّ وعلا، وبيان كثرة عددهم، ثم شرع في بيان أعمالهم وأصنافهم، فكلُّ صنفٍ منهم له عمل وكَّله الله إليه ليقوم به.

(١) انظر «تفسيره» ٣/ ٦٠٤، و«البداية والنهاية» ١/ ٤٧.

وقال(1): إنهم بالنّسبة إلى ما هيَّأهم له أقسام:

فمنهم حملة العرش. [٧٦]

---

[٧٦] من هؤلاء الملائكة مَن هم موكلون بحمل عرش الرَّحمن تبارك وتعالى، وقد سبق بيان ذكرهم، ومنهم الذين هم حول العرش؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله:

---

(١) يعني الحافظ ابن كثير، انظر: «البداية والنهاية» له ١/ ٤٩.

ومنهم الكَرُوبِيُّون الذين هم حول العرش، وهم مع حَمَلَةِ العرش أشرف الملائكة؛ وهم الملائكة المقرَّبون كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. [٧٧]

---

[٧٧] ومن هؤلاء الملائكة الذين هم حول العرش الكروبيُّون وهم من أفضل الملائكة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، فهؤلاء أقرب الملائكة إلى الله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، دلَّ على أن الملائكة منهم من هم مقرَّبون من الله عزَّ وجل، وهم الذين حول العرش.

ومنهم سُكّان السّماوات السّبع، يَعمُرونها عبادةً دائمةً، ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً كما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٠]. [٧٨]

---

[٧٨] ومن هؤلاء الملائكة مَنْ يشتغل بالعبادة، ليلاً ونهاراً في السماوات السّبع، كل سماء لها سكانها مِن الملائكة يَعمُرونها بالعبادة. قال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾[فصلت: ٣٨].

ومنهم الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور. [٧٩]

قلت: الظاهر أنَّ الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور سكّان السَّماوات. [٨٠]

---

[٧٩] كما سبق فإنَّ البيت المعمور في السماء يتعاقب عليه الملائكة، فكلُّ يوم يأتيه عدد كبير منهم ثم لا يرجعون إليه، لأن الله قسمهم في زيارة البيت.

[٨٠] يعني: هل هناك فرق بين سكّان السَّماوات وبين الذين يأتون إلى البيت المعمور؟ المؤلف رحمه الله يقول: «قلت: الظاهر أن الذين يتعاقبون..» أي: لعلهم هم سكّان السماوات إذْ لا فرق بينهم، والله أعلم.

ومنهم موكلون بالجِنانِ وإعداد الكرامات لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها؛ من ملابسَ ومآكلَ ومشاربَ ومُصاغ ومساكن وغيرِ ذلك، مما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خَطر على قلب بَشَر. [٨١]

[٨١] أي: ومن الملائكة من هم وظيفتهم داخل الجنان، يُعِدُّون فيها مِن الكرامات التي يأمرهم الله بها، فيغرسون فيها مِن الأشجار، ويَبنون فيها مِن القصور وغيرها للمؤمنين، هذا دَأْبهم، ورئيسهم رضوان كما جاء في الحديث[١].

(١) كما في «شعب الإيمان» للبيهقي ٣/ ٣٣٥ (٣٦٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنهم الموكَّلون بالنَّار ـ أعاذنا الله منها ـ وهم الزَّبانية، ومقدَّموهم تسعةَ عشَرَ، وخازنُها مالكٌ، وهو مقدَّم على الخزنة،وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١]. [٨٢]

---

[٨٢] ومن هؤلاء الملائكة مَن هم موكلون بحراسة النار وإعداد العذاب فيها، ورئيسهم مالك كما في الآية التي ساقها المصنف، ومنهم الزَّبانية التسعة عشر المذكورون في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

وقوله تعالى على لسان المعذَّبين يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ قالوا للخزنة، وفي الآية الأخرى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، نـادوا رئيس الخزنة، فهم يطلبـون الموت،

ليستريحوا بزعمهم ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ أي: لا موت لكم. فهم مرَّة ينادون الخزنة، ومرَّة ينادون رئيسهم وهو مالك. وأمَّا المذكورون في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فهؤلاء مقدَّمو الخزنة؛ ومقدَّمهم جميعاً هو مالك، ولمَّا سمع أبوجهل أن عدد الملائكة الذين على النار تسعة عشر، قال لقريش: أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[1] [المدثر: ٣١]، أي: ليسوا من البشر، فهم ملائكة، ولا يعلم مدى قوَّتهم وعظمتهم إلاَّ الله تعالى، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ابتلاء لهم، ولذلك فهم سخروا من هذا العدد، وأما أهل الإيمان فلا يصير عندهم تساؤل في هذا الأمر، لأن هذا كلام الله سبحانه وتعالى، والملائكة لا يعلم عِظَم قوتهم وعددهم إلاَّ الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فهؤلاء التسعة عشر لا يعلم قوَّتهم وبأسهم وشدَّتهم إلا الله سبحانه وتعالى!

---

(١) انظر «تفسير» ابن جرير الطبري ١٢/٣١٢، فيا أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنهم الموكَّلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. قال ابنُ عباس: ملائكةٌ يحفظونه مِنْ بين يَدَيهِ ومِنْ خَلفِه، فإذا جاء أمرُ الله خَلَوا عنه(١). [٨٣]

---

[٨٣] مِنَ الملائكة مَنْ هو موكَّل بحفظ بني آدم من الأخطار، يمشون معه ويمنعونه من الوقوع فيها، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى، وإذا نام يحرسونه، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمر الله سبحانه وتعالى ورحمته بعبده، فإذا جاء أجلُه خلّى الله بينه وبين الأجل.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما من أنه «إذا جاء أمر الله خَلَوا عنه». وذلك لأنه انتهت مهمَّتهم، فهم كانوا يحفظونه حينما كان على قَيد الحياة، ولكن إذا حان وقت دُنُوِّ أجلِه وانتهاء حياته فإنه تنتهي مهمَّتهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٧/ ٣٥٠.

وقال مجاهد: ما مِنْ عبدٍ إلاّ ومَلكٌ موكَّل بحفظِه في نَوْمِهِ ويقظتِهِ مِنَ الجِنِّ والإنس والهوامِّ، فما منها شيءٌ يأتيه يُرِيدُه إلّا قال له: وراءَك، إلاّ شيءٌ يأذنُ الله تعالى فيه فيُصيبُه(١). [٨٤]

---

[٨٤] وهؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان من الجنِّ والهوامِّ والدوابِّ والسِّباع والأخطار، إلاّ ما قدَّره الله تعالى للعبد مما يُصيبه، فإنه يُصيبه بتقدير الله تعالى له وبأمره.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٧/ ٣٥٠.

ومنهم المُوكَّلون بحفظ أعمالِ العباد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٧-١٨] . وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[الانفطار: ١٠-١١]. [٨٥]

---

[٨٥] ومن هؤلاء الملائكة: الحَفَظة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، فهؤلاء هم الحَفَظَة، يحفظون أعمالَ بني آدم، وما مِنْ أحدٍ من الناس إلاّ ومَلَك عن يمينه ومَلَك عن شماله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، هؤلاء هم الحفظة الذين يحفظون الأعمال ويكتبونها، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف: ٨٠]، قوله تعالى: ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الحفظة.

[النهي عن التعرِّي ووجوب الاستحياء من الملائكة]

٧٠- روى البزّار عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يَنهاكم عن التَّعرِّي، فاستَحيوا مِنْ ملائكةِ اللهِ الذين معكم، الكرامِ الكاتبينَ الذين لا يُفارقونَكم إلاّ عند إحدَى ثلاثِ حالاتٍ: الغائطِ، والجَنابةِ والغُسلِ، فإذا اغتسل أحدُكم بالعَراءِ فليَستَتِرْ بثَوبِهِ أو بجِذمِ حائطٍ أو بغيرِه»(١).

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى إكرامهم: أنْ يَستحيَ منهم، فلا يُملي عليهم الأعمالَ القَبيحةَ التي يَكتبونَها، فإنَّ اللهَ خَلَقَهم كراماً في خَلقِهم وأخلاقِهم. ثم قال ما معناه: إنَّ مِن كرمهم أنهم لا يدخلون بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ ولا جُنبٌ ولا تمثالٌ، ولا يَصحبونَ رِفقةً معهم كلبٌ أو جَرَسٌ(٢). [٨٦]

---

[٨٦] في هذا الحديث النَّهي عن التَّعرِّي حتى وإن كان الإنسان خالياً بنفسِه ولا أحد يُشاهده، فإن الملائكة تشاهده ولهذا ينبغي

---

(١) «كشف الأستار» ١/ ١٦٠ (٣١٧).

(٢) انظر «البداية والنهاية» ١/ ٥١، وانظر في هذا الباب ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٥٦٦)، ومسلم (٢١١٣)، وأبو داود (٢٥٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الاستحياء منهم، كما ينبغي الاستتار منهم بجدار أو بثوب ونحوه إن أراد الاغتسال، ولا بأس والحالة هذه من أن يتعرَّى لكن يكون ذلك من وراء ساتر وليس في الفضاء دون ستر.

وأمّا ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من أنهم: «لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة... الخ»؛ وذلك لأنهم يكرهون هذه الأشياء، فيبتعدون عن البيت الذي فيه كلب أو صورة، وقد ابتُلي الناس الآن باقتناء الكلاب؛ لأنهم رأوا الكفّار يقتنون الكلاب فتشبَّهوا بهم حتى أدخلوها في السيارات معهم، وهذه الكلاب إذا كانت في البيت فإنها تمنع دخول الملائكة، وكما ابتُلوا بتعليق الصور في بيوتهم، وهي كذلك تمنع دخول ملائكة الرّحمة عليهم.

[تعاقب الملائكة في البشر ليلاً ونهاراً]

٧١- وروى مالك والبخاري ومسلم[1] عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل، وملائكةٌ بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يَعرج إليه الذين باتوا فيكم فيَسألُهم وهو أعلمُ: كيف تَركتُم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصلُّون».

٧٢- وفي روايةٍ[2] أنَّ أبا هريرة قال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

[٨٧]

[٨٧] ما زال الشيخ رحمه الله يسوق الأحاديث الواردة في أعمال الملائكة عليهم الصلاة والسَّلام، فمِن أعمال الملائكة حفظ أعمال بني آدم؛ لأن الله يرسلهم إلى البشر في الأرض يكتبون ما يصدر من بني آدم من خيرٍ أو شرّ، من أعمال صالحة أو أعمال سيِّئة، أو أقوال، فهم يرصدون ويكتبون كل ما يصدر من أقوالٍ وأفعال؛ قال تعالى:

(١) مالك في «الموطأ» ١/ ١٧٠، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٢) أخرجها البخاري (٤٧٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وهؤلاء يقال لهم: الحفظة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام: ٦١]، فالإنسان ليس مهملاً، وإنما هو تحت مراقبة دائمة من الله وملائكته، وأن أعماله وأقواله لا تضيع ولا تذهب سُدًى؛ قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، فالإنسان ليس بمُهمَل وإن أهمل نفسَه، ولهذا فإنه ينبغي له أن يستحضر هذا ويستحضر كلَّ ما يصدر عنه ويُدرك بأنه سيُسجَّل وسيُحاسب عليه، فحينئذٍ سيكون له تخوُّف وتوقُّف عن كثير من الأقوال والأفعال.

وهذا الصنف من الملائكة الذين جاء ذكرهم في الحديث ينزلون من السَّماء إلى الأرض حيث يسكن بنو آدم، وهم على قسمين: حفظة في النهار، وحفظة في الليل، فحفظة النهار ينزلون في صلاة الفجر ويبقون مع الإنسان إلى وقت صلاة العصر، ثم ينزل ملائكة الليل ويحضرون صلاة العصر ويستمرون إلى صلاة الفجر، فهذا معنى قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»

حيث لا تمضي فترة من الوقت تخلو من هؤلاء الحفظة، فتجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار في صلاة الفجر ويحضرونها؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ يعني: صلاة الفجر، فقوله تعالى: ﴿مَشْهُودًا﴾ أي: محضوراً تحضره الملائكة. وقد سمّى الله صلاة الفجر قرآناً؛ لأنها تُطوّل فيها القراءة، فمن هنا يُستحب للإمام أن يُطيل القراءة في صلاة الفجر إطالةً لا تَشُقُّ على المأمومين؛ لأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، وكذلك في صلاة العصر تجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار، هؤلاء يصعدون وهؤلاء ينزلون ويحضرون صلاة العصر؛ ولهذا صار لصلاتَي الفجر والعصر ميزةٌ على غيرهما من الصلوات.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني: صلِّ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. المراد هو ذكر فضيلة هذين الصلاتين: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقوله ﷺ: «ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم» هذا فيه دليل على

إثبات العلوّ لله تعالى، فيصعد الملائكة الذين انتهت مهمَّتهم إلى الله تعالى.

وقوله: «فيسألهم وهو أعلم» أي: يسألهم سبحانه وتعالى سؤال تقرير وشهادة، وإلاّ فهو سبحانه وتعالى يعلم حالهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم «كيف تركتم عبادي؟» يسأل سبحانه الذين صعدوا إليه: «كيف تركتم عبادي» فهذا سؤال تقرير واستشهاد للملائكة على أعمال بني آدم.

وقوله: «فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون» صلاة العصر «وأتيناهم وهم يصلون» صلاة الفجر، أو العكس «وأتيناهم وهم يصلون» أي: صلاة العصر «وتركناهم وهم يصلون» أي: صلاة الفجر، فهذه شهادة من الملائكة للمسلمين عند الله سبحانه وتعالى وهم في حال طاعةٍ لتكون شهادتهم لهم بأحسن الشهادة، هؤلاء هم الملائكة الحَفَظَة وهذا عملُهم، وهذه أوقات نزولهم وصعودهم.

[تجوُّل الملائكة على حِلَق الذِّكر والعلم]

٧٣- وروى الإمام أحمد ومسلم[1] حديث «ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله ويتَدارسونَه بينهم، إلاَّ نزلت عليهمُ السَّكينةُ، وغَشيتهم الرَّحمةُ، وحَفَّتهم الملائكةُ، وذَكَرهم الله فيمَن عنده، ومَنْ بَطَّأ بهِ عملُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه». [٨٨]

---

[٨٨] وهذا الحديث أيضاً في بيان صنفٍ من الملائكة، وهم الملائكة الذين يتجوَّلون يطلبون حِلَق الذِّكر، فمن الملائكة مَنْ مُهِمَّتُهم حضور دروس العلم وحِلَق الذِّكر، فهذا فيه فضل طلبِ العلم والحثُّ عليه؛ لأنَّ الملائكة تعتني بهذا وتبحث عنه وتأتي إليه.

فقوله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله» يعني: من المساجد، وهذا فيه أنَّ تعليم العلم ينبغي أن يكون في المساجد؛ لأنه تحضره الملائكة، وكذا يحضره طلاب العلم والعوامّ فيستفيدون من هذه الدروس، فهو بيت السَّكينة والرحمة وهو مأوى الملائكة، بخلاف ما إذا ما أُقيم الدرس في غير المسجد، فإنه تَقِلُّ أهميته ويفقد هذه الصِّفة، ويصبح مقصوراً على الحاضرين من الطلاب فقط، فينبغي

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٧٤٢٤)، ومسلم (٢٦٩٩).

أن يُعلن العلم ولا يُخزَن، ومحلُّ إعلانه يكون في المساجد، ولا يكون في المخيمات أو في محلات يجتمع فيها الطلاب والمشايخ ولا يحضره غيرهم، فمثل هذا تَقِلُّ أهميته وفائدته ويفقد هذه الميزة العظيمة وهي حضور الملائكة.

وقوله ﷺ: «يتلون كتاب الله» أي: القرآن الكريم، ويدخل فيه السُّنة؛ لأن السُّنة من كتاب الله عزَّ وجلَّ، فيقرؤون كتاب الله ويتفقهون فيه ويتدارسونه فيما بينهم فيُعلِّم بعضهم بعضاً، فهذا فيه فضل حِلَق وتحفيظ القرآن في المساجد، وهذه ظاهرة عظيمة عند المسلمين، و«يتدارسونه» فإن مِن تدارس القرآن تدارس معانيه وقراءة التفسير، فيقرؤون القرآن ويتأمَّلون معانيه ويتدبَّرونه؛ لأنه ليس المقصود قراءة القرآن أو حفظه فقط مع أهمية ذلك، لكن هذا لا يكفي، إذ لا بدَّ من تدارس معانيه وفَهْم ما أراده الله جلَّ وعلا به والاهتداء بهَدْيه، وأمّا مجرَّد الحفظ له دون تدبُّر معانيه وفهمها فهو عمل ناقص.

وقوله: «إلّا نزلت عليهم السَّكينة» والسَّكينة شيء يجعله الله في القلوب، وهي الطمأنينة وذهاب الوسواس والانشغال القلبي،

وهذا خاصٌ بالمساجد، فالطمأنينة إنما تكون في المساجد التي هي بيوت الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: «وغشيتهم الرحمة» أي: غطَّتهم رحمةٌ من الله سبحانه وتعالى، وهذه فائدة ثانية من فوائد الاجتماع في بيوت الله عزَّ وجل لأجل طلب العلم الشرعي.

وقوله: «وحفَّتهم الملائكة» وهذا هو محلُّ الشاهد؛ حيث إن الملائكة تحيط بهؤلاء المجتمعين في بيوت الله جلَّ وعلا، وتتحلَّق معهم، فما أعظم أن تُحيط ملائكة الرحمن وتجلس في حِلَق الذِّكر بعدما ينزلون من السماء ويبحثون في الأرض، فإذا وجدوا حِلَق الذِّكر قالوا: هلمُّوا إلى بُغيتكم، فيجيؤون فيَحفُّون بهم إلى السماء الدُّنيا كما جاء في الحديث[1]، وأمَّا أولئك الذين يلهون ويلعبون ويُغنُّون، فهؤلاء تحضُرهم الشياطين وتُشجِّعهم على هذا الشيء، وأمَّا الذين يُقبلون على كتاب الله تعالى وعلى سُنة رسوله ﷺ بالحفظ والدِّراسة والتفقُّه فهؤلاء تحضُرهم ملائكةُ الرَّحمن.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٤٢٤)، والبخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقوله ﷺ: «وذكرهم الله فيمَن عنده» هذه أعظم فائدة ذُكرت في هذا الحديث، حيث إنه سبحانه وتعالى يُثني عليهم في الملأ الأعلى عند الملائكة، فهذه فضائل اجتمعت في حِلَق الذِّكر وهي:

أولاً: نزول السكينة.

ثانياً: غشيان الرحمة.

ثالثاً: حضور الملائكة.

رابعاً: وهي أعظم الفوائد، حيث إنه سبحانه يذكرهم في الملأ الأعلى، فقوله: «ذكرهم الله» أي: أثنى عليهم ومَدَحهم «فيمن عنده» يعني من الملائكة المقرَّبين عنده سبحانه وتعالى، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً لمجالس الذِّكر والعلم.

ثم قال ﷺ: «ومَنْ بطَّأ به عملُه لم يُسرع به نَسَبُه» فالله جلّ وعلا لا ينظر إلى الأنساب، وإنما ينظر إلى العمل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فالأنساب إنما هي من شأن الدُّنيا بين الناس؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا مانع من تعلُّم الأنساب ومعرفتها، ولكن دون الافتخار بها والاقتصار عليها، فهي

لا تكفي عند الله تعالى ولا وزن لها يوم القيامة، وإنما المقصود منها في الدُّنيا التعارفُ والتواصل بين الأقارب والأرحام والتعاون على البرِّ والتقوى، ولكن لا ينفع عند الباريء عزَّ وجل إلا العمل.

فقوله: «مَن بطَّأ به عملُه» يعني: تأخر عملُه «لم يسرع به نسبُه» فانظر إلى أبي لهب وهو عمُّ رسول الله ﷺ ومِنْ صميم بني هاشم ولكن لمَّا لم يكن عنده عمل صالح لم ينفعه ذلك، وأنزل الله فيه قرآناً يُتلى في ذمه إلى يوم القيامة فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١] أي: خاب وخسر، وهو عمُّ الرسول ﷺ، وله نسب شريف رفيع ولكنه لم ينفعه، ولا ضرَّ بلالاً وسلمانَ أنهم ليسوا قَبَليِّين وليسوا من العرب وأنهم أعاجم، فالأول من الحبشة والآخر من بلاد فارس، لكن الله جلَّ وعلا رفعهم بالعمل الصالح، ولا ضرَّهم أنهم ليس لهم نسب عربي وشريف؛ ولهذا قال ﷺ: «مَنْ بطَّأ به عملُه لم يُسرع به» أي: لم يقدِّمه «نَسَبُه».

[توقير الملائكة لطالب العلم]

٧٤- وفي «المسند» و«السُّنن» حديث: «إنَّ الملائكة لَتضعُ أجنحتَها لطالبِ العلم رضاً بما يَصنعُ»[1]، والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جداً. [٨٩]

[٨٩] وهذا كالحديث الذي قبله، فيه أنَّ الملائكة توقِّر وتحترم طالبَ العلم، ولهذا قال ﷺ: «لَتضعُ أجنحتها» احتراماً لطالب العلم، وهذا يدلُّ على شرف طلب العلم الشرعي، فينبغي للناس احترام طالب العلم كما تحترمه ملائكة الرَّحمن وتتواضع له، ولكن كثيراً من الناس ـ مع الأسف ـ يتنقَّصون طلبة العلم والعلماء، ويحُطُّون من قَدْرهم ويصفونهم بالتغفيل وعدم فقه الواقع وأنه ليس لهم هَمٌّ إلا دراسة الحيض والنِّفاس، فيسخرون منهم ومن الأحكام الشرعية، وهذا دَيْدَنُ بعض الناس مع طلبة العلم والعلماء وهو الاحتقارُ والازدراء من العلماء، بل يتجاوز إلى احتقار أحكام العلم فيسمُّونها الحيض والنِّفاس ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، فمثل هذا ونحوه إنما هو ردَّة عن دين الإسلام، فكل مَن يحتقر العلم

(١) أحمد (١٨٠٨٩) من حديث صفوان بن عسّال، وأخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

الذي أنزله الله إنما هو مرتدٌّ عن دين الله، فالأمر جَدٌّ خطير، فليس الأمر مجرّد كلام وانتهى، وإنما هذا الكلام ونحوه يرجع على قائله بالخسارة ولا يَضرُّ طلبة العلم والعلماء بل يزيدهم رفعة عند الله سبحانه وتعالى.

والقصد من هذا أنه ينبغي احترام طالب العلم؛ لأنَّ الملائكة تحترمه فتضع أجنحتها له، وهذا فيه وصف الملائكة بأنَّ لهم أجنحة، وهذا قد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١] لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، فلقد أعطاهم الله القدرة على الطيران والنزول والصعود.

وأما قول المؤلف رحمه الله: «والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جداً» فقد أفاض رحمه الله في إيراد الأحاديث الواردة في ذكر الملائكة؛ لأن الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان السِّتة، فيجب معرفة هؤلاء الملائكة، والإيمان بهم إيماناً مفصَّلاً، ولا يكفي الإيمان بهم إيماناً مجملاً، ولذلك أفاض الشيخ رحمه الله في إيراد الأحاديث المتضمنة لصفة الملائكة وأعمالهم وأصنافهم من أجل

اعتقاد ما جاء في الأحاديث التي اشتملت على كل هذه التفاصيل.

وهذا بخلاف قول الفلاسفة القائلين بأنَّ الملائكة عبارة عن الهواجس الكامنة في النفس البشرية، فإن كانت هذه الهواجس تعبِّر عن الخير فهي الملائكة، وإن كانت هواجس شرٍّ فهي الشياطين، فليس في فكرهم أنَّ الملائكة والشياطين مخلوقون، لأنهم لا يؤمنون بالغيب وإنما يفسِّرون الملائكة بقوى الخير الكامنة في الإنسان، والشياطين بقوى الشرِّ، هذا مذهب الفلاسفة ورأيهم في الملائكة.

وأمّا مشركو العرب فإنهم يقولون بأنَّ الملائكة إنما هم بنات الله! وأنه ـ سبحانه ـ تزوَّج من الجنِّ ـ تعالى الله عمّا يقولون ـ فولدت له البنات وهم الملائكة؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، يعني: لهم الذُّكور،

وقال: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٣ -١٥٧] فهم يصفون الملائكة بأنهم بنات، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٧ -٥٩]، فهؤلاء يكرهون البنات، فمنهم مَنْ يُبقيها على ذلَّة واحتقار ويظلمها، ومنهم مَنْ يدفنها حيَّة، وهي الموؤدة ولهذا قال تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يعني: يبقيها حيَّة مهانةً ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩] يعني: يدفنها وهي حيَّة ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٠- ٦٢]، فهؤلاء لا يرضون البنات لأنفسهم ويترفَّعون عنها وينسبونها لله عزَّ وجل، وهذا تَنقُّص له عزَّ وجلَّ، والشاهد من هذا كله هو قول بعض مشركي العرب في الملائكة. بأنَّهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً!

وهناك صنف آخر من مشركي العرب يعبدون الملائكة ويدعونهم من دون الله عزَّ وجلَّ ويَغْلُون فيهم؛ قال تعالى في وصف هؤلاء وعاقبة أمرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] فعبادتهم ليست عبادة للملائكة وإنما هي عبادة للشياطين، لأن الشياطين هم الذين أمروهم بذلك، أمروهم أن يعبدوا الملائكة، والملائكة تتبرأ منهم، وإنما يعبدون الشياطين ولهذا قال تعالى على لسانهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

بابُ الوصية بكتاب الله عز وجل

وقول الله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]. [٩٠]

---

[٩٠] في هذا الحثُّ على التمسُّك بكتاب الله جلَّ وعلا. يقال: أوصى بكذا؛ أي: أمر وأكَّد بالشيء، والله تعالى أوصى بالتمسُّك بكتابه، والنبيُّ ﷺ أوصى كذلك بالتمسُّك بكتاب الله تعالى؛ لأنه لا نجاة من الضَّلال في الدُّنيا ومن النار في الآخرة إلاّ بالتمسُّك بكتاب الله جلَّ وعلا واتِّباع الرَّسول ﷺ، فمَن لم يتمسَّك بهما فإنه يكون ضالاً في الدُّنيا على غير هدًى ويكون في الآخرة من الخاسرين ومن أهل النار، فلا نجاة إلّا بالتمسُّك بكتاب الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣] هذه وصيَّة الله تعالى بالقرآن والسُّنة.

والآية التي ذكرها الشيخ رحمه الله جاءت في سياق أول سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿ المص ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١-٣]

فقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ هذا أمرٌ من الله جلَّ وعلا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهما القرآن والسُّنة؛ لأن السُّنة منزَّلة من الله تعالى؛ ولهذا قال سبحانه بحقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ – ٤]، ثم لـمَّا أمر باتِّباع المنزَّل نهى عن اتِّباع غيره فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: لا تتَّبعوا غيرَه من الأكابر والرُّؤساء والرِّجال الذين تزعمون أنهم علماؤكم وأولياؤكم، فتطيعونهم وترفضون ما جاء به الرسول ﷺ؛ وهذا من اتِّخاذ الأولياء، فمَن أطاع مخلوقاً في معصية الله فقد اتَّخذه وليّاً من دون الله، فلا يُطاع العلماء ولا أحدٌ من الناس إلاّ إذا أطاع الله سبحانه وتعالى ووافق كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، أمّا مَنْ خالف فإنه لا يُعتبر، سواء كانت مخالفته عن تعمُّد وعناد أو كانت عن اجتهاد وأخطأ فيه، فلا يجوز تقليد النّاس تقليداً أعمى من غير بصيرة، وأنها يجوز تقليد مَنْ تمسَّك بالكتاب والسُّنة وأصاب الحقَّ، وأمَّا مَنْ خالف فإنه لا يُعتبر حتى ولو كان مجتهداً وأخطأ في اجتهاده، وهذه قاعدة ينبغي أن يعرفها طالب العلم، إذ إن هناك مَنْ يتعصَّبون لمذاهبهم ومشائخهم ولرؤسائهم وقادتهم دون

رجوع إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ، والحقُّ في ذلك هو أن تُوزَن كلُّ الأمور بميزان الكتاب والسُّنة، فما وافقها وجب الأخذُ به، وما خالفها وجب رفضُه وعدمُ الالتفاتِ إليه، ولا يُعتبر هذا إهانةً للعالم إذا ما تُجنِّب خطؤه، بل إنَّ العلماء أنفسَهم يقولون: إذا وافق قولُنا قولَ الرسول ﷺ فخُذوه، وإذا خالفه فاضربوا بقولنا عُرْض الحائط، كذا قال الإمام الشافعي ومثله الإمام مالك وأحمد ومن قبلهم الإمام أبي حنيفة رحمهم الله جميعاً، فكلُّهم حذَّرونا مِنْ أخذِ أقوالهم كقضيَّة مسلَّمة، بل ينبغي أن تُعرض أقوالُهم على كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فإذا وافقت فبها ونعْمَت وإنْ خالفتْ فإنَّنا نترحَّم عليهم ونعتذر لهم ولكن لا نأخذ خطأهم، ولا يُعتبر هذا تنقُّصاً لهم ـ حاشا وكلا ـ.

[الحثُّ على التمسُّك بالكتاب والسنة]

٧٥- عن زيد بنِ أرقم ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ خطبَ فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أمّا بعدُ، ألا أيُّها الناسُ، فإنَّما أنا بَشَرٌ، يُوشِكُ أنْ يأتيَني رسولُ ربِّي فأُجيبَ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَين، أوَّلُهما كتابُ الله فيه الهُدى والنُّورُ، فخُذوا كتابَ الله وتمسَّكوا به» فحَثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهلُ بيتي» وفي لفظٍ: «كتاب الله هو حَبْلُ الله المَتينُ؛ مَنِ اتَّبعَه كان على الهُدى، ومَنْ تركَه كان على الضَّلالة» رواه مسلم(١). [٩١]

---

[٩١] هذا الحديث الذي رواه مسلم فيه أنَّ النبيَّ ﷺ خطب أصحابه في موضع يُقال له: غدير خُمّ، والغدير: هو مجتمع السَّيل من الوادي. وخُم، قيل: اسم رجل نُسب إليه الغدير. وقيل: اسم غَيضة ملتفَّة بالأشجار نُسب إليها الغدير، وهو قريب من الجُحفة. فلمّا رجع النبيُّ ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم من حجَّة الوداع ونزلوا على غدير خُمّ خطبهم ﷺ هذه الخطبة، فحمد الله وأثنى عليه.

---

(١) برقم (٢٤٠٨) (٣٦) و(٣٧).

فقوله: «فحمد الله وأثنى عليه» فيه أنَّ الخطبة تُبدأ بحمد الله تعالى والثناء عليه، سواء كانت خطبة جمعة أو عيد أو استسقاء أو تعليم، فكل الخطب تُستفتح بحمد الله والثناء عليه كما كان النبيُّ ﷺ يفعل، ويدخل في هذا خطبة الدروس والمناسبات الأخرى.

وقوله ﷺ: «أمّا بعد» هذه الجملة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، فهي كلمة فَصْل بين كلامين.

وقوله: «إنّي بَشَر» فهو عليه الصلاة والسلام من بني آدم، ليس مَلَكاً من الملائكة وليس له من الرُّبوبية شيء، ولهذا جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: مخلوق ممّا يُخلق منه بنو آدم من أبٍ وأمّ، وهذا بخلاف قول أهل الضّلال والانحراف الذين يقولون: إن الرسول ﷺ مخلوق من نور، وبعضهم يقول: إنه خُلق عليه الصَّلاة والسلام قَبل آدم عليه السَّلام! وهذا ونحوه من الأقوال المنحرفة إنما هو من الغُلوّ المذموم، إذ كيف خُلق ﷺ قبل آدم عليه السلام وهو من بني آدم؟! فالرَّسول ﷺ بَشَر وإنسان من بني آدم؛ فقوله ﷺ: «فإنَّما أنا بشر» فيه إبطال الغُلوّ في حقِّه ﷺ، أو أن يقال: إنه مخلوق من نور أو

قبل آدم، وقد دلَّ هذا الحديث على أنه ﷺ مخلوقٌ ممّا خُلق منه بنو آدم والأنبياء قبله عليهم الصلاة والسَّلام.

وفيه أنه ﷺ لا يُدعى مِنْ دون الله ولا يُستغاث به، لأنه بَشَر، وإنما الذي يُدعى ويُستغاث به هو الله جلَّ وعلا.

وقوله ﷺ: «يُوشِكُ أن يأتيَني رسولُ ربِّي» أي: مَلَكُ الموتِ «فأُجيبَ» وقد جاءه رسولُ ربِّه ومات عليه الصَّلاة والسَّلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فالرسول ﷺ بَشَر ومات كما يموت البشر، وفي هذا ردٌّ على الغُلاة الذين يقولون: إن الرسول ﷺ لم يمت وإنه حيٌّ! فإنه لو كان حيّاً لَمَا دُفن في التراب، ولو كان حيّاً ﷺ لذهب إليه أصحابه رضي الله عنهم عند اختلافهم ليفصل بينهم! لكن أهل الباطن لا ينظرون إلى ما تقتضيه العقولُ فضلاً عمّا تقتضيه أدلَّة الشَّرع، فهم يركبون رؤوسهم وأهواءهم، فالرَّسول عليه الصلاة والسلام بَشَر وهو ميِّت، وقد بلَّغ الرِّسالة وأدَّى الأمانة، وأكمل اللهُ به الدِّينَ، ثم بعد ذلك توفَّاه الله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا

لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومن شفقته ﷺ بأُمته أنه أوصاهم بعد موته ولم يتركهم، وإنما أوصاهم بما يقودهم إلى الجنَّة، وهذا من نصحه عليه الصَّلاة والسَّلام حيّاً وميّتاً.

وقوله ﷺ: «وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَين» ثَقَلين مثنى: ثَقَل، والمراد: القرآن الكريم والسُّنة النبوية، وسمِّي القرآن ثقلاً وكذا السُّنة لأنه يثقُل العمل بها على أهل الكسل والخمول، وقيل: سُمّيا ثَقَلين لعِظَمهما وكبير شأنهما.

وقوله: «وأوَّلها كتابُ الله فيه الهدى والنُّور» وتدخل فيه السُّنة فهي من كتاب الله عزَّ وجلَّ وهي الوحي الثاني، فالوصية بكتاب الله وصيةٌ بالسُّنة أيضاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فالسُّنة من عند الله عزَّ وجلَّ، وهي وحيٌ أوحاه الله إلى رسوله ﷺ، وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على كتاب الله ورغَّب في العمل به؛ لأنه هو طريق الهداية وهو النور المبين وهو الرُّوح، وهو الحقُّ والصِّراط المستقيم.

وقوله ﷺ: «وأهلُ بيتي» فقد أوصى عليه الصَّلاة والسلام بأهل

بيته، وأهل بيته ﷺ: هم قرابته وزوجاته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفي خطاب أزواج النبيِّ ﷺ قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: الْبَثْنَ في بيوتكنَّ ولا تُكثِرْنَ الخروجَ، فهذا فيه أنَّ الأفضل للمرأة أن تبقى في بيتها ولا تخرج إلاَّ لما لا بدَّ لها منه؛ لأنَّ الله أمر نساء الرَّسول ﷺ وهنَّ أطهر نساءِ العالمين بالبقاء في البيوت؛ ودُعاةُ السُّفور والانحلال يقولون: إن المرأة محجوبة ومسجونة بين الجدران، لا يدرون أن هذا كرامة وحفظٌ لها؛ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فدلَّ على أنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ من أهل البيت، وكذلك قرابتُه ـ وهم بنو عمِّه من المؤمنين، بني العباس وبني أبي طالب: عليّ وجعفر وعقيل وأبناؤهم والحسن والحسين ابني عليّ ـ هؤلاء هم أهل بيت الرَّسول ﷺ، فكلُّ مَنْ تَحرُم عليه

الصَّدقة هم أهل بيت الرسول ﷺ، أوصى بهم عليه الصَّلاة والسَّلام بالإحسان إليهم ومحبَّتهم ومعرفة قَدْرِهم وعدمِ تنقُّصهم، لأن الإحسان إليهم وتوقيرهم توقيرٌ للرَّسول ﷺ، والنَّقص من قَدْرهم إنها هو تنقُّص للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وإيذاؤهم إيذاءٌ له ﷺ؛ قال ﷺ: «يا أيُّها الناس، مَنْ آذى العبّاسَ فقد آذاني، إنَّما عَمُّ الرَّجلِ صِنْوُ أبيهِ»[(١)] فلا شكَّ أنَّ آل البيت الطيبين الصالحين لهم فضلٌ وشرف وكرامة من أجل رسولِ الله ﷺ.

وفي هذا ردٌّ على طائفتين:

الأولى: طائفة الرَّوافض الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت حتى اعتقدوا أنَّ خلافة أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - باطلة، وأنَّ عليّاً هو أَوْلى بالخلافة بعد النبيِّ ﷺ، ولهذا فهم يُسمُّون عليّاً بالوَصِيِّ؛ أي: وصيّ النبي ﷺ، وهذا غُلوٌّ في أهل البيت وإهدار لفضل أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وإبطال لخلافتهم، وأنهم ظَلَمة مغتصبون للخلافة - بزعمهم - بل يقولون: هم كَفَرة

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥١٦)، والترمذي (٣٧٥٨) من حديث عبد المطلب ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ.

وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بهم رضي الله تعالى عنهم.
وقد زاد الأمر في حبِّهم لآل البيت بزعمهم أنهم عبدوهم من دون الله، فلم يقتصر الأمر على اعتقاد أنَّ الخلافة لهم بعد الرَّسول ﷺ وإنما زاد الأمر إلى أن عبدوهم مِنْ دون الله، وبَنَوا على قبورهم المشاهد وسمَّوها المقدَّسات وهم يحجُّون إليها الآن، هؤلاء هم الرافضة الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت وخرجوا عن الحقِّ إلى الكفر والشِّرك والضَّلال.

والثانية: هي طائفة النَّواصب الذين يُبغضون آل البيت ويتنقَّصُونهم ويحطُّون من قَدْرهم، فهم على طَرَفي نقيض مع الرَّوافض، فأولئك يَغلُون وهؤلاء يُفرِّطون في حقِّ أهل البيت ويتنقَّصون من قَدْرهم ويذمُّونهم.

وأمَّا أهل السُّنة والجماعة فهم توسَّطوا في أهل البيت، فعرفوا قَدْرهم وأحبُّوهم وأكرموهم واحترموهم وحفظوا فيهم وصيَّة رسول الله ﷺ خلافاً للنواصب لكنهم لم يَغلُوا فيهم مثل غُلُوِّ الرَّوافض، ولم يَجفوهم ويُفرِّطوا في حقِّهم كتفريط النَّواصب الذين ناصَبوا العَداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ، وقد أوصى بهم

....

الرسول ﷺ، لهذا يجب العمل بوصيته عليه الصلاة والسلام، فمن أهدر حقهم وتنقصهم فقد خالف وصيته عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «وفي لفظ: كتابُ الله هو حَبْل الله المتين، مَن اتَّبعه كان على الهدى، ومَنْ تركه كان على الضَّلالة» هذا تفسير لقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فقد فسَّر الحديث أنَّ المراد بـ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ هو القرآن، وأنَّ مَن اعتصم به فإنه يهتدي ويُفلح ويَسعد في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ يعني: القرآن ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ يعني: لم تعمل بها، وليس معنى النسيان أنه نَسِيَ حفظها، وإنما نَسِيَ العملَ بها ولو كان يقرؤها ويحفظها ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [طه: ١٢٦ -١٢٧]، فالإنسان لو عمل بالقرآن وإن لم يكن يحفظُهُ فهو من أهل القرآن ومن المتمسِّكين به، فليست المسألة مسألة حفظه وحسب، وإنما المسألة هي مَدَى التمسُّك بالقرآن والعمل

به، ولكن يقال: إنَّ حِفظَ القرآنِ إنما هو وسيلة إلى العمل به للوصول إلى الهُدى والابتعاد عن الضَّلالة؛ لأن فيه النَّجاة في الدُّنيا والآخرة كما بيَّن ذلك سبحانه وتعالى.

٧٦- وله(١) في حديث جابرٍ الطَّويلِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال في خُطبةِ يومِ عرفةَ: «وقد تَركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا إنِ اعتَصمتُم به، كتابَ الله، وأنتم تُسألُونَ عنّي، فما أنتم قائلونَ؟» قالوا: نَشهدُ أنَّك قد بلَّغت وأدَّيتَ ونَصحتَ ـ قال بإصبَعِه السَّبابةِ يَرفعُها ويَنكُتُها إلى النَّاسِ ـ: «اللَّهمَّ اشهَدْ» ثلاثَ مرَّاتٍ. [٩٢]

---

[٩٢] هذا الحديث جاء في سياق خطبته ﷺ يوم عرفة في حجَّة الوداع، وأنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فخطب ﷺ قبل صلاة الظُّهر في وادي عُرَنَةَ وكان من جملة ما أوصى به كتاب الله، فقال ﷺ: «وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا إن اعتصمتم به، كتاب الله» وهو القرآن والسُّنة التي هي من كتاب الله؛ لأنها وحيٌ منه سبحانه وتعالى، فمَن تمسَّك بما جاء به الرَّسول ﷺ من القرآن والسُّنة فإنه لن يَضِلَّ في الدُّنيا ولن يشقى في الآخرة؛ لأنه مشى على الطريق الصحيح، وهو الصِّراط المستقيم والحَبْل المتين،

---

(١) برقم (١٢١٨).

وحالُنا في هذه الدنيا في لُجَّةٍ وَغرقٍ مليء بالضَّلالات والأهواء والشَّهوات وليس لنا نجاة إلا من خلال هذا الحَبْل، فمَن تمسَّك به وعضَّ عليه بالنَّواجذ نَجا من هذه الأخطار والضَّلالات، ومَن أطلق هذا الحَبْل هلك وغرق في هذه اللُّجج والبحار.

ثم إنه ﷺ بعدما أوصى بكتاب الله في حجَّة الوداع التي ودَّعَ فيها الناس، توفِّي بعدها عليه الصَّلاة والسلام، فهذه الخطبة التي خطبها ﷺ هي آخر خطبة خطبها مع خطبة غَدير خُمٍّ، وقد تشابَهت الخطبتان، ففي كلا الخطبتين أوصى عليه الصلاة والسلام بالتمسُّك بكتاب الله جلَّ وعلا، والسِّرُّ في تكرار هذه الوصية ـ والله أعلم ـ أنه شعر ﷺ بقُرب أجله، فكرَّر الإيصاء بالتمسُّك بكتاب الله جلَّ وعلا، وهذا من شفقته عليه الصلاة والسلام بأُمَّته ونُصحه لها.

وقوله ﷺ: «وأنتم تُسألون عنِّي» هذا كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فالله جلَّ وعلا يسألُ الأُممَ يوم القيامة: هل بلَّغتكم رُسلكم؟ فأهلُ الإيمان يقولون: نعم بلَّغتنا، وأمّا أهلُ الكفر فيقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ

بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] فهم يجحدون، فقوله ﷺ: «وأنتم تُسألون عني» يعني: تسألون هل بلَّغتكم؟ ولهذا فقد أجابه الصحابة رضوان الله عليهم «نشهد أنك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ».

وفي قوله: «قال بأصبعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء» فيه إثبات عُلوِّ الله جلَّ وعلا، فَرَفْعُ أصبعِهِ عليه الصلاة والسلام إشارةٌ إلى ربِّه، ففي هذا إثبات واضح لعلوه جلَّ وعلا على خَلقِهِ، لأنه ﷺ أشار إليه في العُلوِّ، فهذا من أدلَّة عُلوِّ الله على خَلقِه.

وقوله: «يَنكُتُها إلى الناس» يعني: يُصوِّبها إلى الحاضرين؛ ثم قال: «اللهمَّ اشهَدْ» ثلاث مرات؛ يعني: أنِّي بلَّغتُهم وأنَّهم أقرُّوا بالبلاغ، فاستشهد الله عليهم، لئلا يقول أحد: إنَّ الرَّسول ﷺ لم يُبلِّغ.

[النهي عن ترك العمل بكتاب الله تعالى]

٧٧- وعن عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا إنّها ستكونُ فتنةٌ» قلت: ما المَخرجُ منها يا رسول الله؟ قال: «كتابُ الله، فيه نَبَأُ ما كان قَبلَكُم، وخبرُ ما بَعدكُم، وحُكم ما بَينَكُم، وهو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، ما تَرَكَه مِنْ جبّار قَصَمه الله، ومَنِ ابتَغى الهُدى مِنْ غيرِه أضلّهُ الله، وهو حَبْل الله المتينُ، وهو الذِّكر الحَكيمُ، وهو الصِّراط المستقيمُ، هو الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا تَلتَبِسُ فيه الألسنةُ، ولا تَشبعُ منه العلماءُ، ولا يَخْلَقُ عن كَثرة الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُه، هو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذ سَمِعَتْهُ حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ - ٢]، مَنْ قال به صَدقَ، ومَنْ عَمِلَ به أُجِرَ، ومَنْ حَكم به عَدَلَ، ومَنْ دَعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ» رواه الترمذي[١] وقال: غريب. [٩٣]

---

[٩٣] هذا الحديث من جملة الأحاديث التي ساقها المؤلِّف رحمه الله في الوصية بكتاب الله عزَّ وجلَّ؛ إذ سبقه أحاديث صحيحة في الوصية

---

(١) برقم (٢٩٠٦).

بكتاب الله عزَّ وجلَّ وذا من جملتها، وهذا قد رواه الترمذي وغيره[١]، ولكن الترمذي قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وهذا الحديث من أقسام الآحاد على اعتبار أن الحديث في الأصل ينقسم إلى قسمين: حديث متواتر، وآخر آحاد.

والحديث المتواتر: ما يرويه جماعة عن جماعة يتعذَّر تواطؤهم على الكذب من بداية السَّند إلى نهايته.

والحديث الآحاد: هو الذي لا يبلغ حدَّ التواتر، فلا يرويه جماعةٌ عن جماعة، وهو ثلاثة أقسام: المشهور، والعزيز، والغريب.

والمشهور: ما رواه ثلاثة فأكثر إلاّ أنه لم يبلغ حدَّ التواتر.

والعزيز: ما رواه اثنان.

والغريب: ما تفرَّد به واحد. وحديث الباب من هذا القسم، فقد تفرَّد به واحد، والحديث ضعيف كما أشار إلى ذلك الترمذي؛ لأنه من رواية الحارث الأعور عن عليّ بن أبي طالب ﷺ، والحارث الأعور متكلَّم فيه. ورَفْعُه إلى الرسول ﷺ خطأ، والصَّواب أن يكون

(١) أخرجه الدارمي (٣٣٣١)، والبزار (٨٣٦).

من كلام عليٍّ رضي الله عنه(١)، فيكون من الموقوف، ومعناه صحيح تؤيِّده الأدلَّة الأخرى.

قوله ﷺ: «ألاَ إنها ستكون فتنةٌ» هذا إخبار منه ﷺ عن وقوع الفتن، وقد بيَّن ذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة، ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»(٢)، وفي «مسلم» وغيره(٣): «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرَّجل مؤمناً ويُمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدُّنيا» فقوله ﷺ: «ألا إنها ستكون فتنةٌ» صحيح جاءت به الأحاديث الصحيحة.

والفِتَن: جمع فتنة: وهي الابتلاء والامتحان والاختبار ليظهر الصادقُ الإيمانِ المتمسِّك بدينه من المنافق، لأنه عند الفتن يتميَّز

---

(١) انظر «مسند» البزار ٣/ ٧١ عند الحديث نفسه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧١٤٢)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) مسلم (١١٨)، وأحمد في «المسند» (٨٠٣٠)، والترمذي (٢١٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويظهر الصادق من المنافق، كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]، أي: ليعلم الذين صدقوا في إيمانهم والكاذبين في دعوى الإيمان، فإن الكاذب والمنافق عند الفتن يتخلّى الواحد منهم عن دينه، وأمّا الصادق فإنه يتمسّك بدينه ويصبر على ما يُصيبه، وهذه علامة الصِّدق، بخلاف المنافق الذي ينسلخ من دينه لأجل أن يسلم في دُنياه، فيبيع آخرته بدُنياه.

وقوله: «ما المَخْرج منها» يعني: ما هو طريق السلامة من هذه الفتن؟

قوله: «كتاب الله» أي: القرآن، ويشمل هذا السُّنة النبوية الشريفة؛ لأنها مستمدة من كتاب الله عزَّ وجلَّ، وقد قال ﷺ: «عليكم بسُنّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين»(١) فكتاب الله يشمل القرآن والسُّنة.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٢)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وقوله: «فيه نبأ ما كان قبلكم» فإنَّ القرآن يحتوي أخبار الأمم الماضية، والنبأ: هو الخبر المهمّ، والمراد أنَّ القرآن فيه قصة الأنبياء والمرسلين، فهو يخبر عمّا جرى ووقع في الماضي كأنه مشاهد من أجل أن يكون الناس على بيِّنة، وأنَّ هذا الابتلاء والامتحان الناتج عن الفتن ليس جديداً، وإنما هو شيء جرى على الأمم السابقة، فمنهم من هلك، ومنهم مَنْ نَجى.

وقوله: «وخبر ما بعدَكُم» أي: القرآن، ويدخل في هذا السُّنة كذلك؛ إذ كلٌّ منهما يُخبر عن المستقبل، وما يُمكن أن يكون في آخر الزَّمان من الفتن، وما يمكن أن يكون بعد الموت من أحوال أهل القبور وما بعد ذلك من البعث والنشور، وما يكون من الأهوال في القيامة، كلُّ هذا تحدَّث عنه القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة حتى كأنه مشاهَد.

وقوله: «وحُكم ما بينكم» أي أنه في حال اختلافكم فإنَّ القرآن يحكم فيما فيه تختلفون، فيعطي صاحب الحقِّ حقَّه، ويُنصف المظلوم من الظالم، هذا في الخصومات، وأمّا في المقالات فإنه يبيِّن المقالة الصحيحة من المقالةِ الخاطئة لأنه إذا ما رُجع إلى القرآن فإنه

يفصل بين الناس في الخصومات والمقالات وفي كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فالقرآن يحكم بين الناس، ولهذا أنزله الله، فلم ينزله سبحانه للتلاوة والتَّغنِّي به وتجويده وتحسين الأصوات بقراءته فقط أو للتلذُّذ بسماعه، فما أنزله من أجل هذا فقط، بل أنزله ليكون حكماً بين الناس فيما يمكن أن يختلفوا فيه وليكون المرجع إليه.

وقوله: «وهو الفَصْل ليس بالهَزْل» وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣- ١٤]؛ والهَزْل ضد الفَصْل، فهو يفصل بين الحقِّ والباطل، والهَزْل: هو اللعب، والقرآن الكريم منزَّهٌ عن أن تكون هذه صفته.

وقوله: «مَنْ تَرَكه مِنْ جبّار قصَمه الله» أي: أعرَض عنه ولم يلتفت إليه، فإنَّ الله يقصِمُه، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦].

وقوله: «ومَنِ ابتغى الهُدَى من غيره أضلَّه الله» فمَن أراد الهدى من غير كتاب الله فلن يصل إلى طريق الهُدى والصواب، فمَن يرجع إلى المنطق والجدل وعلم الكلام ويستدل بهذه الأمور على أنها قواعد عقلية يقينية، وأنَّ كتاب الله دلالته ظنِّيَّة لأنه دليل سمعي وليس عقليًا، فمَن كانت هذه طريقته، وهي طريقة المبتدعة الذي يستدلون بالمنطق وعلم الجدل والكلام، فلن يصل إلى الهدى والصواب، كيف لا وهم يؤوِّلون كلام الله حتى يتَّفق مع منطقهم، وهذه هي طريقة أهل الضلال.

وأمّا أهل الحقِّ فإنهم لا يَعْدِلونَ عن القرآن؛ لأنه هو دليلهم، ولا يعبؤون بقواعد المنطق وعلم الكلام ولا يلتفتون إليها؛ لأنَّ الله أغناهم عنها، فأهل السُّنة والجماعة يستدلون بالقرآن في أبواب العقائد والمعاملات والأحكام وفي كل شيء، ولا يلتفتون إلى الجدل كأهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين يستدلون بقواعد المنطق، ويتركون أدلة القرآن بحُجَّة أنها ظنِّيَّة لا تفيد العلم اليقيني، وأمّا علم الجدل وقواعد المنطق فهي أدلة عقلية تفيد اليقين عندهم!

وقوله: «وهو حَبْل الله المتين» ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله: هو القرآن الذي أنزله الله لهداية الخَلْق، فمَن تمسَّك بهذا الحبل نَجا، ومَنْ تركَه هلك.

وقوله: «وهو الذِّكر الحكيم» هذا كما وصفه الله تعالى، فقد وصفه بالذِّكر، وبالقرآن، وبالفرقان، وغير ذلك من أسماء القرآن وأوصافه.

وقوله: «وهو الصِّراط المستقيم» وهذا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ والصِّراط: هو القرآن. فمَن سار على هُداه رَشَد، ومَن ابتعد عنه ضلَّ.

وقوله: «هو الذي لا تَزيغُ به الأهواء» فمَن كان هواه تابعاً للقرآن فإنه لا يَزيغ؛ بمعنى: لا يَضلُّ ولا يشقى، ومَن كان هواه مخالفاً له فإنه يزيغ ويضيع، ويضلُّ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦] يعني: عن القرآن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧] فهؤلاء الذين زاغت بهم الأهواء يحسبون أنهم على

الصواب مستمرُّون على ما هم عليه من الضلال، فلا يحصل عندهم شك فيما هم عليه، ولا يظنون إلاّ أنهم على الحقّ والصَّواب!

وقوله: «ولا تَلتبسُ به الألسنةُ» أي: لا تُخطيء به ولا تختلط، فهو كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، يقرؤه العربي بوضوح وسهولة، حتى إنَّ الأعجميَّ الذي لا يعرف اللغة العربية إذا تلى القرآن فإنه يقرؤه كما هو، لا يغيِّر منه حرفاً، وهو لا يعرف كلمة واحدة من كلمات اللغة العربية، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقوله: «ولا تَشبع منه العلماء» في التفقُّه في معانيه وتدبُّره، فلا أحد يُحيط بما في القرآن من الأسرار والأحكام والحِكَم مهما تأمَّل وتدبَّر، فكلُّ عالم يأخذ منه بقَدْر ما يستطيع، فلا أحد استطاع أن يحيط بكل ما في القرآن الكريم من المعاني والأسرار التي فيه، لأنه بحر، ولكن كلٌّ يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفَهْم، ويبقى الكثير والكثير في هذا البحر الزاخر، المليء بالمعاني والأسرار المتنزِّلة من لَدُن حكيم عليم.

وقوله: «ولا يَخلَقُ عن كثرة الرَّدِّ» لأنَّ من إعجاز القرآن الكريم

وعجائبه أنه لو كرَّر قارؤه قراءته فإنه لا يسأم من قراءته، ولو سمعه السامع عدَّة مرّات لَمَا سئم من سماعه، بخلاف الكلام الآخر الذي مصدره البشر فإنه لو كرّر لَمَلّ منه القارىء والسامع على السَّواء، بخلاف كلام الخالق الذي كلَّما كُرِّر زادت الرَّغبةُ فيه، والتلذُّذ بقراءته وسماعه، فإذا سمعه السامع أو قرأه القارىء فإنه يشعر وكأنه يقرؤه أو يسمعه لأوّل مرة، وهذا من إعجاز كتاب الله جلَّ وعلا الذي أحكمَ نَظْمَهُ وأتقنَ بيانَه.

وقوله: «ولا تنقضي عجائبه» وهذا شبيهٌ بقوله: «ولا تَشبع منه العلماءُ» فعجائبه كثيرة من جوانبَ عديدة، فمنها ما يتعلّق بالقصص، وفي الأخبار المستقبَلة، ومنها ما يتعلّق في الفقه الذي فيه، ومنها ما يتعلق بتراكيبه وألفاظه وأساليبه وبلاغته وفصاحته، فكلّما استعرض القارىء قراءته تبدَّت له عجائبُهُ في جمال لغته، وفي سَرْد قَصصه، وفي أساليب أوامره ونواهيه، وفي عَرْض أخباره وغير ذلك كثير ممّا هو كامنٌ بين دفَّتيه.

وقوله: «وهو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذْ سَمِعتْهُ حتى قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي

﴿إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢] وفي هذا قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢]؛ والجنُّ خلقٌ من خلق الله من عالم الغيب مكلَّفون ومأمورون ومنهيُّون مثل الإنسان، والنبيُّ ﷺ بُعث إلى الجنِّ والإنس، وقد وَفَدَ على النبيِّ ﷺ وَفدٌ من الجنِّ وطلبوا منه موعداً فأعطاهم الموعد فكلَّموه ﷺ وكلَّمهم، وقد أثنت الجنُّ على هذا القرآن وتعجَّبت منه، ودَعت قومها إلى الإيمان به، وهذا من عجائب هذا القرآن.

وقوله: «مَنْ قال به صَدقَ» أي: بالقرآن فقد صَدقَ؛ لأن القرآن الكريم معصوم من الخطأ، فمَن اتَّبعه وقال بما يدلُّ عليه فإنه

يصدق في قوله واجتهاده وحُكمه.

وقوله: «ومَنْ عَمل به أُجِرَ» أي: مَنِ امتثل بما جاء به القرآن الكريم من الطاعات والأعمال الصالحة فإنَّ الله يُثيبه ويكتب له الأجر العظيم.

وقوله: «ومَنْ حَكم به عَدل» أي: مَنْ جعله مرجعاً للحكم في الخصومات بين الناس والمنازعات فإنه يَعدل، فيُعطي صاحبَ الحقِّ حقَّه، ويَمنع الظالمَ عن ظُلمه، وهذا هو العَدْل، وهذا إنما يكون في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقاً في أخباره، وعدلاً في أحكامه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: «ومَنْ دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم» فمَن دعا إلى كتاب الله فإنه يدعو إلى هدًى، وأمّا مَن دعا إلى غيره فإنه يدعو إلى ضلال، وماذا بعد الحقِّ إلاّ الضَّلال!

هذه هي أوصاف القرآن الكريم، وهي أوصاف صحيحة، وإن كان الحديث لم يثبت عن النبيِّ ﷺ، لكن معانيه صحيحة مؤيَّدة

بالأدلَّة الثابتة عنه ﷺ، وموافقة لما عليه الواقع قديماً وحديثاً وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

٧٨- وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه مرفوعاً: «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرامٌ، وما سَكتَ عنه فهو عافيةٌ، فاقبلَوا مِنَ الله عافيتَه، فإنَّ الله لن يكن لِيَنسى شيئاً» ثم تلا: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤] رواه البزار وابن أبي حاتم والطبراني[١]. [٩٤]

[٩٤] وهذا كما في الحديث الصحيح «إنَّ الحلالَ بيّنٌ، وإنَّ الحرامَ بيّنٌ وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يَعلمهنَّ كثيرٌ من الناس»[٢]، وهذا الحديث كذلك، فيه: أنَّ ما أحلَّه الله فهو الحلال، وما حرَّمه فهو الحرام، وما سكت عنه فهو عَفوٌ؛ لأنَّ الله لم يسكت عنه نسياناً، وإنما سكت عنه لأنه عفا عنه رحمةً بعباده، فالواجب من الإنسان أن يَقبل من الله عافيتَه ويُحِلّ الحلالَ ويُحرِّم الحرامَ، وما سَكت عنه فهو معفوٌّ عنه، فلا يسأل عنه، لأنَّ الحلالَ بيّنٌ والحرامَ بيّنٌ، وفي الرُّجوع إلى كتاب الله وسُنة رسوله يتبيَّن منها الحلال والحرام.

(١) البزار كما في «كشف الأستار» (١٢٣) و(٢٢٣١)، والطبراني في «مسند الشاميين» ٣/ ٢٠٩ (٢١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

[بيان أن الصِّراط هو الإسلام]

٧٩- وعن ابن مسعود ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ضَربَ اللهُ مَثَلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنْبَتَي الصِّراط سُوران، فيهما أبوابٌ مفتَّحةٌ، وعلى الأبواب سُتورٌ مُرْخاةٌ، وعند رأسِ الصِّراط داعٍ يقول: استَقيموا على الصِّراط ولا تَعوَجُّوا، وفوق ذلك داعٍ يَدعو كلَّما هَمَّ عبدٌ أنْ يَفتحَ شيئاً مِنْ تلك الأبواب قال: وَيحك لا تَفتحْهُ، فإنك إنْ فتحتَه تَلِجْهُ». ثمَّ فسَّره فأخبر أنَّ الصِّراط هو الإسلامُ، وأنَّ الأبوابَ المُفتَّحة محارمُ الله، وأنَّ السُّتورَ المُرخاةَ حدودُ الله، وأنَّ الدَّاعيَ على رأسِ الصِّراط هو القرآنُ، وأنَّ الدَّاعيَ مِنْ فَوقِه هو واعظُ الله في قلب كلِّ مؤمنٍ. رواه رَزين، ورواه أحمد والترمذي عن النَّواس بن سمعان بنحوه[1]. [٩٥]

---

[٩٥] الصِّراط في اللغة: هو الطريق، والمراد به هنا: الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالإسلام هو الطريق الموصل إلى الله تعالى، فمن أراد الوصول إلى

---

(١) رزين كما في «مشكاة المصابيح» ٤١/٨، وأحمد في «المسند» (١٧٦٣٤)، والترمذي (٢٨٥٩).

مرضاة الله وجنّته لا بُدَّ له من اتّباع النهج الموصِل إليه وهو الإسلام الذي هو صراط الله، ولكن من حكمة الله تعالى أن جعل على جَنبَتي هذا الطريق أبواباً يميناً وشمالاً، وعلى هذه الأبواب ستور مُرخاة، وهذه الأبواب إنما هي أبواب الفتن والشرور، فمَن فتحها وولج فيها فقد خرج عن الطريق المستقيم، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهناك صراط مستقيم، وهناك سُبل كثيرة وهي الأبواب التي على جنبتي هذا الصِّراط، فالواجب هو السَّير على الصِّراط وعدم الالتفات إلى هذه الأبواب، ولا كَشْف السُّتور التي عليها، والسُّتور هنا هي الحدود التي جعلها الله لرَدْع مَن يريد أن يدخل في هذه الأبواب؛ ولهذا قال في تفسيره لهذا الحديث: «وأنَّ السُّتور المُرخاة حدودُ الله، وأنَّ الداعي على رأس الصِّراط هو القرآن، وأنَّ الداعي من فوقه هو واعظُ الله في قلب كل مؤمن» وكل ذلك واضح معناه.

[خطورة اتباع ما تشابه من القرآن]

٨٠- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تَلا رسولُ الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقرأ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] قالت: قال: «فإذا رأيتُم الذين يتّبعونَ ما تشابَه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذَروهم» متفق عليه[١]. [٩٦]

---

[٩٦] هذا حديث عظيم، فيه: أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب وجعل منه آياتٍ محكماتٍ وأُخر متشابهات ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] أي: انحراف ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] على قراءة من يعطف قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وعلى قراءة أخرى في الوقوف على قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يكون ابتداء كلام. ومعنى الآية الكريمة واضح حيث إن القرآن فيه آيات محكمات وآيات متشابهات، والمحكمات: هي التي

---

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

لا يحتاج في تفسيرها إلى غيرها، لأنها واضحة في معانيها، وأمّا المتشابهات: فهي الآيات التي يُحتاج في تفسيرها إلى إرجاعها إلى غيرها مثل المطلَق، والمجمَل، والمنسوخ. فهذه الأنواع ونحوها لا يُستدلّ بها حتى يُراجع القسم الآخر من الآيات المحكمة، فيُقيّد المطلَق، ويُبيَّن المجمَل، ويُنسخ المنسوخ ويُعمل بالناسخ، وهذه طريقة الراسخين في العلم أنهم يردُّون المتشابه إلى المُحكَم، ويجمعون بين الآيات والأحاديث بعضها مع بعض، لأن كلام الله يُفسّر بعضُه بعضاً، وكذلك كلام الرّسول ﷺ يفسّر بعضُه بعضاً.

وأمّا أهل الزّيغ فعلى العكس، فيأخذون المتشابه ويتركون المُحكم ويستدلّون به.

فبالنظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فإنها تدلّ على أنّ القاتل كافر خارج من الملّة وخالدٌ في النار، ولكن بردِّها إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فإنها تفسّرها وتدلّ على أنّ القتل ليس بكفر أكبر، ولكنه كفر أصغر؛ بدليل قوله ﷺ:

«لا تَرجِعوا بَعدي كفّاراً يَضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ»[1]؛ فقَتْل المؤمن متعمِّداً كفرٌ، ولكنه كفرٌ أصغر وليس بكفر مخرج من الملَّة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فالخطاب في هذا إلى المؤمنين بأن يُصلحوا بين إخوتهم من المؤمنين، فدلَّ على أنَّ القاتل لا يكفر، وإنما هو فاعل لكبيرة من كبائر الذُّنوب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فلو أخذنا بهذه الآية لقلنا: إنَّ عدَّة الوفاة سنة، لأن هذا صريحُ الآية، ولكن بإرجاعها إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فتكون هذه الآية ناسخة للآية الأخرى، فنُسخت العِدَّة من سنة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام. فالمنسوخ لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ. وأمَّا أهل الزَّيغ فيأخذون بالمنسوخ بحجَّة أنها آية من كتاب الله وأنه لا مانع من الاستدلال بكتاب الله! فأهل الزَّيغ يأخذون طرفاً من الأدلَّة

(١) أخرجه البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ويتركون الطرف الآخر.

والخوارج وهم من أهل الزَّيغ، قد أخذوا آيات الوعيد وكفَّروا المسلمين، وتركوا آيات الوعد، ولو جمعوا بينهما كما فعل أهل السُّنة لاهتدوا.

والمُرجئة على العكس فقد أخذوا آيات الوعد والرَّجاء، وتركوا آيات الوعيد فضلُّوا؛ فالخوارج ضلُّوا لأنهم أخذوا بطرف، وهؤلاء ضلُّوا لأنهم أخذوا بطرف من النُّصوص، وأمّا أهل السُّنة والجماعة فجمعوا بين النُّصوص وقالوا: كلٌّ من عند ربِّنا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] هذه هي طريقة الراسخين في العلم، وأمّا أهل الزَّيغ فإنهم يأخذون طرفاً من الأدلة، ويتركون الطرف الآخر الذي يُقيِّده ويُفسِّره أو ينسخه أو يُبيِّن مجمَله؛ ولذلك فإنه لا يجوز الاستدلال بالقرآن الكريم إلاّ لمن بلغ في العلم مرتبة تؤهِّله للاستدلال، وهم المجتهدون، أمّا المبتدىء في طلب العلم فهذا لا يجوز له أن يستقلَّ بالفهم والرأي أو أن يُصدر الأحكام؛ لأنه لم يتمكَّن من طريقة الاستدلال وفهم الأدلة وربط بعضها ببعض.

فقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] الأُمُّ: هي التي يَرجع إليها الشيء، فالمتشابهاتُ تُردُّ إلى الأُم، وهي المحكمات حتى تفسِّرها ولا تُقطع عنها.

وقوله ﷺ: «فاحذروهم» أي: لا تَغترُّوا بهم؛ لأنهم أهل زَيغ، ويُضلُّون عن سبيل الله، وما أكثرهم اليوم بسبب الجهل وعدم التمكُّن من العلم، وبعضهم قد يكون عالماً ولكنه صاحب هوًى فيأخذ المتشابه لأجل التلبيس على الناس.

٨١- وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً بيده ثم قال: «هذا سبيلُ الله» ثم خطَّ خطاً عن يَمينِه وعن شِمالِه، وقال: «هذه سُبلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣] رواه أحمد والدارمي والنسائي(١). [٩٧]

[٩٧] حديث ابن مسعود هذا مثل حديثه الذي سلف قبل حديث عائشة السابق تماماً، وفيه: أن النبيَّ ﷺ أراد أن يُفسِّر هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فأراد ﷺ أن يفسِّرها بضرب المَثَل الذي يوضِّحها، وذلك أنه خطَّ خطّاً مستقيماً على الأرض، ليس فيه انحراف، ثم خطَّ خطوطاً أخرى عن يمينه وعن شماله، فقال عن الخط المستقيم: «هذا سبيلُ الله» يعني: صراطه المستقيم، وقال عن الخطوط التي عن يمينه وشماله: «وهي سُبلٌ على كلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه»، وهي الانحرافات

(١) أحمد (٤١٤٢)، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٤).

التي تُضلُّ الناسَ، انحرافات وفي كلٍّ منها مذاهب فاسدة ونِحَلٌ باطلة، وأقوالٌ كاذبة، هذه هي السُّبل، وصراطُ الله واحدٌ، والسُّبل كثيرة؛ لأن أهواء الناس وأقوالهم كثيرة، فإذا ما اتَّبع أحدٌ أقوالهم ضاع وضلَّ، ومَن اتَّبع صراطَ الله اهتدى دون أن يحصل عنده لبس؛ لأنه ليس عنده إلَّا طريق واحد، فمَن يسير في طريق واحد لا بدَّ أنه سيستريح، ومَن أراد السَّير في طرق كثيرة فإنه لا يدري في أي طريق يكون الصواب، وستلتبس عليه الطريق وبالتالي سيضيع بين هذه الطُّرق، فمن رحمة الله وفضله على خلقه أنْ وحَّد لهم الطريق فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فمَن انحرف عن الصراط هلك في هذه السُّبل والطرق المليئة بالمقالات، والمذاهب والمتاهات؛ ولأجل تلاشي هذه الانحرافات ـ رحمةً بالخلق ـ جعل الله لهم القرآن والسُّنة، فإذا ما اشتبهت الأمور والمذاهب عليهم رجعوا إليها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

[النهي عن الأخذ من الكتب السابقة]

٨٢- وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ يَكتبونَ مِنَ التَّوراة، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّ أَحمَقَ الحُمقِ وأَضلَّ الضَّلالةِ قومٌ رَغِبوا عمّا جاء به نبيُّهم إلى نبيٍّ غيرِ نبيِّهم، وإلى أُمَّةٍ غيرِ أُمَّتِهم» ثم أنزل الله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١] رواه الإسماعيلي في «معجمه» وابن مردويه[1]. [٩٨]

[٩٨] في هذا الحديث النَّهيُ عن أخذِ شيءٍ من التوراة أو الإنجيل والكتب السابقة؛ لأنَّها نُسخت بالقرآن الكريم، والشيء إذا نُسخ فإنه لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ. وهذه الشرائع إنما كانت لـمَن قَبلنا وقد انتهت بشريعتنا.

فشريعتنا هي الحاكمة وهي المُهيمنة، ورسولنا ﷺ هو خاتم الرُّسل وتجب طاعته على كلِّ مخلوقٍ من الجنِّ والإنس، ومن اليهود

(١) الإسماعيلي في «معجمه» (٣٨٤)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٤٧٢ وعزاه للإسماعيلي ولابن مردويه.

والنصارى، ومن كلِّ أصحاب المَلَلِ والنِّحَل، فلا يجوز لأحد أن يقول مثلاً: أنا على شريعة موسى، أو: على دين المسيح، ولهذا قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى كان حيّاً ما وَسِعه إلاَّ أن يتَّبعَني»(١)، فكيف بغير موسى! والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١] يعني: محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] لقد أخذ الله تعالى الميثاق على الرُّسل أنه إذا بُعث الرَّسول محمد ﷺ أن يتَّبعوه، فإذا كان الرُّسل يجب عليهم اتِّباع نبيِّنا محمد ﷺ فكيف بغيرهم.

فهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون الآن: إنَّ اليهود على دين، والنصارى على دين، والمسلمين على دين، وأن كلاًّ من اليهود والنصارى إنما يقصدون الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، وأنَّ كلاًّ من هذين الفريقين تابعٌ لرسولٍ من الرُّسل! كيف يستقيم هذا مع أنه بعد بعثة الرسول ﷺ لا أحدَ يُتبع إلا محمداً ﷺ؛ قال

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.

ﷺ: «والذي نَفْسُ محمدٍ بيَدِه، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّةِ من هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاّ كان من أصحاب النَّارِ»(١)، فبعدَ بعثة الرسول محمد ﷺ لا ينبغي لدينٍ أو مِلَّة أن تكون إلّا ملّة الإسلام، وتلك الشرائع السابقة قد انتهت ولا يجوز العمل بها بعد بعثته ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] فالكتاب الذي هو القرآن كافٍ، فلا ينبغي الذهاب إلى التوراة والإنجيل أو إلى الزَّبور، كما لا يجوز الالتفات إلى غير القرآن من الكتب السابقة، لأنها كتبٌ قد انتهى العملُ بها، فالذي أنزلها هو جلّ وعلا وهو الذي أنهى العملَ بها وأحال على القرآن، فلم يبق بعد بعثة النبي ﷺ كتاب ولا دين إلّا القرآن والإسلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] فأمّا الذي لا يؤمن بحجّة أن جميع الكتب السابقة صحيحة وأنها كلُّها من عند الله، وأنَّ جميع الأديان باقية ولم تنسخ فهو كافر وليس بمؤمن، ولهذا قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وهذه المقالة

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التي يُردِّدونها الآن بأنه لا يجوز التحجُّر، وأن اليهود على حق والنصارى كذلك، وأنهم أصحاب دين فلا مانع من التعاون والتآخي، ومن إقامة المؤتمرات والندوات لهذا الشأن؛ كلُّ هذا إنما هو من أجل أن يصرفوا المسلمين عن دينهم، ولهذا ينبغي للمسلمين أن يتنبَّهوا لهذه المكيدة!

٨٣- وعن عبد الله بن ثابت بن الحارثِ الأنصاري رضي الله عنه قال: دخل عمرُ رضي الله عنه على النبيِّ ﷺ بكتابٍ فيه مواضعَ مِنَ التَّوراةِ فقال: هذه أصبتُها مع رجلٍ من أهل الكتابِ أعرضُها عليك، فتغيَّرَ وَجْهُ رسولِ الله ﷺ تغيُّراً شديداً لم أرَ مثلَه قطُّ، فقال عبدُ الله بنُ الحارثِ لعمرَ رضي الله عنه: أمَا تَرى وَجْهَ رسولِ الله ﷺ؟! فقال عمرُ: رَضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ نبيّاً، فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وقال: «لو نَزَل موسى فاتَّبَعْتُموهُ وتَركتموني لضلَلْتُم، أنا حَظُّكم مِنَ النَّبيِّينَ، وأنتم حظِّي مِنَ الأُمَمِ» رواه عبد الرزاق وابن سعد والحاكم في «الكُنى»[1]. [٩٩]

---

[٩٩] هذا الحديث فيه أنَّ رسول الله ﷺ استنكر على عمر رضي الله عنه لمّا رأى معه شيئاً من الكتب السابقة، فظهر على وجهه ﷺ الاستنكار حتى قيل لعمرَ: أنه أخطأ وأغضب رسولَ الله ﷺ.

فهذا فيه دليل أيضاً على أنه لا يجوز لنا العُدول عن القرآن إلى الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ انتهت، والقرآن كافٍ وشاملٌ لِمَا فيها

---

(١) عبد الرزاق في «المصنف» ٦/ ١١٣ (١٠١٦٤).

من الحقِّ، فلا يبقى كتابان بأيدي المسلمين، وإنما هو كتاب واحد هو كتاب الله سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

باب حقوق النبيِّ ﷺ

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. [١٠٠]

---

[١٠٠] بعدما انتهى المصنِّف رحمه الله من بيان التوحيد الذي هو رأس الإيمان، وذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، وبيان أنَّ التوحيد هو حقُّ الله سبحانه وتعالى على عباده، كما في حديث معاذ رضي الله عنه الذي فيه قوله ﷺ له: «هل تدري ما حقُّ الله على عباده وما حقُّ العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «فإنَّ حقَّ الله على عباده أنْ يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله أنْ لا يعذِّب مَنْ لا يُشرك به شيئاً»، هذا هو حقُّ الله عزَّ وجلَّ على العباد أن يعبدوه.

قال ابن القيِّم رحمه الله:

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر لا ... بهوى النُّفوسِ فذاك للشَّيطانِ

من غير إشراكٍ به شيئاً هما ... سَببا النَّجاة فحبَّذا السَّببانِ

لم يَنْجُ من غضب الإله ونارِه إلا الذي قامتْ به الـسَّبَبان
والنَّاسُ بعدُ فمُشرِكٌ بإلهه أو ذو ابتداعٍ أو له الوصفانِ

هذا حقُّ الله سبحانه وتعالى: عبادتُه بالأمر؛ يعني: بالشَّرع لا بهوى النُّفوس كالبِدَع والمُحدَثات لأنها كلُّها للشيطان، وإن كان صاحبُها يظنُّ أنه يتقرَّب بها إلى الله، ولكن الله جلَّ وعلا لا يَرضى إلاَّ بما شَرَع؛ ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله:

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر لا بهوى النُّفوس فذاك للشَّيطانِ

فلا بدَّ من البراءة من الشِّرك، فلا تكفي عبادة الله وحدها، لأنَّ المشركين يعبدون الله ولكنهم يعبدون معه غيره، فعبادتهم لله باطلة لأنهم لم يتركوا الشِّرك، فهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره؛ ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله: «ومن غير إشراكٍ به شيئاً». وقوله: «هما» أي: الإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ، ثم ذكر أنَّ الناس بعد ذلك منقسمون، فمنهم المشرك ومنهم المُبتَدِع غير المشرك، ومنهم مَنْ جَمَعَ الوصفين: الشرك والبدعة؛ ولهذا قال:

والنَّاسُ بعدُ فمشركٌ بإلهه أو ذو ابتداعٍ أو له الوصفانِ

فلم يَنجُ من الناس إلّا من جمع بين الإخلاص وبين المتابعة للرَّسول ﷺ، وأمّا بقيّة الناس فلم يخرجوا عن بقية هذه الأقسام الثلاثة: إمّا مشركون، وإمّا مبتدعة، وإمّا جامعون بين الوصفين: الشرك والابتداع في الدِّين، فينبغي التنبُّه لهذا، فهذا هو حقُّ الله سبحانه وتعالى وهو الحقُّ الأول.

والحقُّ الثاني: هو حقُّ الرَّسول ﷺ، لكنه بعد حقِّ الله جلَّ وعلا، فلا يُخلط حقُّ الرَّسول مع حقِّ الله تعالى، ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله:

للّـهِ حـقٌّ لا يكـون لغيره ولعَبـدِهِ حـقٌّ همـا حقّـانِ
لا تجعلوا الحقَّين حقّاً واحداً مـن غير تمييـز ولا فُرقانِ

فالله جلَّ وعلا له حقٌّ على حِدَة، والرَّسول ﷺ له حقٌّ على حِدَة، فلا ينبغي خلطُ الحقَّين وجعلها حقّاً واحداً، فالرَّسول ﷺ ليس له من العبادة شيء، وعليه فيجب معرفة ما هو حقُّ الرَّسول ﷺ، من أجل عدم الخلط بين حقِّه ﷺ وبين حقِّ الله تعالى الذي سبق ذكره فيما سلف، وأما الرَّسول ﷺ فله عدَّة حقوق ومن أهمها:

أولاً: الإيمان به ﷺ وبرسالته.

ثانياً: محبّته ﷺ أكثر من محبّة النفس والمال والوالد والولد والناس

أجمعين، لأنه هو الذي أنقذ الله به الناس من الظلمات إلى النور، وهو الذي هدى الله به الخلق إلى الإسلام، فتجب محبَّته أكثر من محبَّة المرء لنفسه وولده ووالديه كما سيأتي في الحديث.

ثالثًا: طاعته ﷺ، فمَن آمن به وأحبَّه، فإنه لا بدَّ وأن يُطيعه فيما أمر وفيما نهى عنه فيجتنبه؛ قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فالطاعة والمتابعة له ﷺ من جملة حقوقه على الناس، وإلاَّ فما فائدة الإيمان به ومحبَّته إذا لم يُطع ويتَّبع؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، فمهمَّة الرسول ﷺ هي البلاغ، وأمَّا الهداية فهي بيد الله سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فيجب معرفة أن الهداية إنما هي بيد الله تعالى وليست بيد الرَّسول ﷺ الذي لا يملك إلاَّ البلاغ؛ قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وأمَّا هداية القلوب فهي بيد الله سبحانه وتعالى، وليست بيد الرسول ﷺ، نقول هذا لأنَّ بعض الناس يَغْلُو في حقِّ الرَّسول ﷺ ويجعله

في مرتبة الألوهيَّة، وبينما البعض الآخر يَجفُو في حقِّ الرَّسول ﷺ فلا يُطيعه في كثير من الأمور وإنما يتَّبع نفسَه وهواه، فما وافق هواه فيما جاء به الرَّسول ﷺ أخذه، وما خالف هواه راوغ لأجل التخلُّص منه، وهذه طريقة أصحاب الأهواء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالرسول ﷺ ويُحِبُّونه، ولكنهم لا يتركون البِدَع والمُحدثات التي نهى عنها الرَّسول ﷺ متناسين أو متجاهلين أن من حقِّه ﷺ عليهم اجتناب ما نهى عنه واتِّباع ما أمر به ومتجاهلين قوله ﷺ: «إيَّاكم ومُحدَثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة»(١)، فالذين يُزاولون البدع قد نَقَصوا حقَّ الرَّسول ﷺ وإن كانوا يزعمون أنهم يُحِبُّونه، فالمحبَّة تقتضي الاتِّباع؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولهذا قال الشافعي رحمه الله:

تَعصي الإلهَ وأنتَ تَزعمُ حبَّه وهذا لعمري في القياس شنيعُ
لو كان حبُّكَ صادقاً لأطعتَه إنَّ المُحبَّ لمَن يُحبُّ مطيعُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

فالاتِّباع من علامة محبَّة الله ورسوله، والمحبَّة الصادقة لا تكون مجرَّدة عن العمل الذي يعني اتِّباع ما أمَرا به ونَهيا عنه!

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

ذكر الله في هذه الآية ثلاثة حقوق:

١- حقّ الله جلَّ وعلا.

٢- حقّ الرسول ﷺ.

٣- حقّ ولاة أمور المسلمين.

فقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في سنّته؛ وأما القرآن فهو كلام الله عزَّ وجلَّ، فطاعة ما جاء في القرآن طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ، والسُّنة هي كلام الرَّسول ﷺ، فطاعة ما جاءت به السُّنة الشريفة هي طاعةٌ للرَّسول ﷺ، وقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، و«مِن» التي في ﴿مِنكُمۡ﴾ تبعيضية، فيجب طاعة وليّ الأمر المسلم؛ لأن معنى: ﴿مِنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، وأمّا إذا كفر أو ارتدَّ فإنه لا يُطاع، ولكنه ما دام مسلماً ولم يخرج من الإسلام فتجب طاعتُه وإن عصى وخالف،

ما دامت مخالفته لم تصل إلى حدِّ الكفر المخرج من الملَّة فإنه تجبُ طاعتُه، وإن جارَ وإن ظلم وإن فجر فجوراً دون الكفر؛ لِمَا في طاعتهم من المصلحة واجتماع الكلمة وحقن الدِّماء والمصالح الكثيرة التي من بينها دَفْع الظَّلَمة ونُصرة المظلومين.

إلاّ أنَّ طاعة وُلاةِ الأمور مقيَّدة، وأمَّا طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ فهي طاعةٌ مطلقة؛ لأنَّ الله لا يأمر إلا بما هو حقٌّ وكذلك الرسول ﷺ، وأمّا وُلاة الأمور فإنهم قد يأمرون بمعصية فهم ليسوا بمعصومين؛ ولهذا قال ﷺ: «إنما الطاعةُ في المعروف»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالقِ»[2]، فإذا أمر الوُلاة في معصية فلا طاعة لهم في هذا، ولكن ليس معنى هذا أن تنعزل ولايتُهم، وإنما تبقى ولكن لا يُطاعوا فيما أمروا من المعاصي، وإنما يُطاعوا فيما لم يخالف كتابَ الله وسُنَّة رسوله ﷺ؛ فقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال المفسِّرون: المراد بهم الأمراءُ. وقال آخرون: المراد بهم العلماء، والصواب أن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي

(١) أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث عليّ ﷺ.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٩٥) من حديث عليّ ﷺ.

﴿ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يشمل الأمراء والعلماء، فهؤلاء بسلطتهم، وهؤلاء بعلمهم، فالعلماء من وُلاة الأمور؛ لأنهم يتكلمون عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، فهو سبحانه قد قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: صلُّوا؛ لأنه ليس المقصود صورة الصَّلاة وإنما المقصود إقامة الصَّلاة؛ أي: أن تكون الصلاة قائمة، بمعنى أنها صلاة موافقة للشرع تؤدَّى في وقتها مع جماعة المسلمين، وبطهارة وخشوع كاملين وحضور بين يَدَي الله سبحانه وتعالى، هذا المقصود من قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: إقامتها على الوجه المشروع من إكمال شروطها وأركانها وواجباتها ومتمِّماتها من السُّنن والمستحبَّات.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزكاة قرينة الصَّلاة في كثير من الآيات، فالصَّلاة حقٌّ لله، والزَّكاة حقٌّ للفقراء والمساكين؛ قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، فهي حقٌّ للمساكين والفقراء والمصارف التي بيَّنها الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٦]، وهذا الأمر الثالث،

جاء بعد الأمر بإقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ وطاعته ﷺ تكون فيما أمر به وفيما نهى عنه، فلا يكفي أن يُقيم المسلم الصَّلاةَ وأن يؤتي الزَّكاة، بل لا بدَّ له من طاعة الرَّسول ﷺ فيما أمر فيُفعل، وفيما نهى عنه فيُجتنب، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأنَّ الالتزام بهذه الأوامر الثلاثة يسبِّب الرَّحمة من الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] هذا فيه ذكر حقِّ الله تعالى، وقوله: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ فيه ذكر حقِّ الخَلْق من الفقراء والمساكين من المسلمين، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيه ذكر حقِّ الرسول ﷺ وهو الشاهد في هذه الآية.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: من الأوامر ومن الأموال أيضاً؛ لأن سبب نزول الآية كان في الفيء، فما آتاكم الرَّسول ﷺ من المال فخذوه. وقوله: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] عن المعاصي والمخالفات.

فسبب نزول الآية في الفيء ولكن لفظها عامٌ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب. هكذا الأصل عند العلماء؛ أي: فما

آتاكم الرَّسول ﷺ من الأموال ومن الأوامر فاقبلوه، وما نهاكم عنه من المخالفات فيجب عليكم اجتنابه.

وفي هذه الآية إثبات العمل بالسُّنة النبوية، وفيها ردٌّ على القائلين بأنه لا ينبغي الأخذ إلا بالقرآن الكريم، والله جلَّ وعلا ردَّ عليهم بهذه الآية بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ والسُّنة ممّا آتانا الرسول ﷺ.

فهذه الآية تعتبر أصلاً لكلِّ ما جاءت به السُّنة ممّا لم يَرِد له ذكرٌ في القرآن الكريم، وعلى هذا الدَّرب والطريق الواضح مَنْ جاء بعد الصحابة من أئمة العلم والدِّين.

[الحثُّ على قتال المشركين حتى يكون الدين كلُّه لله]

٨٤- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله ويؤمنوا بي وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا منّي دماءَهم وأموالَهم إلّا بحقِّها وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ» رواه مسلم(١). [١٠١]

[١٠١] قوله ﷺ: «أُمرتُ» الذي أمره ﷺ هو الله جلَّ وعلا «أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أنْ لا إله إلّا الله» هذا فيه وجوب قتال المشركين حتى يكون الدِّين كلُّه لله ولا يبقى شرك، قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] فقتال المشركين إنما هو لأجل شركهم وإزالته، لأن الخَلْق خُلقوا لعبادة الله جلَّ وعلا، فإذا عبدوا غيرَه وجب قتالُهم بأمر الله جلَّ وعلا، فهو سبحانه لم يَخْلُقهم ليعبدوا غيرَه بل خلقهم ليعبدوه، فإذا خالفوا وعبدوا غيرَه فإنهم يُقاتَلون ولا ينبغي تَركُهم ينشرون الشِّرك في الأرض ويجبرون الناس عليه.

وفي الحديث ردٌّ على القائلين: إنَّ الإسلام دينُ مسالَمَةٍ وسلام

(١) برقم (٢١).

وتسامح، وليس دينَ قتالٍ إلاّ في حَقِّ مَنِ اعتدى على المسلمين، فإنه يُقاتَل مِنْ باب الدِّفاع! هذا كلام باطل، بل يجب قتالُ المشركين لأجل شركهم وإزالتِه وقَمْعِ المشركين، حتى يكون الدِّين كلُّه لله إذا كان عند المسلمين قوَّة واستطاعة، فلا ينبغي لهم أن يتركوا الجهاد؛ لأنه واجبٌ وفرضٌ من فروض الإسلام، وأمّا الدفاع فكلُّ الخَلْق يدافعون عن أنفُسِهم، حتى البهائم تدافع عن نفسها، فكلُّ مَنِ اعتُدِي عليه يُدافع عن نفسه، فهذا لا يحتاج إلى أمرٍ من الخالق جلَّ وعلا، لأنه أمرٌ فِطْرِيّ وغير خاصٍّ بالمسلمين ولا بغيرهم، فلا يحتاج إلى نزول آيةٍ أو أمرٍ إلى الرَّسول ﷺ وإلى المؤمنين، لكنَّ الكلام هنا في هذا الحديث إنما هو عن جهاد الكفّار لنَشْر الإسلام وإزالةَ الشِّرك، وهذا من أعظم فرائض الإسلام، وقد جعله النبيُّ ﷺ ذِرْوَةَ سَنَام الإسلام[1]، فلا ينبغي الالتفات إلى مقالة من يُهوِّلون أمر الجهاد لإرضاء الكفار بالقول لهم: إنما نحن إخوة في الإنسانية ودينُنا دينُ مسالَمةٍ مع غير المسلمين، وليس في ديننا أن نُقاتل مَن هم

---

(١) انظر في هذا ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

على غَير ملَّتنا، ونحو ذلك من المقالات التي لم يأمرهم الله بها، فكلُّ هذا الكلام وشِبهُه من باب تعطيل الجهاد الذي أمر الله به نبيَّه ﷺ والمسلمين، وهو جَحْدٌ لرُكنٍ من أركان الإسلام، لأن بعض العلماء عَدَّ الجهاد ركناً من أركان الإسلام، فجعله الرُّكن السادس من أركان الإسلام.

وقوله ﷺ: «حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله» لم يقل ﷺ حتى يَكُفُّوا أذاهم، ليصبح الأمر مجرَّد دفاع عن النفس، وإنما قال ﷺ: «حتى يشهدوا أنْ لا إله إلّا الله» فالغاية التي ينتهي عندها قتال الناس هي عند شهادتهم أنْ لا إله إلّا الله.

وقوله ﷺ: «ويؤمنوا بي» يعني: يشهدوا أنَّ محمداً رسولُ الله، فإذا أتَوا بالشهادتين وَجَبَ الكَفُّ عنهم حتى يتبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، فإذا تبيَّن فإنهم يُعتبرون مرتدِّين، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله كفَفْنا عنهم، ووَكَلْنا سرائرَهم إلى الله تعالى؛ ولهذا لمّا لَحِقَ أسامة بن زيد مشركاً بالسيف وأدركه وأراد قَتْلَه شهد الرجل بأن لا إله إلا الله، فقتله أسامةُ، فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ أنكر على أسامة إنكاراً شديداً وقال له: «أَقَتَلْتَه بعد

أن قال: لا إله إلّا الله؟!» فقال أسامةُ: إنما قالها خوفاً من السِّلاح، فقال ﷺ: «أفلا شَقَقتَ عن قلبه حتى تعلمَ أقالَها أم لا»[1]، وفي رواية قال له ﷺ: «فكيف تَصنعُ بلا إله إلّا الله إذا جاءتْ يومَ القيامة؟»[2].

وقوله ﷺ: «فإذا فَعلوا ذلك عَصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها»، فقوله: «إلا بحقِّها» يعني: إلّا إذا تبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، كأنْ يجحدوا الزَّكاة أو يُنكروا وجوب الصَّلاة، ولهذا لَمّا امتنع طوائف من العرب عن دفع الزَّكاة بعد وفاة النبي ﷺ قاتلَهم أبوبكر الصدّيق رضي الله عنه وقال: «والله لأُقاتلنَّ مَنْ فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة، فإن الزَّكاة حقُّ المالِ» قال رضي الله عنه ذلك بعدما قال له عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، فمَن قالها عصم مني ماله ونفسَه إلاّ بحقِّه وحسابُه على الله»؟ فقال رضي الله عنه: إنَّ الزَّكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدُّونها إلى

(١) انظر البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦)، من حديث أسامة بن زيد ﷺ.
(٢) أخرجها مسلم (٩٧).

رسول الله ﷺ لقاتلتهم على مَنْعِها. فقال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أنْ قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحقُّ(١). فكان في ذلك الخيرُ والمصلحةُ للإسلام والمسلمين؛ لأنه رضي الله عنه لو تركهم على ما هم عليه لحصل في الإسلام نقصٌ كبير ولتركت كل طائفةٍ من الناس ركناً من أركان الإسلام، فالحزم كان شيمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في هذا الأمر الخطير، مستدلاً بهذه الكلمة النبوية العظيمة «إلاّ بحقِّها» أي: حق لا إله إلا الله، والصَّلاة من حق لا إله إلا الله، وكذا الزكاة والصيام والحج، فليست «لا إله إلا الله» مجرَّد لفظ، والتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة هو صميم لا إله إلا الله، فمَن كان يقولها وهو يشرك بالله فإنها لا تنفعه، ولا يُعصم دمُه ولا مالُه بل يُقاتل ولو كان يقولها، لأنَّ هذا من التناقض، فكيف يقولها ويدعو غير الله، كأن يقول مثلاً: يا عليّ، يا حسين، يا بدويّ، فكلُّ هذا ونحوه من الشِّرك؛ لأنه قال: «لا إله إلّا الله» ولم يعمل بمقتضاها، فيجب التفقُّه في مثل هذه الأمور والتنبُّه لها، فكل هذه الأمور ونحوها إنما هي من الشُّبهات

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٤) و(٦٩٢٥)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

التي يُوردها أهلُ الضَّلال، ولا بُدَّ من الرَّدِّ عليها بكلام الرَّسول ﷺ.

والشاهد في الحديث قوله ﷺ: «ويؤمنوا بي وبما جئتُ به» فهذا هو حقُّ الرَّسول ﷺ، وهو الإيمان به وبما جاء به وتصديقه.

[ذكر الخصال التي فيها حلاوة الإيمان]

٨٥- ولهما[1] عن أنسٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سِواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلّا لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يعُودَ في الكُفر بَعدَ إذْ أنقَذَه اللهُ منه كما يَكرَهُ أنْ يُقذفَ في النار». [١٠٢]

[١٠٢] في هذا الحديث ذكرت ثلاثُ خصال مَنْ كانت فيه هذه الثلاث وَجد بهنَّ حلاوة الإيمان كما أخبر ﷺ، ويُفهم من هذا أنَّ الإيمان له طعم وموصوف بالحلاوة، فقد يكون المرء مسلماً ولكنه لا يجد طعم حلاوة الإيمان، ولا توجد حلاوة الإيمان إلا لـمَن تلذَّذ بالعبادات وأحبَّها، وكَرِه المعاصي وأبغضها كما يكرهُ أن يُقذف في النار، فمَن كانت فيه هذه الصفات وجد طعمَ حلاوة الإيمان، وقد بيَّنها ووضَّحها ﷺ فقال: «أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سِواهما» يعني: مِنَ النَّفس ومن الوالد والولد والأقارب والناس أجمعين، فلا يقدِّم على محبَّة الله جلَّ وعلا ومحبَّة رسوله ﷺ شيئاً أبداً،

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

وإذا تعارض شيءٌ مع محبَّة الله تعالى ومحبَّة الرَّسول ﷺ فإنه يترك ويتخلّى عن هذا الشيء، فيترك الوطنَ والمال والولد والوالد أو أيَّ شيء آخر من أجل محبَّة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤] فتقديم ما يُحِبُّه الله ورسوله على ما تُحِبُّه النفس إنما هو علامة محبَّة الله ورسوله، وأمَّا إن كان العكس وذلك بتقديم ما تحبُّه النفس على ما يحبُّه الله ورسوله كان ذلك علامة من علامات الفسق.

وفي الحديث بيان أنه ينبغي أن تكون محبَّة الله تعالى أولاً وقبل كلِّ شيء وبعدها محبَّة الرَّسول ﷺ، لأنَّ كثيراً من المبتدعة لا يلهجون إلّا بمحبَّة الرَّسول ﷺ ولا يذكرون محبَّة الله تعالى ولا تأتي لهم على لسان، مع أنَّ الأصل في هذا هو محبَّة الله تعالى، وفي الدرجة الثانية محبَّة الرَّسول ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما» فقدَّم الله تعالى أولاً ثم ذكر نفسه ﷺ.

وقوله ﷺ: «وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلاّ لله» أي: بعد أن يكون الله تعالى ورسوله ﷺ أحبَّ إليه من كل شيء، ينبغي للمرءِ المسلم

أن يُحِبَّ ما يُحِبُّه الله تعالى من الأشخاص، وأن يترك ما يَكرهه الله تعالى من الأشخاص، فيُحبُّ ما يحبُّه ويُبغض ما يبغضه الله تعالى، لأنَّ هذا من علامة صدق محبَّة الله تعالى ومحبَّة رسوله ﷺ.

وقوله ﷺ: «وأنْ يكره أن يعود في الكفر ... إلخ» لأنَّ الله يَكره الكُفرَ والشِّركَ والمعاصي، فلا يجد المرء طعم الإيمان إلّا بعد أن يبغض هذه الأشياء، ولا يكفي منه أن يتجنَّبها فقط بل لا بدَّ أن يبغضها بقلبه، لأنَّ بُغْضَ هذه الأشياء لا يكون إلّاعند مَنْ وَجد حلاوة الإيمان.

والشاهد في الحديث قوله ﷺ: «أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما» وهذا فيه محبَّة الرَّسول ﷺ وأنها تأتي بعد محبَّة الله تعالى مباشرة، وأنها مقدَّمة على كلِّ شيء.

٨٦- وهما(١) عنه مرفوعاً: «لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ وَلَدِه ووالدِه والنّاسِ أجمعين». [١٠٣]

---

[١٠٣] وهذا فيه أنَّ الإيمان لا يتحقَّق إلا إذا كان الرَّسول ﷺ أحبَّ إلى المرء المسلم من ولدِه، وأحبَّ إليه من والدِه ومن جميع الناس، فإذا كان المرءُ كذلك فإنه يكون قد قدَّم علامة على صدق محبّته للرَّسول ﷺ أكثرَ من محبّته لوَلدِه ووالدِه والناس أجمعين، هذه هي العلامة ومنها تقديم ما أمر به الرَّسول ﷺ وما نهى عنه على ما يُمكن أن يأمر به الوالد والولد، أو ما يمكن أن يأمر به الناس، فيترك جميع ما يمكن أن يأمروا به ويأخذ ما نهى عنه الرَّسول ﷺ، هذه علامة محبَّة الرَّسول ﷺ كما يُفهم ذلك من الحديث.

---

(١) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

[الرد على من اكتفى بالقرآن دون السُّنة]

٨٧- وعنِ المقدام بن معدي كربَ الكنديّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُوشِكُ الرَّجلُ متكئاً على أريكتِه يُحدَّثُ بحَديثٍ مِنْ حديثي فيقولُ: بيْننا وبيْنكم كتابُ الله عزَّ وجلَّ، فما وَجدْنا فيه مِنْ حَلالٍ استحلَلْناهُ، وما وَجدْنا فيه مِنْ حرام حرَّمْناهُ! ألاَ وإنَّ ما حرَّم رسولُ الله ﷺ مثلُ ما حرَّم الله» رواه الترمذي وابن ماجه(١). [١٠٤]

[١٠٤] وهذا الحديث من معجزاته ﷺ، حيث أخبر عن شيء سيحصل وحصل كما أخبر به ﷺ، أنه يأتي أُناسٌ مُتْرَفون على أرائكهم لا يجِدُّون في طلب العلم، وإذا ما ذُكر لهم حديثٌ عن الرَّسول ﷺ أخبر بأنه لا يعمل إلا بما في القرآن الكريم، فما كان فيه من حلالٍ أو حرام أخذ به، وأمّا أحاديث الرَّسول ﷺ فهي محلُّ شكٍّ عندهم، من حيث أسانيدُها ورُواتُها ومتونُها، فهؤلاء لا يقبلون إلا ما جاء في القرآن الكريم، بحُجَّة أنه متواتر، وأمّا السُّنة فأكثرها آحاد وليست متواترة فيتركونها!! فهؤلاء ونحوهم يُسمَّون بالقرآنيّين

(١) الترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢).

الذين يَدَّعون العمل بالقرآن فقط، وهي فرقة معروفة في الهند وفي غيرها، ومثلهم الخوارج الذين يُنكرون السُّنة ويَدَّعون بأنهم لا يعملون إلا بما جاء في القرآن الكريم؛ لأنهم جهّال بالسُّنة ولهذا يُشكّكُون في أسانيد الأحاديث المتضمِّنة للسُّنة، فيَطعنون في رُواتها وحُفّاظها.

ومِنْ هؤلاء مَنْ لا يُنكر جميعَ السُّنة وإنما يُنكر الآحاد من الأحاديث ولا يقبل إلاّ المتواتر منها، بحُجَّة أن الأحاديث الآحاد ظَنِّيَّة، والمتواتر هو الذي يفيد العلم، والآحاد عندهم يُعمل به في مسائل الفقه وأما في العقائد فلا يعملون بخبر الآحاد؛ بحُجَّة إفادته للظنّ والعقائد لا تُبنى - بزعمهم - إلاّ على العلم، هكذا يقولون!! وهذا ما عليه المعتزلة وما يسمّى في زماننا بالعقلانيين؛ ولذلك فهم يُنكرون صفات الله وأشياء كثيرة في العقيدة بحُجَّة أنها ما جاءت إلا برواية الآحاد!!

ونحن نقول: إنَّ ما صحَّ عن الرسول ﷺ سواء كان متواتراً أو كان آحاداً فهو يفيد العلم واليقين ويجب العمل به، والرَّسول ﷺ لم يكن يُرسل جماعات إلى الأقطار وإنما كان يرسل أفراداً ويعمل

وُلاته ﷺ وأمراؤه بخبر الرسولِ الذي أرسله الرسولُ مع واحد ﷺ فبلَّغ عنه ﷺ، ولم يكن يرفض أمراؤه هذا بحُجَّة أنه ﷺ لم يُرسل إليهم جماعة ليشهدوا أنَّ الرَّسول ﷺ قال ما جاء به رُسُله وهم فُرادى؛ والصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يُصلُّون العصر إلى بيت المقدس، لبقائهم على الأصل ولمَّا نُسخت القِبْلة وحوِّلت صلّى الرسولُ ﷺ العصرَ في مسجده إلى الكعبة، فخرج رجلٌ واحد من عنده ﷺ وأتى إلى أناسٍ يصلُّون إلى بيتِ المقدس صلاة العصر، فقال: إنَّ القِبلة قد حوِّلت إلى الكعبة؛ فاستداروا أمامهم نحو الكعبة[1]؛ فلم يقولوا: هذا خبرُ آحاد فلا نعمل به، ولذلك فإنه ما دام الخبر صحيحاً فلا مجال للتشكيك فيه وإن كان خبرَ آحادٍ.

ثم إن القرآن الكريم يتضمن مُجملات لا يُفصِّلها إلا السُّنة النبوية، فنرى أنَّ القرآن الكريم قد أمر بالصَّلاة في كثير من الآيات، ولكنه لم يذكر منها عدد ركعاتِ أيّ صلاة منها، في حين نجد هذا مذكوراً ومفصّلاً في السُّنة النبوية، فسُنَّته ﷺ مُبيِّنة لِمَا جاء

(١) انظر «البخاري» (٤٠) و(٣٩٩)، ومسلم (٥٢٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

مجملاً في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فالسُّنة النبوية الشريفة مبيِّنة للقرآن، ومُقيِّدة لمُطلَقِه وهي دليل عليه ومفسِّرة له.

ومِنْ ذلك أنَّ الله تعالى ذكر في كتابه فَرضيَّة الزكاة ولكننا لا نجد في القرآن الكريم ـ على كثرة الآيات التي تناولت هذه الفريضةَ ـ الأموالَ التي تجب فيها هذه الزكاة، فلم يُذكر في القرآن زكاة الإبل والبقر والغنم أو زكاة الخارج من الأرض ولا زكاة عروض التجارة، فلا نجد في القرآن إلاّ الأمر بإيتاء الزَّكاة، ولا نجد فيه ذِكر النِّصاب، لا نصاب الإبل ولا البقر ولا الذَّهب ولا الفضة، ولا غير ذلك ممّا نراه مبيَّناً ومفصلاً في السُّنة النبوية الشريفة، ففي قوله تعالى مثلاً: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، لم يُذكر في الآية أيُّ يد تُقطع ولكن جاءت السُّنَّة الشَّريفة فبيَّنت أنَّ اليد اليمنى هي التي تُقطع وبيَّنت كذلك حدَّ اليد التي تقطع، فبيَّنت أن الذي يُقطع من اليد هو من بداية مفصل الكَفِّ ويُترك الذراع والعَضُد، فلو اقتصرنا على ما جاء في القرآن لبقيت الأحكام معطَّلة؛ لأنه لا يوجد ما يُفسِّرها ولا ما

يُوضِّحها ويُبيِّنها كما هو موجود في السُّنة النبوية، سواء كانت متواترة أو آحاداً؛ إذ المتواتر من الأحاديث قليل قياساً لمجموع السُّنة النبوية الشريفة التي أغلبها من الأحاديث الآحاد، فلو تركنا الآحاد لَمَا بَقِي شيء يُذكر منها؛ ولكن هؤلاء حالُهم كما جاء في الحديث جهلة خاملون لا يطلبون العلم من مظانِّه، ولم يتكلَّف أحدهم دراسة الأسانيد، وإنما هو متكىء على أريكته كما وصفه رسول الله ﷺ، وهذا كلُّه نتيجة البقاء على الجهل وعدم السَّعي للتعلُّم، وفي هذا خطر عظيم يُخشى على الأمَّة منه ومن هذه المقالات الفاسدة، والعلم لا يؤخذ من كل مَن ادعاه وإنما يؤخذ من العلماء الراسخين المعروفين الذين تلقوه عمَّن قبلهم، وإلَّا سنقع فيما أخبر عنه الرَّسول ﷺ.

ففي الحديث الدَّعوة إلى وجوب العمل بالسُّنة والتَّصديق بها وأنَّ هذا من حقِّ الرَّسول ﷺ علينا، وعدم الاكتفاء بما جاء في كتاب الله تعالى الذي يدعو أصلاً إلى أخذ ما جاء به الرسول ﷺ، وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، أوليس في القرآن قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى

رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]؟ أوليس في القرآن قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء:٨٠]؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]؟

والسُّنة النبوية وحيٌ من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]؛ ولهذا فإنَّ العلماء يُسمُّونها الوحي الثاني، والقرآن هو الوحي الأول.

باب تحريضه ﷺ على لُزوم السُّنة

والتَّرغيب في ذلك وتَرْك البِدَع والتَّفرُّق والاختلاف والتَّحذير مِنْ ذلك.

وقولِ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. [١٠٥]

---

[١٠٥] قوله: «باب تحريضه ﷺ على لزوم السُّنة» التحريض معناه: الحثُّ على «لزوم السُّنة» أي: التمسُّك بطريقة النبيِّ ﷺ، فالسُّنة يُراد بها: الطريقة؛ أي: طريقة النبيِّ ﷺ، ويُراد بها: ما ثبت عنه ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات. فمعنى «لزوم السُّنة» أي: التمسُّك بها؛ لأنها هي ضمان النَّجاة يوم القيامة، فمَن ترك السُّنة هلك، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أي: قدوة حسنة، وقال ﷺ: «عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ

المهديِّين»(١)، وقال أيضاً ﷺ: «إنِّي تاركٌ فيكم ما إن تَمَسَّكتم به لن تَضِلُّوا بعدي، كتاب الله وسُنَّتي»(٢)، والمراد بكتاب الله: القرآن، والمراد بالسُّنة: ما كان عليه ﷺ من الطريقة والأقوال والأفعال والتقريرات الواردة عنه ﷺ؛ لأنَّ السُّنة تفسِّر القرآن وتوضِّحه وتدلُّ عليه، وهي الوحي الثاني، وهي الحكمة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فلا نجاةَ إلاّ بالتمسُّك بسُنَّة الرَّسول ﷺ، ولا شكَّ أنَّ أصل سُنَّة الرَّسول هو التمسُّك بالقرآن الكريم؛ فقوله: «والسُّنَّة» أي: القرآن؛ لأنَّ القرآن الكريم هو الأصل، فلا نجاة إلّا بالتَّمسُّك بالسُّنة في كلِّ وقت وفي كلِّ زمان، فمَن حاد عن السُّنة وأخذ بغيرها هلك، ومَن أخذ بها وسار عليها نجا، سواء كانت السُّنة في العقيدة أو في العبادات أو في المعاملات أو في الآداب والأخلاق، فالسُّنة عامَّة وأَوْلى ذلك في العقيدة التي دعا إليها

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٤٢)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣) و(٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) أخرجه الدارقطني ٤/ ٢٤٥ (١٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الرسول ﷺ، فقد كان أول ما دعا إليه النبي ﷺ كغيره من الأنبياء هو التوحيد وإصلاح العقيدة، ثم بعد ذلك يأتي العمل فيما دعوا إليه عليهم الصَّلاة والسلام.

وقوله: «وتَرْك البِدَع» فقد نهى ﷺ عن المُحدَثات والبدع؛ لأنها مخالفة للسُّنة النبوية الشريفة. والبِدَع جمع بدعة: وهي كلّ ما أُحدثَ في الدِّين مما ليس منه، ويشمل البدعة في الاعتقاد والبدعةَ في العبادة وفي الأعمال، قال ﷺ: «مَن عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ»[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنَّ كلَّ محدَثةٍ بدعةٌ»[(٢)]؛ فالواجب أن تُعرض أقوالُ الناس والعلماء وأفعالهم وعباداتهم واجتهاداتهم على سُنَّة الرَّسول ﷺ، فما وافقَ السُّنة فإنه يؤخذ به، وما خالفها فإنه يُترك ولا يعمل به، وإن استحسنه مَن استحسنه واعتبره زيادة خير أو عبادة، والحقيقة أن ما خالف السُّنة إنما هو شرٌّ وليس بخير؛ لأنه يُبعد عن الله عزَّ وجل.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧١٤٥)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

....

وقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، في هذه دليلٌ على وجوب التزام السُّنة النبوية والاقتداء بالنبيِّ ﷺ، والأُسوة: هي القدوة؛ والتأسِّي معناه الاقتداء، فالقدوة هو الرسول ﷺ ومَنْ عداه فإنما يُقتدى به إذا وافق سُنَّته ﷺ، وأمَّا مَنْ خالفها فهو ليس قدوة، بل هو قدوة سيِّئة.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، لقد ساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية، لأنه جاء في ترجمة الباب النهي عن التفرُّق والاختلاف؛ والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، والدِّين واحد وهو ما جاء به الرَّسول ﷺ، وما خالفه فليس بدين وإن زعم أصحابه أنه من الدِّين، والتفرُّق يُحدِث الشِّقاق والبغضاء وكثرة الأهواء وقد يُحدثُ القتال وسفك الدماء، وقد يُخِلُّ بالأمن، فلا بُدَّ من الاتِّفاق على ما جاء به الرَّسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟

كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فقد ذكر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم لَمَّا تفرَّقوا هلكوا، فالتفرُّق لا خير فيه.

ومن المعلوم أن الناس يختلفون في الاجتهاد والآراء والفقه، ولكن الواجب عرض أقوالهم واجتهاداتهم وآرائهم على كتاب الله تعالى ليجتمع المتفرِّقون؛ قال الله جلَّ وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]. فقوله تعالى: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إلى كتاب الله و﴿ وَٱلرَّسُولِ ﴾ في حياته عليه الصلاة والسلام يُردُّ إليه، وبعد موته إلى سنته ﷺ؛ فالخلاف يُحسم، والنزاع يُنهى وذلك بالرُّجوع إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون في بعض الأمور، ولكنهم كانوا يردُّون خلافهم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ثم يتفقون، وهكذا كان مَنْ بَعدهم من أهل الإيمان والصِّدق، فقد كانوا إذا اختلفوا ردُّوا خلافهم إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة

رسوله ﷺ، فلم يكن أحدهم يتعصَّب لرأيه، لأن هذا لم يكن من شأنهم رحمهم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أي: شرع الله لكم ﴿مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وهو أول الرُّسل ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ هؤلاء خمسة رسل وهم أولو العزم الوارد ذكرهم في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل على القول المشهور ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣] ودين الرُّسل واحد، لكن ذكر هؤلاء الرسل؛ لأنهم أولو العزم، وإلا فدينُ الرسل والأنبياء جميعهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم بحسب المصلحة والحكمة التي يعلمها الله تعالى، ولكن عبادة الله هي عبادته في كل وقت بما شرع، فإذا نُسخ فالعمل على الناسخ ويُترك المنسوخ، والله

جلَّ وعلا يشرع لكل أمّة ما يُناسبها ثم ينسخه بشريعة أخرى تناسب الجيل الذي بعده وهكذا إلى أن جاء محمد ﷺ فنسخ الله به الشرائع السابقة، وبقي دين الإسلام الذي جاء به عليه الصلاة والسلام، هذا في الفروع، وأمّا الأصول فلا يقع فيها نسخٌ، فالتوحيد ليس فيه نسخ، وإنما النسخ يكون في الأحكام العملية كالبيع والشراء والأنكحة ونحو ذلك مما يجري فيه التغيير حسب حكمة الله جلَّ وعلا، بخلاف أصول الدِّين والعقيدة فلا نسخ في ذلك.

والشاهد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: ١٣] أي: أقيموا الدِّين على ما جاء من غير اختلاف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

٨٨- وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وَعظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً، ذَرفتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ، فقال قائلٌ: يا رسولَ الله، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ فما تَعهدُه إلينا؟ فقال: «أُوصيكُم بتقوى الله والسَّمع والطاعةِ وإنْ كان عبداً حبشيّاً، فإنَّه مَنْ يَعِشْ منكم فسَيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهديِّينَ مِنْ بَعدي، تَمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعةٌ، وكلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ» رواه أبو داود والترمذيّ وصحَّحه وابنُ ماجه(١).

وفي روايةٍ له(٢): «لقد تركتُكم على البيضاء، لَيْلُها كنَهارِها لا يَزيغُ عنها بَعدي إلاّ هالكٌ، ومَنْ يَعِشْ منكم فسَيرى اختلافاً كثيراً» ثم ذكره بمعناه. [١٠٦]

---

[١٠٦] هذا حديث عظيم، فيه أنَّ رسول الله ﷺ وعظ أصحابه، وهذا من سُنَّته ﷺ أنه كان يَتخوَّلهم بالموعظة أحياناً، فيؤخذ من هذا

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).
(٢) ابن ماجه برقم (٤٣).

مشروعية الموعظة، وأنَّ العالم أو الواعظ أو إمام المسجد ينبغي له أن لا يَغفُل عن جماعته من المسلمين، بل يعظهم أحياناً ولا يُطيل عليهم ويتركهم دون أن يُذَكِّرهم بما فيه خيرُهم في الدُّنيا والآخرة. وقد كان ابن مسعود ﷺ يَعظ أصحابَه، فطلبوا منه أن يداوم على الموعظة. فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمةِ علينا(١).

وفي الحديث أن الرسول ﷺ وعظ أصحابه في يوم من الأيام، وجاء في بعض الأحاديث أنَّ ذلك كان بعد صلاة الفجر(٢).

وقوله: «موعظة بليغة ذرفت منها العيون» وذلك أنه ﷺ أُعطِيَ جوامعَ الكَلِم وفَصْلَ الخطاب، وكان ﷺ يختار الألفاظ المؤثِّرة في موعظته دون أن يستطرد بما لا فائدة فيه. وقوله: «وَجِلَتْ منها القلوب» يعني: بلغ تأثيرها إلى القلوب والأفهام.

وقوله: «فقال رجل: يا رسول، الله كأنها موعظة مودِّع» يعني: كان قد فَهِم هذا الرجل أن هذه الموعظة في آخر حياته ﷺ، فسأل

(١) أخرجه البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١).

(٢) انظر «مسند» الإمام أحمد (١٧١٤٥) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

رسولَ الله ﷺ بما فَهِم.

وقوله: «فما تعهد إلينا» يعني: أَوْصِنا، لأنه من عادة العالِم أو وليِّ الأمر أو الوالد أنه يُوصي عند نهاية حياته مَنْ خَلْفَه.

وقوله ﷺ: «أُوصيكم بتقوى الله» وتقوى الله: هي فِعْل أوامره وتَرْك نواهيه، وسمِّيت تقوى؛ لأنها تَقي من عذاب الله، والتقوى كلمة عظيمة رتَّب الله جلّ وعلا عليها خيرات كثيرة، ومعناها العمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، لرجاء ثواب الله، وتَرْك معصية الله، على نورٍ من الله؛ مخافة من عقاب الله، فقوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله» أي: فِعْل أوامره وتَرْك نواهيه؛ رجاءً وخوفاً.

وقوله ﷺ: «والسَّمع والطاعة» لوليِّ الأمر؛ لأنه بها يحصل اجتماع الكلمة، وتنتظم بها المصالح، وهي سببٌ للاتفاق، ومَنْجاةٌ من الاختلاف، فلا يحصل الاجتماع والاتفاق إلا بوليّ أمرٍ يَسُوس الناس ويُنفِّذ فيهم أوامر الله سبحانه وتعالى، ويدفع عنهم الأذى والعدوَّ، ويُقيم الحدودَ، ويمنع الظالمَ، ويردُّ الحقوق إلى أصحابها، ولا يكون كلُّ هذا إلا بوجود وليّ الأمر، ولا يكون وليُّ الأمر إلا بالسَّمع والطاعة؛ ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله ﷺ: «وإنْ كان عبداً حبشيّاً» أي: لا تحتقروا وليَّ الأمر ولا تُهوِّنوا من شأنه، أو تَسُبُّوه عند الناس إن كان ممّن نَسَبُهُ وضيعٌ عندكم، فلا يُنظر إلى نَسَبه وإنما يكون النَّظر في هذا إلى المنصب، فالإنسان سواء كان حرّاً أو عبداً فإنه إذا ما تولّى أمر المسلمين فإنه يُنظر إلى منصبه فتَجِبُ طاعتُه، وتَحْرُم مخالفته.

وقوله ﷺ: «فإنه مَنْ يَعِشْ منكم» أي: مَنْ ستطول به الحياة، وهذا خبرٌ منه ﷺ «فسيرى اختلافاً كثيراً» وهذا أيضاً خبرٌ من باب التحذير، بأنه سيكون في ذلك الزمان اختلاف واسع عمّا عليه الوضع الآن، وإذا ما حصل هذا الاختلاف فلا عاصم منه، ولا شيء يمكن أن يُنجي منه سوى العودة إلى كتاب الله تعالى وسُنة نبيِّه ﷺ والتمسُّك بهما؛ ولهذا قال ﷺ: «فعليكم بسُنّتي» فهي سبيل النجاة «وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديِّين مِنْ بعدي» وهم أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، فهؤلاء هم الخلفاء الراشدون المهديُّون، وعملهم حُجّة وسُنّة تُتّبع؛ ولهذا قال ﷺ: «فعليكم» وهي كلمة حَثّ، معناها: الزَموا سُنّتي كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ أي: الزموا أنفُسَكم.

وقوله ﷺ: «تَمَسَّكوا بها» زيادة تأكيد لقوله: «فعليكم» وزاد تأكيداً ﷺ وقال: «عَضُّوا عليها بالنَّواجذ» والنواجذ: الأضراس، وهذا مثال للذي وقع في مصيبة أو مهلكة، أو كالغريق المُمسك بالحَبْل الذي هو سبيل نجاته حال خوفه أن يفقد هذا الحَبْل فإنه يَعَضُّ عليه بأسنانه وأضراسه، إذ لو أفْلَتَ منه هذا الحَبْلُ لهلك، فلا نجاة له بعد الله إلا هذا الحَبْل، فهو من شدَّة خوفه وحرصه عليه، فإنه يَعَضُّ عليه بأضراسه ولم يَكتفِ بأنْ يُمسكه بيديه خوفاً من أن يَنفلتَ منه؛ فقد شبَّه ﷺ الذي يقع في الفتن وحاجته للتمسُّك بالسُّنة كحاجة الغريق لأن يتمسَّك بالحَبْل وإلاَّ فإنه لن ينجو؛ وهذا تشبيه بليغ منه ﷺ.

ثم قال ﷺ: «وإيّاكم ومحدثات الأمور» وفي هذا تحذير منه ﷺ من إحداث البدع، والبدعة: ما أُحدث في الدِّين ممّا ليس منه، وأمّا ما أُحدث في أمور الدُّنيا من الصناعات والمخترعات فلا بأس به ولا يُعدُّ من البِدَع، وإنما الكلام على ما أُحدث في الدِّين ممّا ليس منه.

قوله: «فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة» في هذا ردٌّ على

القائلين بأنَّ هناك بدع حسنة ومُحدثات طيبة؛ لأنه ليس هناك بدعة حسنة، وإنما كلّ البِدَع والمحدثات شرّ؛ لأنَّ الله جلّ وعلا أكمل لنا الدِّين، وما توفي الرَّسول ﷺ إلاَّ بعدما أكمل الله به الدِّين، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلا حاجة إلى إضافات واستحسانات يأتي بها الناس في أمور الدِّين، فيكفينا الدِّين الذي أكمله الله تعالى، ولا حاجة لنا إلى الزيادة.

وقوله ﷺ في الرواية الأخرى: «لقد تركتكم على البيضاء» أي: الجادَّة الواضحة، وهي صراط الله جلَّ وعلا، فمن سار عليه نجا، ومَنْ تركه هلك، فلا طريق إلى الجنة إلاَّ من خلال اتِّباع سُنَّةُ الرسول ﷺ، فمَن تركها كان حالُه كحال الذي أضاع الطريق في مَهلكة.

ويدور على ألسنة بعض الناس قولهم: «تركتكم على المحجَّة البيضاء» وكلمة «محجَّة» لم تثبت عن النبيّ ﷺ وإنما الذي ثبت قوله ﷺ: «تركتكم على البيضاء» وهي المِلَّة والحُجَّة الواضحة التي لا تقبل الشُّبه أصلاً، ولهذا جاء بعدها قوله ﷺ: «ليلها كنهارها» فصار حال إيراد الشُّبه عليها كحال كَشْفها عنها ودَفْعِها.

[هديه ﷺ خير الهدي]

٨٩- ولمسلم(١) عن جابرٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أمّا بعد؛ فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ». [١٠٧]

---

[١٠٧] كان ﷺ يقول في خُطَبه: «أما بعدُ» وهي كلمة يؤتى بها للانتقال من كلام إلى كلام آخر، فهي فاصلة بين كلامين. وقيل: هي فَصْل الخطاب الذي أوتيَه داود عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، فكان ﷺ يحمد الله في خُطَبه ويُثني عليه ثم يقول: «أمّا بعد».

وقوله ﷺ: «فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله» أي: القرآن، والحديث معناه الكلام. والقرآن حديث لأنه كلام الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فالقرآن حديث؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فيسمّى حديثاً ويسمّى قرآناً وكلاماً، وهو خيرُ الحديث، فلا شيء يوازي القرآن؛ لأنه كلام الله جلَّ وعلا، وهو أصدق الحديث.

---

(١) برقم (٨٦٧).

وقوله: «وخيرُ الهَدْي» أي: السُّنة التي تُتَّبع «هَدْي محمد ﷺ» وفي رواية: «أحسنُ الهَدْي هَدْي الأنبياء»[1]. ولكن المعروف والمشهور «خير الهدي هديُ محمد».

وقوله: «شرُّ الأمور محدثاتها» لمّا ذكر ﷺ خير الأمور ذكر شرَّها، وهي المحدثات التي تُحدَث في الدِّين. وفي هذا ما يدلُّ على أنه لا يكفي من المرء أن يبيِّن للناس الحقَّ ويترك بيان الباطل، كما يقول بعض الجُهّال: علِّموا الناسَ التوحيد ولا داعي لتعليمهم الشرك! والصحيح في ذلك هو ذِكر النقيض أيضاً لأجل أن يجتنبوه، والرسول ﷺ ذكر الأمرين، فلمّا ذكر الخير ذكر أيضاً الشرَّ لأجل أن يحذره الناس، فلا بدَّ من بيان الخير وبيان الشر، ولهذا نجد في كتب العقائد بياناً للتوحيد وبياناً للشرك، ونجد فيها بيانَ قول أهل السُّنة والجماعة وبيان قول الطوائف الضالَّة من أجل الحذر منهم؛ ولهذا قال ﷺ: «وشرَّ الأمور محدثاتها» وهي البدع.

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» ٢/ ٢٦٣ (١٣٢٣) من حديث زيد ابن خالد الجهني ﷺ.

وقوله ﷺ: «وكل بدعة ضلالة» هذا زيادة توضيح منه ﷺ، وفي هذا نفيٌ وردٌّ لَمن يقول بوجود بدعة حسنة، وكلمة «كل» فيها ردٌّ للقائلين بهذا القول، وجاء في بعض الروايات «وكل ضلالةٍ في النار»[1].

(١) أخرجه النسائي (١٥٧٨)، من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.

[معصية الرسول ﷺ توجب دخول النار]

٩٠- وللبخاري[1] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدخلون الجنَّة إلاَّ مَنْ أَبى» قيل: ومَنْ أبى؟ قال: «مَنْ أطاعني دَخَلَ الجنَّة، ومَنْ عصاني فقد أبى». [١٠٨]

---

[١٠٨] هذا الحديث فيه أنَّ مَنْ أطاع الرَّسول ﷺ دخل الجنَّة، فالذي يريد الجنة عليه بطاعة الرَّسول ﷺ، وقد بيَّن ﷺ كيف أن الإنسان يأبى دخول الجنّة، وذلك بعصيانه ومخالفة أمره ﷺ.

وفي هذا دليل على أنَّ طاعة الرسول ﷺ هي السبب لدخول الجنَّة وأنَّ معصيته هي السبب للحرمان من الجنَّة والدخول في النار، لأن طاعته ﷺ إنما هي طاعة لله جلَّ وعلا، وهو ﷺ لا يأمر إلا بما أمر الله به، فمَن فعل ما أمره به الرسول ﷺ فإنما أطاع الله جلَّ وعلا، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) برقم (٧٢٨٠).

[سنة الرسول ﷺ هي السُّنة السمحة]

٩١- ولهما(١) عن أنسٍ ﵁، قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى أزواج النبيِّ ﷺ يَسألون عن عبادة النبيِّ ﷺ، فلمّا أُخبِروا بها كأنّهم تقالُّوها فقالوا: أين نحنُ مِنَ النبيِّ ﷺ، قد غُفِر له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِه وما تأخّر، فقال أحدُهم: أمّا أنا فأُصلِّي اللَّيلَ أبداً، وقال الآخَرُ: أنا أصومُ النَّهارَ ولا أُفطِرُ، وقال الآخَرُ: أنا أَعتزِلُ النِّساءَ فلا أتزوَّجُ أبداً، فَجاء النبيُّ ﷺ فقال: «أنتم الذين قُلتم كذا وكذا، أمَا والله إنِّي لَأخشاكُم لله وأتقاكُم له، لكنِّي أصومُ وأُفطِر، وأُصلِّي وأرقُد، وأتزوَّج النِّساءَ، فمَن رَغِب عن سُنَّتي فليس منِّي». [١٠٩]

---

[١٠٩] في هذا الحديث بيان أنَّ سُنة الرَّسول ﷺ هي السُّنة السَّمحةُ والسَّهلة التي ليس فيها تشدُّد ولا غُلوّ ولا تطرُّف، كما أنه ليس فيها تساهلٌ، فهي سُنَّةٌ معتدلة، بعيدةٌ عن الإفراط والتفريط.

قوله: «جاء ثلاثةُ رَهْطٍ» أي: من الصَّحابة؛ والرَّهط: من ثلاثة إلى عشر، «إلى أزواج النبي ﷺ» وهذا من حرصهم رضي الله عنهم على الخير، وهم إنما أرادوا الرُّجوع إلى سنَّة النبيِّ ﷺ ليبنوا عليها ما

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم بنحوه (١٤٠١).

هم عليه من العبادة، وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون فيرجع إلى سُنَّة الرَّسول ﷺ دون أن يبتدع شيئاً من عنده، فهؤلاء رضي الله عنهم لم يعتمدوا على اجتهادهم، وإنما ذهبوا إلى بيوت النبيِّ ﷺ؛ لأنه هو القدوة، فسألوا عن عمله لأجل أن يقتدوا به، فلما ذكرت لهم نساءُ النبيِّ ﷺ عبادته عليه الصلاة والسلام «كأنَّهم تقالُّوها» أي: رأى كلٌّ منهم أنها قليلة، ثم إنهم اعتذروا لرسول الله ﷺ؛ بمعنى أنهم قالوا: إن رسولَ الله ﷺ مغفورٌ له ما تقدَّم من ذَنبه وما تأخَّر؛ أي: إنه ﷺ ليس بحاجة إلى زيادة عبادة، وأين نحن منه وقد غفر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ومع أنه ﷺ مغفور له إلاّ أنه لم يترك العبادة بل قام حتى تفطرت قدماه من طول القيام، ولمّا قالت له عائشة رضي الله عنها، لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ وذلك بعدما رأت أنه قد تفطَّرت قدماه ﷺ من كثرة ما كان يقوم من الليل، قال: «أفلا أُحبُّ أن أكون عبداً شَكوراً»[1]، فالرَّسول ﷺ كانت سُنَّته الاعتدال، فكان يصوم ويفطر، ويصلي

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧).

وينام، وكان يتزوَّج النساء، فلا يحرم نفسَه من الراحة، ولا من المتعة عليه الصلاة والسلام، وفي الوقت نفسه لم يكن ليتركَ العبادة بل كان يُعطيها حقَّها، فكان ﷺ يجمع بين هذا وهذا؛ فيُعطي نفسَه حقَّها من أمور الدُّنيا، ويُعطي العبادة حقَّها من أمور الدِّين.

وقوله: «كأنَّهم تقالُّوها» أي: استقلُّوها وعدُّوها قليلة، ولكنهم اعتبروا أن هناك فرقاً بينهم وبين الرَّسول ﷺ، حيث غفر الله له ذنبه ما تقدَّم منه وما تأخر، وقالوا: نحن بحاجة إلى الزيادة، وأين نحن من رسول الله ﷺ! هكذا اجتهدوا رضي الله عنهم، وقال كلٌّ منهم مقالته مبيِّناً وذاكراً ما عليه حاله من العبادة من قيام الليل وصوم النهار واعتزال النساء، فلمّا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ غضب ثم قال: «أنتم الذين قلتم كذ وكذا، أمَا والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوَّج النساء، فمَن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي»؛ فمَن مال إلى التشدُّد وإلى حرمان نفسه ممّا أباح الله لها من الراحة والشهوة والاستجمام، وحمل نفسَه على الجدِّ أبداً، فهو مخالفٌ لسُنَّة الرسول ﷺ.

ففي قوله ﷺ: «فمَن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي» دليل على

تحريم التشدُّد والتنطُّع في العبادة، وتحريم الغُلوّ والإفراط فيها.

وفيه أنَّ على الإنسان أن يعتدل وأن يأخذ من الدِّين بقَدْر ما يستطيع فلا أحد يستطيع أن يستكمل الدِّين كلَّه، ولهذا قال ﷺ: «لن يُشادَّ الدِّين أحدٌ إلا غَلَبه»(١)، فلا أحد يستطيع أن يصل بنفسه إلى درجة الكمال، ولهذا قال ﷺ: «إن المُنْبَتَّ لا سفراً قَطع ولا ظَهراً أبقى»(٢)؛ والمُنْبَتُّ: هو الذي قُطع مركوبُه من شدَّة السير، مأخوذٌ من البَتِّ: وهو القَطع؛ أي: صار منقطعاً لم يصل إلى مقصوده وفَقَد مركوبه الذي كان سيوصله لو رَفَق به، والراحلة هي النفس، فإذا شَددتَ عليها قطعتك، فعلى المرء أن يأخذ من الطاعات كقيام الليل والصيام وسائر العبادات دون تشديد على نفسه، لأنَّ الاعتدال هو الطريق الصحيح، وفي الحديث: «أحبُّ العملِ إلى الله أدوَمُه وأنْ قَلَّ»(٣)، ففي العمل القليل مع المداومة عليه خيرٌ كثير، بخلاف العمل الكثير المنقطع؛ فالوسط والاعتدال هو الخير وهو أضمنُ للاستمرار، وأمّا الفرائض فلا بدَّ منها وهي ليس فيها تشدُّد ولله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٣/ ٤٠٤ من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً]

٩٢- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بدأ الإسلامُ غَرِيباً وسَيعود غَريباً كما بدأ، فطُوبى للغُرباء» رواه مسلم[١]. [١١٠]

---

[١١٠] قوله: «بدأ الإسلام» أي: في أول بعثة النبي ﷺ لـمّا دعا الناس إلى توحيد الله تعالى ممتثلاً قول ربِّه سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢] فاستجاب له ﷺ الأفرادُ على خوفٍ من الكفّار؛ ولهذا قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً» والغريبُ: هو الإنسان الذي فارق وطنه وأهله، فسار في بلد غير بلده وبين أُناسٍ غير أهله وأقاربه، وقد قال النبيُّ ﷺ لابن عمر: «كُنْ في الدُّنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»[٢].

والإسلام أول ما بدأ كان أتباعُه قليلين، وهم غرباء في وسط المجتمع الكافر في مكّة، ولـمّا سأل عمرو بن عَبَسة النبيَّ ﷺ: مَنْ معك على هذا الأمر، قال ﷺ: «حُرٌّ وعبدٌ»[٣] أي: أبوبكر وبلال رضي الله عنهما، ثم ازداد عدد المسلمين الذين دخلوا في الإسلام

---

(١) برقم (١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤) من حديث عمرو بن عبسة ﷺ.

في مكّة ومن مختلف القبائل، ثم إنه بعد الهجرة وتشريع الجهاد زادت أعدادهم، إلى أن فتح الرّسول ﷺ مكّة فدخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم إنه بعد وفاته ﷺ وحصل ما حصل من ردّة كثير من القبائل العربية وقف أبوبكر الصدّيق رضي الله عنه الموقف الحازم، فجاهد المرتدّين حتى أخضعهم لحكم الإسلام.

وفي عهد عمر بن الخطاب ﷺ انتشرت الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، حتى وصل الإسلام إلى كثير من أصقاع الأرض وانتشر انتشاراً هائلاً، وبلغ الإسلام ما بلغ الليلُ والنهارُ؛ قال الله جلّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، فظهر دين الله عزّ وجلّ على سائر الأديان، وكثُر أتباعُه.

وبعد ذلك جاءت خلافة بني أميّة وانتشر الإسلام واتّسعت الفتوحات وامتدّت حتى خلافة بني العبّاس، وتلا ذلك فتنة التتار وحصل فيها على المسلمين ما حصل، ثم ما زال الإسلام يَضعُف ويَقلُّ أهلُه إلى أن يعود في آخر الزّمان غريباً كما بدأ، فيكون عليه القِلَّة من الناس، والمراد بالإسلام: الإسلام الحقيقي لا الإسلام

المُدّعى الذي عليه كثيرٌ من الناس، ولكن العبرة بالإسلام الحقيقي، وهو الذي لا يكون عليه سوى قلّة من الناس الذين يكونون كالغُرباء، ولهذا جاء أنَّ المسلمين بالنسبة للأمم الأخرى غرباء، وأهل السُّنة والجماعة بالنسبة للفِرَق المخالفة التي تدَّعي الإسلام غُرباء كذلك، وسيؤول الأمر إلى ما أخبر عنه ﷺ فيعود الإسلام غريباً وما عليه إلاّ القلّة من الناس الذين يتمسّكون به تمسُّكاً صحيحاً، فهناك مَنْ يدَّعي الإسلام ولكنه ليس على حقيقة ما ادّعاه، وإنما هي مجرّد دعوى لا وزن لها، وهناك مَنْ يدَّعي الإسلام ويتشدَّد فيه حتى يخرج منه ليصبح كالخوارج والغُلاة، لأنَّ الإسلام الحقيقي ليس فيه غُلوٌّ ولا تشدُّد وهو الإسلام الصحيح، وهذا يَقِلُّ أصحابه في آخر الزّمان حتى يكون غريباً.

ولا بدَّ من وقوع ما أخبر به ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وهذا خبرٌ منه ﷺ معناه الحثُّ على التمسُّك بالإسلام عند حصول الغُربة، لئلاّ ينجرف الإنسان مع التيارات المختلفة والمنحرفة بل يثبت على الإسلام مهما ناله وأصابه من المضايقات والأذى حتى ممّن ينتسبون إلى الإسلام وغيرهم من الكفّار، حتى يغدو غريباً بين

الناس، وقد جاء في الحديث أنه يأتي زمان «المتمسِّك بدينه كالقابض على الجمر، أو على خَبَطِ الشَّوكَةِ»(١) فما أحوج المسلم في ذلك الوقت إلى الصبر، وإلاَّ فإنه سينحرف، وقد سئل ﷺ عن الغرباء؟ فقال: «الذين يَصلحون إذا فسد الناس»(٢)، وفي رواية «الذين يُصلحون ما أفسدَ الناسُ»(٣) فهؤلاء هم الغُرباء، يَصلُحون في أنفسهم، ويُصلحون ما أفسده الناس، ومَن يصبر على هذا إلاَّ أهلُ الإيمانِ والثبات.

وكما أنَّ الإسلام في غربته الأولى نال أهلَه من الأذى والمضايقات ما نالهم فسينال المسلمين في آخر الزَّمان المتمسِّكين بالإسلام أشدُّ ممَّا نال الأوَّلين، لأنَّ الأوَّلين فيهم رسول الله ﷺ، ولكن في آخر الزَّمان نجد أنَّ المتمسِّك بالإسلام ليس له أعوانٌ ولا أنصار، بل هو واقع بين أعداء كثيرين، وقد يكون بعض هؤلاء الأعداء من أهله أو حتى من أولاده وإخوانه وجيرانه، فيحتاج المسلم المتمسِّك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٩٠٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٩٠) من حديث عبد الرحمن بن سَنَّة ﷺ.

(٣) هي عند الترمذي (٢٦٣٠) من حديث عمرو بن عوف المزني ﷺ.

بدينه إلى صَبر وثبات؛ ولهذا فإنه ﷺ قال: «فطُوبى للغرباء»؛ وذلك لموقفهم الثابت.

ومعنى قوله ﷺ: «طُوبى للغرباء» أي: إن هؤلاء الغرباء الفرح والخير وقُرَّة العين، أو نِعْمَ ما هم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]. وقيل: «طوبى»: شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مئة عام، تخرج منها حُلَل أهل الجنَّة. وقيل: الجنَّة تسمّى طُوبى فتكون هذه للغرباء في آخر الزَّمان، فلهم الجنّة عوضاً عمّا فاتهم في الدُّنيا من الراحة والتلذُّذ بالعيش، فيُعوِّضهم الله نعيماً لا ينفد.

فهذا حديث عظيم يدلُّ على هذه الأمور العظيمة، وفيه الحثُّ على التمسُّك بالإسلام مهما وصل المسلمَ من الأذى والمضايقات، فمَن أراد الأجر ليكون من أهل طوبى فليصبر على ما هو عليه من الدِّين الصحيح ومن الحقِّ.

[علامة الإيمان حبُّ ما جاء به الرسول ﷺ]

٩٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هَواهُ تبَعاً لِما جئتُ به»، رواه البغوي في «شرح السُّنة» وصحَّحه النووي(١). [١١١]

[١١١] قوله ﷺ: «هواهُ» يعني: رغبته ومَيْله ومحبّته لِما جاء به الرَّسول ﷺ وإن خالف هواه وما تريده نفسُه، فإذا بلغ هذه المنزلة فصار يُحبُّ ما يحبُّه الرَّسول ﷺ اعتُبر هذا علامة من علامة الإيمان.

وهذا الحديث رواه البغوي في «شرح السُّنة» وهو كتاب جليل مطبوع في أربعة عشر مجلَّداً، وهو مرجع من مراجع الإسلام، والبغوي: هو الإمام محيي السُّنة مسعود البغوي، له التفسير المشهور المسمى «معالم التنزيل» وله «شرح السُّنَّة».

وقوله: «صحَّحه النووي» أي: في «الأربعين النووية» فقال: حديث صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح؛ وكتاب «الحجَّة» اسمه «الحجَّة على تارك المحجّة» وهو كتاب طُبع أخيراً

(١) انظر «شرح السُّنة» (١٠٤).

محقَّقًا، للفقيه نصر المقدسي. فالإمام النَّوَوي حكم بصحة إسناد هذا الحديث، بينما الحافظ ابن رجب في «شرح الأربعين» ضعَّف هذا الحديث، ولكنَّ الحديث له شواهد من القرآن الكريم. والله جل وعلا يقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فالآية واضحة في أنَّ المسلم لا يكره حُكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ ولو كان يخالف رغبته، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:٩]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد:٢٦]؛ فالآيات تشهد للحديث في أنه يجب على المسلم أن يكون هواه تابعاً لِما جاء به الرسول ﷺ، فإن كان هواه مخالفاً لِما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر؛ لأن من نواقض

الإسلام بُغض الرسول ﷺ أو بُغض ما جاء به، وأمّا إن كان لا يُبغض ما جاء به الرسول ﷺ ولكنه يتكاسل ويتثاقل عن العمل بما جاء به الرّسول ﷺ فهو ناقص الإيمان ولا يكون مرتداً، فيكون قوله ﷺ: «لا يؤمن» يعني: لا يؤمن الإيمان الكامل، أي: نفيٌ لكمال الإيمان، وأمّا إن كان يبغض ما جاء به الرسول ﷺ فهو نفيٌ للإيمان وأصل الإيمان.

[صفات الفرقة الناجية من النار]

٩٤- وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيأتينَّ على أُمَّتي كما أتى على بني إسرائيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعل، حتى إن كان فيهم مَن أتى أُمَّه عَلانيةً لكان في أُمَّتي مَنْ يَصنعُ ذلك، وإنَّ بني إسرائيلَ افتَرقتْ على ثنتينِ وسبعين مِلَّةً وستفترقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّةً، كلُّهم في النّار إلاّ واحدةً» قالوا: مَنْ هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأَصحابي» رواه الترّمذي[١]. [١١٢]

[١١٢] هذا الحديث فيه فوائد عظيمة، فيه أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر عن وقوع التشبُّه باليهود والنصارى، وقد نُهينا عن التشبُّه بهم، فقال ﷺ: «مَنْ تشبَّه بقوم فهو منهم»[٢]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وهذا الحديث أقلُّ أحواله أنه يقتضي تحريم التشبُّه بهم، وإن كان ظاهرة يقتضي كُفر المتشبِّه بهم[٣]. وذلك أن مَنْ تشبَّه بهم في الظاهر فهذا دليل على أنه يُحبُّهم في الباطن، إذْ لو كان يُبغضهم

(١) برقم (٢٦٤١).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥١١٤)، وأبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/ ٨٣.

في الباطن لَما تشبَّه بهم، فلا يجوز التشبُّه بالكفار وبعباداتهم ودينهم ولا في عاداتهم وتقاليدهم؛ لأنَّ المسلمين أعزُّ الأمم، فينبغي عليهم الاعتزاز بدينهم فلا يقلِّدون أحداً إلا أهل الخير والدِّين والصلاح من المسلمين، ولا يقلِّدون أهل الضَّلال والكفر والإلحاد، بل يترفَّعون عن ذلك ويستقلُّون بشخصيَّتهم، وإن كان بعض مَنْ يتشبَّهون بالكفَّار يريد الرُّقي والكمال فيرى أنهم متقدِّمون في الجانب الحضاري والتشبُّه بهم - في زعمه - رُقيّ، وهو في حقيقته ضلال، فقد قال عمر بن الخطاب: نحن أُمَّة أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزَّة بغيره أذلَّنا الله[1].

وقد أخبر الرَّسول ﷺ أنَّ التشبُّه سيكون «حَذْوَ النَّعل بالنَّعل»؛ يعني: لا يُترك شيء من أفعالهم إلا ويفعله المتشبِّه بهم، حتى يُصبح مثلهم كما يُشْبه النَّعلُ النَّعلَ الآخر، سواء بسواء، فيقلِّدهم ويتشبَّه بهم في كلِّ شيء، وما يجري في وقتنا الحاضر يشهد لذلك، فقد أصبح تقليد الكفَّار والتشبُّه بهم منتشراً حتى في الأمور التافهة والحقيرة،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٧/ ١٠ (٣٣٨٤٧)، والحاكم في «المستدرك» ١/ ١٣٠ (٢٠٧) من حديث طارق بن شهاب.

فيتخذونها على أنها من الرُّقي والتقدم، وهم يعلمون أنها تافهة وحقيرة، لا لشيء إلا لأنَّ الكفَّار يفعلونها، فهذا مصداق قوله ﷺ: «حَذْوَ النَّعل بالنَّعل»، وفي حديث: «حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعتموهم»[1]، بل هناك ما هو أشدُّ من ذلك، وهو قوله ﷺ: «إن كان منهم مَنْ أتى أُمَّه علانيةً لكان في أُمَّتي مَن يصنع ذلك»؛ والتشبُّه بالكافر في وقتنا الحاضر على مصراعيه، وربما يبلغ إلى الحدِّ الذي ذكره الرَّسول ﷺ؛ فإذا كان الزِّنى محرَّماً وهو من أشدِّ الكبائر؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فكيف إذا كان هذا في ذات مَحْرَم، فهو أشدّ، وكيف إذا كان بالأم، فهو أشدُّ وأشنع، ولكن سيبلغ التشبُّه والتقليد للكفار لدرجة أنه إن كان فيهم مَنْ يزني بأُمِّه علانية فسيكون في هذه الأمَّة مَنْ يزني بأُمِّه؛ وهذا تحذير منه ﷺ بأنْ لا نَنساقَ وراء التشبُّه بالكفَّار.

وقوله ﷺ: «وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين مِلَّة» فاليهود والنصارى كذلك افترقوا في دينهم، فالنصارى افترقت إلى إحدى وسبعين فرقة، واليهود افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة،

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وكلُّ هذا من باب التشبُّه باليهود والنصارى، لـمّا افترقوا في دينهم تشبَّه بهم من هذه الأمّة مَنْ تفرَّقوا في دينهم، مع أن الواجب هو أن يكون الدِّين واحداً، لا اختلاف فيه ولا تفرُّق؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] فالواجب على المسلمين هو اجتماع كلمتهم على الحق، وعلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وعلى عدم التفرُّق والاختلاف، ولكن سيقع ما قضى الله وقدَّر وأخبر عنه الرسول ﷺ من أنَّ هذه الأمة ستفترق، وقد افترقت على ثلاث وسبعين فرقة وأكثر.

وقوله ﷺ: «كلّها في النار» هذا وعيدٌ منه ﷺ لهذه الفرق في أنه سيكون منهم مَنْ هو في النار لكفره إذا بلغ التفرّق درجةَ الكفر، ومنهم من يكون في النار لضلاله، وقد يدخل النار مَنْ لا يخلَّد فيها، بل يعذَّب فيها ثم يخرج منها، فهم كلُّهم متوعَّدون بالنار، إمّا لكفرهم وإمّا لضلالهم.

وقوله ﷺ: «إلَّا واحدةً» أي: كلُّهم متوعَّدون بدخول النار إلَّا فرقة واحدة «قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي» فلا ينجو من النار إلَّا هذه الفرقة، ولذلك تُسمَّى الفرقة الناجية، وهم أهل السُّنة والجماعة؛ فتسمَّى بالناجية؛ لأنها نَجَتْ من النار بتمسُّكها بما كان عليه الرَّسول ﷺ وأصحابُه، ولم يفترقوا ويختلفوا، قال ﷺ: «فإنه مَنْ يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»[1]، فلا ينجو من النار إلَّا مَنْ كان على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وأمَّا مَنْ خالف وذهب مع الفرق فإنه معرَّض للوعيد بالنار.

ففي الحديث النهي عن التفرُّق والاختلاف، ولكن الاختلاف من طبيعة البشر، ولكن الله جلَّ وعلا جعل لهم مخرجاً من هذا الاختلاف وهو الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧١٤٤)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﵁.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فالمخرج من الخلاف أو الاختلاف هو الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، فالمرجع الذي يُعرف به الحقّ من الباطل ممّا اختلف فيه الناس هو كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ؛ لأن كلَّ فرقةٍ ستدَّعي أنها على الحقّ وغيرها على خطأ أو ضلال، ولكنَّ الفصل هو الرجوع إلى ما كان عليه الرَّسول ﷺ وأصحابه، وإلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

[أجر من دعا إلى هدًى]

٩٥- ولمسلم[١] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ دعا إلى هدًى كان له مِنَ الأجرِ مثلُ أجورِ مَنْ تَبِعَه لا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومَنْ دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِنَ الإثمِ مثلُ آثامِ مَن تَبِعَه لا يَنقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً». [١١٣]

---

[١١٣] في هذا الحديث أنَّ الدَّعوة إلى كانت إلى حقٍّ فهي مشروعة ومطلوبه؛ قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالدَّعوة إلى الحق مطلوبة ومأمورٌ بها، وفيها فضل عظيم.

وقوله ﷺ: «مَنْ دعا إلى هدًى» أي: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ «كان له من الأجر مثلُ أجور مَنْ تَبِعَه» أي: يناله أجرٌ عظيم؛ لأنَّ كلَّ مَنْ تبعه واقتدى به وعمل بالهدى، فإنَّ الدَّاعي الأول له مثل أجور مَنْ تَبِعَه إلى يوم القيامة، فالرسول ﷺ له مثل

---

(١) برقم (٢٦٧٤).

أجور أُمَّتِه، وكذلك أئمَّة الإسلام الذين دعوا إلى الله تعالى وألَّفوا الكتب واهتدى الناس بدعوتهم على اختلاف العصور لهم من الأجر مثل أجور مَنْ تبعهم إلى يوم القيامة، وفي هذا فضلٌ عظيم، وخيرٌ كثير.

وقوله ﷺ: «ومَنْ دعا إلى ضلالة» الضلالة ضد الهدى، أي: دعا إلى باطل وبدع ومحدثات وخرافات وإلى شركيّات «كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»؛ لقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فدُعاة الضلال عليهم من الآثام مثل آثام مَن اقتدى بهم وعمل بالضلال تَبعاً لهم، فيتحملون ذلك ويجري عليهم الإثم حتى وهم أموات. وأمّا دُعاة الحقّ فيجري عليهم الأجر وهم أموات كما قال ﷺ: «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»(١). فيجري أجرُ العلم على صاحبه إلى يوم القيامة، حتى وهو ميت، وفي هذا خير كثير.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ففي الحديث فَضْلُ الدَّعوة إلى الله عز وجل، وهي الدَّعوة إلى الحقِّ، وفيه النهي والتحذير من الدعوة إلى الضلال، وفيه أنَّ الدُّعاة ينقسمون إلى قسمين: دُعاة هدًى، ودعاة ضلال، وهذا واقع في حياة الناس اليوم، ودعاة الضلال في وقتنا الحاضر أكثر من دُعاة الهدى، فلا يُغترُّ بهم.

٩٦- وله[1] عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ قال: إنه أُبدِعَ بي فاحمِلْني، فقال: «ما عندي»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أنا أدلُّه على مَنْ يَحمِلُه، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دلَّ على خيرٍ فلَهُ مثْلُ أجرِ فاعِلِه». [١١٣]

---

[١١٣] وهذا الحديث كسابقه في بيان عِظَمِ أجرِ فِعْلِ الخير والدلالةِ عليه والدعوة إليه، وأنَّ أجرَه يكون مثل أجرِ فاعله.

وقوله: «أُبدِعَ بي» أي: انقطعت راحلتي، أو هلكتْ دابَّتي وهي مركوبي. فطلب من النبيِّ ﷺ أن يحمله بأن يُعطيه دابَّةً يركبها ويَحمل عليها، والنبيُّ ﷺ اعتذر إليه بقوله: «ما عندي» فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أدلُّه على مَنْ يَحمِلُه.

وقوله ﷺ: «مَنْ دلَّ على خيرٍ فلَه مثْلُ أجرِ فاعِلِه» والدلالة على الخير تشمل الخير المعنوي، وتشمل كذلك الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك مَنْ دلَّ أحداً على آخر يُعينه، كمَن دلَّ محتاجاً على واحدٍ من المحسنين ليُعينه، فله من الأجر مثل أجر المُحسِن الذي حقَّق طلب هذا المحتاج.

---

(١) مسلم برقم (١٨٩٣).

ففي الحديث الحثُّ على التعاون على البرِّ والتقوى، وفيه أنَّ مَنْ دلّ على الخير كان له من الأجر مثل أجر فاعله، وهذا ترغيب للدلالة على الخير المعنويّ والحسِّي.

[أجر مَنْ أحيا سُنة من سُننه ﷺ]

٩٧- وعن عَمرو بن عوفٍ ﷺ مرفوعاً: «مَنْ أحيا سُنَّةً مِن سُنَّتي قد أُميتَتْ بَعدي، فإنَّ له مِنَ الأجرِ مثلَ مَنْ عَمِلَ بها مِنْ غيرِ أنْ يَنقُصَ مِنْ أُجورِ الناسِ شيئاً، ومَنِ ابتَدعَ بِدعةَ ضلالةٍ لا تُرضي اللهَ ورَسولَه كان عليه مثلُ إثمِ مَنْ عَمِلَ بها مِنَ الناسِ لا يَنقُصُ مِنْ آثامِ الناسِ شيئاً» رواه الترمذي وحسَّنه وابن ماجه، وهذا لفظه[1]. [١١٤]

---

[١١٤] قوله ﷺ: «مَنْ أحيا سُنَّةً من سُنَّتي قد أُميتَتْ» المراد: مَن عَمِلَ بسُنَّةٍ من سُنن الرَّسول ﷺ بعد أنْ تُركت من الناس أو جهلوها ثم نَشرها أحدُ الناس كان «له من الأجر مثل مَنْ عَمل بها»؛ ففي هذا الحثُّ على إحياء السُّنَن التي قد نسيها الناسُ أو جهلوها.

وقوله ﷺ: «ومَنِ ابتَدعَ بدعةَ ضلالةٍ لا تُرضي اللهَ ورسولَه كان عليه مثل إثم مَنْ عمل بها» هذا فيه أنَّ من أحيا أو ابتدع بدعة فعليه من الإثم مثل آثام مَنْ عمل هذه البدعة، وفي هذا أيضاً ردٌّ على مَنْ يُروِّجون للبدع من إحياء الموالد وزيارة آثار الصالحين والتبرُّك بها، فهؤلاء عليهم من الإثم مثل آثام مَنْ تبعهم.

---

(١) الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (٢١٠).

[أسباب الفتن]

٩٨- وعن ابن مسعودٍ ﷺ قال: كيف أنتم إذا لَبِسَكُم فتنةٌ يَرْبو فيها الصَّغير، ويَهرم فيها الكبير، وتُتَّخذ سُنَّةً يَجري الناسُ عليها، فإذا غُيِّر منها شيءٌ قيل: تُركتْ سُنَّةٌ، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرَّحمن؟ قال: إذا كثُر قُرَّاؤكم وقَلَّ فقهاؤكم، وكثُرت أموالُكم وقَلَّ أُمناؤكم، والتُمِسَتِ الدُّنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّهَ لغير الدِّين. رواه الدارمي(١). [١١٥]

[١١٥] هذا أثرٌ عظيم من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الصحابيِّ الجليل، قوله: «كيف أنتم» أي: كيف يكون حالكم؟ أو كيف تكونون؟

وقوله: «إذا لبستكم» أي: خالطَتْكُم«فتنةٌ يربو عليها الصغير» يعني: ينشأ عليها الأطفال، «ويَهرم عليها الكبير» أي: يكبرُ ولم تُغيَّر حتى تستقر ويَظنُّها الجهّال سُنَّة.

وقوله: «فإذا غُيِّر منها شيء قيل: تُركتْ سُنّة» أي: تُتَّخذ السُّنة بدعة، والبدعة تُتَّخذ سُنَّةً، وسيكون هذا في آخر الزَّمان، فإذا ما دعا

(١) في «سننه» ١/ ٧٥ (١٨٦).

أحد الناس إلى سُنَّة الرَّسول ﷺ قالوا: هذا مبتدع، أو خارجي، أو وهَّابي، فيُلقِّبونه بألقاب شنيعة، لأنه خالف ما عليه الناسُ؛ علماً بأنَّ المطلوب هو الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لا ما عليه الناس؛ فدلَّ على أنَّ ما عليه الناس لا يُتخذ حجَّة ما دام مخالفاً لِـمَا جاء في سُنَّة الرَّسول ﷺ وإن تَطاوَل زَمنُها أو توارثها الناس، فلا عبرة بها، فينبغي التفطُّن لهذا الأمر؛ لأنها إذا استقرت في عقول الناس ظنوها سنة لدرجة أنهم يُدافعون عنها ويقولون: غُيِّرت السُّنة لجهلهم بذلك، فدلَّ هذا على أنه يجب المبادرة لإنكار البدع والمحدثات، ولا يجوز السُّكوت عنها، لأنه إذا سكت عنها توارثها الناسُ واحتجوا بها.

وقوله: «قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟» هذه كنيته رضي الله عنه، واسمه عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذلي، من السابقين الأوَّلين إلى الإسلام.

وقوله: «إذا كثُر قُرّاؤكم وقلَّ فقهاؤكم» الفقه: هو الفَهْم في دين الله عزَّ وجل، قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين»[1]،

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فلم يقل جلَّ وعلا: ليحفظوا أو ليقرؤوا وإنما قال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾، فالمدار هنا على الفقه والفهم عن الله ورسوله، وأمّا الذي يحفظ النصوص، ويقرؤها ويُكثر المطالعة في الكتب دون أن يفهمها، فهو من القرّاء وليس من الفقهاء، ومثل هذا يكثر في آخر الزّمان، حيث يكثر القرّاء الذين يحفظون النصوص ويطّلعون على الكتب وليس عندهم فقهٌ وفهمٌ لما تدلُّ عليه، وهذا كما قال ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعُه من العباد، ولكن يُقبض العمل بقبض العلماء، حتى إذا لم يَبْقَ عالِمٌ اتخذ الناسُ رؤوساً جُهّالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأَضلُّوا»[١]، فدلَّ على أن فُقدان الفقهاء في المجتمع خطر عظيم، وأنَّ وجود القرّاء لا يكفي ولا ينفع ولا يُسمن ولا يغني من جوع، بل يضر لأنهم يفتون بغير علم؛ ولهذا قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والأمانيّ: هي القراءة

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فيقرؤون كثيراً ولكنهم لا يفهمون، فينبغي التفقُّه في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، وذلك بالتلقِّي عن أهل العلم والفقه في دين الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] يعني: سافروا إلى الرسول ﷺ وإلى العلماء ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا أن يبقوا في بلادهم أو بواديهم يقرؤون القرآن، لأن هذا لا يكفي، لأن العلم هو الفقه، وليس الحفظ فقط، ولكن الحفظ وسيلة إلى الفقه، والنبيُّ ﷺ يقول: «رُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه»[(١)]، ويقول ﷺ: «رُبَّ مبلَّغٍ أوْعى من سامعٍ»[(٢)]، فقد يسمع المرء ويحفظ دون وعي، ولكن ربّما يُبلغ هذا إلى إنسانٍ فقيهٍ يعرف معناه، فليس المدار على ما عليه الكثير من الشباب اليوم حيث عكفوا على قراءة الكتب ثم تصدَّروا للشرح بعدما قرؤوا، أو تعلَّم بعضهم على يد البعض الآخر وتركوا العلماء، ففي هذا خطر شديد، وهو الذي حذَّر منه ابن مسعود ﷺ، بل حذَّر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٥٩٠)، وأبوداود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

منه الرَّسول ﷺ، فقول ابنِ مسعود ﷺ: «إذا كثُر قرّاؤكم» فدلَّ على أن كثرة القراءة والقرّاء لا يفيد شيئاً.

وقوله: «وقَلَّ فقهاؤكم» هذه هي الآفة، وهي قلَّة وجود الفقهاء أو انعدامهم.

وقوله: «وكثُرت أموالكم وقَلَّ أُمناؤكم» حيث يفشو المال في آخر الزمان وتُنزع الأمانة من قلوب الناس، فيكثر الخداع والغش والكذب في معاملاتهم.

وقوله: «والتُمست الدُّنيا بعمل الآخرة؛ وتُفُقِّه لغير الدِّين» هذا كما في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [هود: ١٥]؛ يعني: يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ويتعلَّم العلم الشرعي لأجل الوظيفةَ وحمل الشهادة لا رغبةً في العلم، ويكون النظر دائماً للمستقبل الدُّنيوي لا الأُخرويّ. وهذا واضح من عمل بعض الناس اليوم حيث يطلبون الدُّنيا في أمور الآخرة إلا مَنْ رحم الله، فالواجب على المسلم أن يُخلص عمله لله سبحانه وتعالى، وهذه الأحوال هي التي تكثُر فيها البدع والمنكرات، لأن كلَّ واحد منهمك في دُنياه!

[ذكر ما يمكن أن يهدم الإسلام]

٩٩- وعن زياد بن حُدير ﷺ قال: قال لي عمرُ ﷺ: هل تَعرفُ ما يَهدمُ الإسلامَ؟ قلت: لا، قال: يَهدِمُه زَلَّةُ العالِمِ، وجِدالُ المنافقِ بالكتاب، وحُكمُ الأئمةِ المُضِلِّين. رواه الدارمي أيضاً(١). [١١٦]

---

[١١٦] هذا الأثر عن عمر بن الخطاب ﷺ، أميرِ المؤمنين، وقد بيَّن ما يمكن أن يهدم الدِّين، ويسيء إلى الإسلام وأهله.

فقوله: «زَلَّة العالِم» لأنَّ العالِمَ إذا أخطأ وأفتى بفتوى خاطئة، اتَّخذها الناس على أنها فتوى من عالِم، وهذا مما يُوجب على العالم الحذر من الإقدام على الفتوى إلاَّ إذا تثبَّت من دليلها من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فلا يتسرَّع في الفتوى فيُفتي ويأخذها الناس على أنها صواب لأنها من عالِم، بخلاف فتوى العوامِّ الذين لا عبرة بما يصدر منهم؛ لأن الناس يعرفون أنه لا يصلح للفتوى، ولكن المشكلة أن يصدر الخطأ في الفتوى من العالم المعروف بالعلم! وهذا مما يؤكِّد ويُوجب على العلماء أن يتأكَّدوا ويتحرَّوا ويتثبَّتوا في الفتوى؛ لئلا يخطؤوا فتصير فتواهم حجَّة للناس والعوامّ فيأخذون بها وهي خطأ.

وقوله: «وجدال المنافق بالكتاب» المنافق: هو الذي يُظهر الإسلام

---

(١) في «سننه» ١/ ٨٢ (٩٩).

ويُبطن الكُفر، ويحفظ القرآن ويقرأ الكتب، ويتعلّم حتى يكون عليم اللسان لا عليم القلب، فتراه يُجادل بالكتاب والسُّنة لأنه يحفظ النُّصوص ويُغرِّر بالناس، كما يفعل بعض الكتّاب في وقتنا الحاضر الذين يلتمسون بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة للدلالة على مقالاتهم الضالّة، وفي هذا خطر عظيم، لأنه إذا ما برز المنافقون في الكتابة والتأليف والخطب والمحاضرات والندوات فستكون الأمّةُ على خطر؛ لأن الناس لا يعلمون نفاقهم، ولا يعلمون أنهم لا يفهمون الكتاب والسُّنة، فإنهم إذا ما سمعوا الآية أو الحديث ربما يقتنعون بما يصدر عن هؤلاء.

وقوله: «وحُكم الأئمّة المـُضلّين» والمراد بهم السلاطين المضلُّون الجبابرة الذين لا يريدون الحقَّ، فهم يهدمون الإسلام؛ لأنَّ الناس يتبعونهم، إمّا خوفاً من سطوتهم، وإمّا رغبةً فيما عندهم من حُطام الدُّنيا؛ فأخطر ما يكون على المسلمين هؤلاء الأصناف الثلاثة، وقد قال ﷺ: «إنما أخاف على أُمّتي الأئمة المضلّين»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٣)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢) من حديث ثوبان ﷺ.

[الدعوة إلى الاقتداء بالسَّلف الصالح]

١٠٠- وعن حذيفةَ ﷺ قال: كُلُّ عبادةٍ لا يَتعبَّدُها أصحابُ رسولُ الله ﷺ فلا تَعبدوها، فإنَّ الأوَّلَ لم يَدَعْ للآخِرِ مقالاً، فاتقوا الله يا معشَرَ القُرَّاءِ وخُذوا طريقَ مَنْ كان قَبلَكم. رواه أبو داود[١]. [١١٧]

---

[١١٧] هذا مرَّ نحوه في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه والذي فيه قوله ﷺ: «كلُّهم في النار إلاّ واحدة» قالوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[٢]، وهنا يقول حذيفةُ رضي الله عنه: كلُّ عبادة لا يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ فلا تعبدوها.

فالصحابة هم القدوة بعد الرَّسول ﷺ؛ لأنهم تلاميذ الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخذوا، وتلقَّوا العلمَ عنه، وقد قال ﷺ: «خيرُكم قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونَهم»[٣]، فهم أفضل الأمَّة وهم القدوة بعد الرسول ﷺ؛ لأنهم أُمناء على دين الله، فيؤخذ عنهم العلم والدِّين.

---

(١) ليس عند أبي داود، وأخرجه بنحوه البخاري (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

وقوله: «فإنَّ الأوَّل لم يَدَع للآخِر مقالاً» أول الأمَّة: هم الصحابة والتابعون والقرون المفضَّلة لم يَدَعوا لـمَن جاء بعدهم مقالاً، فقد بيَّنوا الدِّين وبيَّنوا الحقَّ وقعَّدوا القواعد، فهذا فيه الترغيب بالتمسُّك بما كان عليه السَّلف الصالح، وفيه التحذير ممَّن جاء بعد القرون المفضَّلة إلاَّ مَنْ كان سائراً على ما كان عليه السَّلف الصالح من الأئمَّة الهُداة.

وقوله: «فاتقوا الله يا معشر القرّاء وخذوا طريقَ مَنْ كان قبلكم» أي: اتبعوا سبيل العلماء، الذين يقرؤون كتاب الله ويتَّبعون سُنَّة رسول الله ﷺ. ولا تُحدِثوا شيئاً من عندكم، أو تأخذوا عمَّن جاء بعد هؤلاء.

١٠١- وعن ابن مسعود ﷺ قال: مَنْ كان مُستَنّاً فليستَنَّ بمَن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تؤمَن عليه الفتنةُ، أولئك أصحابُ محمّد ﷺ كانوا أفضلَ هذه الأُمَّةِ، أبرَّها قلوباً، وأعمَقَها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، اختارَهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ، ولإقامة دِينِهِ، فاعرفوا لهم فَضلَهم، واتَّبعوهم على أثرهم، وتمسَّكوا بما استَطعتُم مِنْ أخلاقهم وسِيَرِهم، فإنهم كانوا على الهُدى المستقيم. رواه رزين[(١)]. [١١٨]

---

[١١٨] وهذا الأثر عن ابن مسعود ﷺ، الذي كانت كلماته كلها حكمة ونور، التي رسم فيها الطريق الصحيح التي من خلالها يصل المسلم إلى السُّنة الصحيحة، دون انحراف أو اعوجاج عن الصراط المستقيم.

فقوله: «من كان مُستنّاً فليستَنَّ بمَن قد مات» لأن الميت قد انتهى ولا يُخشى عليه من الفتنة، وأمّا الحيُّ فإنه عُرضة للفتن، فمن أراد الاقتداء فليقتدِ بالأئمّة السابقين، وأمّا بالنسبة لمَن جاء بعدهم، فإنه يؤخذ منهم ما وافَقَ الحقَّ ويُترك ما خالفه.

---

(١) كما في «مشكاة المصابيح» ١/ ٤٢.

وقوله: «أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمّة..»

وهذا مثل قول حذيفة الذي سبق في الأثر السابق القائل فيه: «كلُّ عبادة لا يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ فلا تعبدوها»، لِمَا في الصحابة رضوان الله عليهم من الصفات التي لا توجد في غيرهم من هذه الأمة؛ لأنهم كانوا «أبرَّها قلوباً، وأعمَقها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً» فقلوبهم رضي الله عنهم مِنْ أتقى قلوب هذه الأمة، وعلمُهم راسخ وليس متذبذباً، وإنما هو ثابتٌ على الكتاب والسُّنة، ولا يتكلَّفون الكلام وكثرته، وإنما يقتصر كلامهم على الإفادة، ولهذا يقول ابن رجب: كان المتقدِّمون أكثر علماً وأقلّ كلاماً، والمتأخِّرون أكثر كلاماً وأقلّ علماً.

وقوله: «اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ ولإقامة دينه» لأنه سبحانه ما اختارهم إلاّ لعلمه بأنهم يصلحون لخلافة النبيِّ ﷺ لأمّته.

وقوله: «فاعرفوا لهم فضلهم» فلا تتنقَّصوهم أو تتكلّموا فيهم كما يفعل المبتدعة وأهل الضلال من الرافضة والمعتزلة وغيرهم، بخلاف أهل السُّنة الذين يقدِّرون الصحابة ويحترمونهم ويُجِلُّوهم ويترضَّون عنهم ويقتدون بهم ويثقون بهم تمام الثقة.

[تحريم المجادلة في كتاب الله]

١٠٢ - وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه قال: سمع النبيُّ ﷺ قوماً يتدارؤونَ في القرآن، فقال: «إنَّما هَلَكَ مَنْ كان قَبلَكُم بهذا، ضربوا كتابَ الله بعضَه ببعضٍ، وإنما نُزِّل كتابُ الله يُصدِّقُ بعضُه بعضاً، فلا تُكذِّبوا بعضَه ببعضٍ، فما علمتُم منه فقولوا، وما جَهلتُم فكِلُوه إلى عالِمِه». رواه أحمد وابن ماجه[1]. [١١٩]

[١١٩] إن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ وقد فصّلت آياته، ويصدّق بعضه بعضاً ويفسّر بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فكلام الله جلّ وعلا معصوم من الاختلاف ومن أن يُناقض بعضُه بعضاً، بل يُصدّق بعضُه بعضاً ويُفسِّر بعضُه بعضاً، وقد قال الله جلَّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فهناك آيات واضحة في نفسها وهي المـُحكَمة، وهناك آيات يحتاج في تفسيرها لآيات

(١) أحمد في «المسند» (٦٧٤٩)، وابن ماجه بمعناه (٨٥).

أخرى، لأنه لا يتَّضح المطلوب منها في نفسها بل لا بدَّ من ضمِّها إلى الآيات الـمُحكَمة لتفسِّرها، فطريقة الراسخين في العلم أنهم يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض، فالـمُطلق منه تقيِّده آيات أخرى، والـمُجمل توضِّحه آيات أخرى، وهناك آيات منسوخة تنسخها آيات أخرى، وهذا يحتاج إلى معرفة بكتاب الله عزَّ وجلّ، فلا يجوز للإنسان أن يَدْخُل في تفسير كتاب الله دون أن يكون عنده أصول يعرف بها كيف يفسِّر كلام الله، ولذلك وضع العلماء قواعد للتفسير تسمّى أصول التفسير، ولا بدَّ لطالب العلم أن يعرف هذه القواعد وهذه الأصول.

وأما الذين في قلوبهم زيغ وهدفهم التلبيس على الناس، وتشكيكهم في دينهم، فإنهم يأخذون المتشابه ويستدلون به دون أن يردُّوه إلى الـمُحكَم، وسيأتي في الحديث: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم»[1]، وهناك صنفٌ آخر ليس عندهم زيغ وإنما عندهم جهل فلا يُتقنون تفسير القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

على الوجه المطلوب، فيأخذون الآيات المتشابهات دون أن يردُّوها إلى الـمُحكَمة ويستدلون بها لا عن زيغ ولكن عن جهل، وهذا حرام ولا يجوز، والأول كفر، لأن الذي يقصد التلبيس فهو كافر، وأما الذي حمله الجهلُ على هذا المدخل فهذا يعتبر ضالاً، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[١]، وقال: «مَنْ قال في كتاب الله عزَّ وجلَّ فقد أخطأ ولو أصاب»[٢]، فكتاب الله جلَّ وعلا يُجَلُّ ويُعظَّم فلا ينبغي أن يدخل في تفسيره والاستدلال به إلا أهل العلم والرُّسوخ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] والأُم هي التي يَرجع إليها الشيء ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، والناس في ذلك قد انقسموا إلى قسمين:

الأول: وهم أهل الزَّيغ الذين أخذوا المتشابه وتركوا الـمُحكَم بقصد التضليل.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٦٩)، والترمذي (٢٩٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب بن عبد الله ﷺ.

الثاني: وهم أهل الرسوخ في العلم وهم الذين يردُّون المتشابه إلى المحكم. ويقولون: كلٌّ من عند ربِّنا، المحكَم والمتشابه، فلا يأخذون طرفاً ويتركون الطرف الثاني، لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضاً.

والنبيُّ ﷺ في هذا الحديث خرج على الصحابة وهم يبحثون في بعض الآيات المُشكِلَة، فوجَّههم ﷺ وقال: «فلا تكذِّبوا بعضَه ببعض، فما عَلِمتم منه فقولوا، وما جَهِلتم فكِلُوه إلى عالِمِه»؛ لأنَّ الذي لا يُحسن ولا يُتقن فَهْم كلام الله لا يدخل في تفسيره، ويتقوَّل على الله بأنه أراد كذا وكذا، ففي هذا خطر عظيم عليه وعلى غيره، فإذا كان لا يعلم فليتوقَّف ويَرُدُّ عِلْمَه إلى عالِمِه سبحانه وتعالى.

والحاصل أنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ لا يجوز الخوض فيه إلاَّ بعلمٍ وبصيرةٍ وإلمامٍ بقواعد وضوابط تفسيره.

وقوله: «يتدارؤون في القرآن» أي: يتدافعون فيُبدي كلُّ واحد رأيه ويخطىء الآخر فيختلفون في تفسيره.

وقوله: «إنما هلَكَ مَنْ كان قبلكم» أي: من اليهود والنصارى، فحرَّفوا التَّوراة والإنجيل وغيَّروا فيها فهلكوا.

وقوله: «ضربوا كتاب الله بعضه ببعض» يعني: جعلوا بعضه يُعارض بعضاً، في حين أنه لا يتعارض أبداً، ولكن هذا يحتاج إلى علم وبصيرة؛ لئلا يقع هذا التعارض المزعوم.

وقوله: «وإنما نزَّل كتابُ الله يُصدِّق بعضه بعضاً...إلخ» ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فالآيتان مختلفتان في الظاهر، فواحدة تُوجب العِدَّة سنة، والأخرى توجب العدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام، وفي هذا يقول العلماء: إن آية الحَوْل منسوخة بآية الأربعة أشهر وعشرة أيام فالعدَّة للوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وأمّا المتاع للحول فهذا كان في أول الأمر ثم نُسخ، والقرآن يدخله النسخ. قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فلا تعارض بين الآيتين لأنَّ العمل على الآية الأولى، وأمّا الثانية فهي منسوخة. وفي مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فهذه فيها الأمر بالوصية للوالدين، وهي منسوخة بآية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١]، وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه فلا وصية لوارث»(١)؛ فلا يُجمع للوالدين بين الميراث والوصية، ومثل هذا الاستنباط والفهم يحتاج إلى علم وبصيرة، وأصول التفسير تُبيِّن هذه القواعد وتوضِّحها، وكذلك سُنَّة الرسول ﷺ تُفسِّر القرآن وتوضِّحه، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فلم تذكر الآية من أين تُقطع اليد، ولكنَّ الرسول ﷺ بيَّن أنها تُقطع من مَفصِل الكفِّ من الذِّراع، فقد بيَّنتْهُ السُّنة العملية من الرَّسول ﷺ، ثم لم تذكر الآية أيتهما تقطع اليمنى أم اليسرى، وقد جاء في قراءة (فاقطعوا

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٢٨٧٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ.

أيمانهما)[١]، فهذه القراءة تفسِّر المطلق، وهذا يحتاج إلى سعة علم وبصيرة. وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فلم يذكر في الآية عدد الركعات وهيآتها، ولا عدد الصَّلوات، فلا نجد بيان هذا وتوضيحه إلا في السُّنة النبوية الشريفة، وقد بُيِّن في آيات أخرى أوقات الصلوات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨]، فيُفسِّر القرآن بعضه بعضاً، والسُّنة كذلك تفسِّره. ومن ذلك لا نجد مقادير الزكاة المستحقة من الأغنياء للفقراء، وما هي الأموال التي تجب فيها، ومتى تَجِبُ، وكم النِّصاب، فهذا وغيره بيَّنَتْهُ السُّنة النبوية الشريفة، فلا بدَّ من التعقُّل في هذه الأمور وتركها لأصحاب الرُّسوخ في العلم الذين يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض أو بسُنَّة رسوله ﷺ القولية والعملية.

(١) وبها قرأ ابن مسعود ﷺ، انظر «جامع البيان» لابن جرير الطبري ٤/ ٥٦٩.

باب التَّحريض على طَلَب العلم وكيفية الطَّلَب

١٠٣ - فيه حديث «الصحيحين»(١) في فتنة القبر «أن المُنعَّم يقول: جاءنا بالبيِّنات والهُدَى فآمنَّا وأجَبنا واتَّبَعْنا، وأنَّ المُعذَّبَ يقول: سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً فقُلتُه». [١٢٠]

---

[١٢٠] هذا الحديث فيه ذَمُّ التقليد الأعمى، وذلك أنَّ المعذَّب هو المقلِّد الذي يقول: «سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً فقلتُه» لأنه لا يؤمن به ولم يتعلَّم كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله ﷺ ولا حاول أن يتعلَّم أمورَ دينه لأنه لا يهتم به وإنما أخذ الدِّينَ بالتقليد فقط، وهذا مما ينبغي أن لا يكون، لأنَّ الواجب على المسلم أن يتعلَّم أمور دينه، والعقيدة لا يجوز فيها التقليد مطلقاً، فلا بدَّ للإنسان من أن يتعلَّم عقيدته، إمَّا مجملةً، وإمَّا مفصَّلة حسب الاستطاعة ولا يقلِّد أحداً فيها، وهذا هو الذي يقول فيه المعذَّب: سمعت الناس يقولون شيئاً فقلتُه؛ بعدما يُجيب بلا أدري إذا ما سئل عن ربِّه ودينه ونبيِّه؛ فالتقليد في العقيدة لا يجوز، ولا بُدَّ من تعلُّمها، وأقل الأحوال في

---

(١) البخاري (٧٢٨٧)، ومسلم (٩٠٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

ذلك أن يتعلَّم المختصرات في العقيدة المشتملة على أنواع التوحيد وأنواع الشِّرك وما يتعلَّق بها حتى يعبد الله على بصيرة، ويتعلَّم معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ويعرف مَنْ هو الرَّسول ﷺ، فيعرف اسمه ونسبه وموطنه ومتى بُعث عليه الصلاة والسلام، ويعرف سيرته، وأين بُعث، وأين هاجر، فلا بدَّ من معرفة ذلك. وينبغي كذلك معرفة الدِّين، وأركان الإسلام الخمسة، ومعرفة ما هو الإسلام وتعريفه وحقيقته ومعرفة الأركان الستة للإيمان.

[فضيلة التفقُّه في الدِّين]

١٠٤ - وفيهما[(١)] عن معاويةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين». [١٢١]

---

[١٢١] في هذا الحديث الوارد في «الصحيحين» من حديث معاوية ﷺ الحثُّ على التفقُّه في الدِّين، وأنه على الإنسان أن لا يجهل أمور دينه، بل لا بدَّ له من أن يتفقَّه في أمور دينه، والفقه معناه الفهم، والمراد به هنا فَهْم أمور دينه على وجهٍ يتمكَّن فيه من الإتيان به على الوجه المطلوب والمشروع، لا عن جهل وتقليد، وإنما عن علم وبصيرة.

فالفقه في الدِّين معناه: الفَهْم في الدِّين ومعرفته، وذلك بتعلُّمه، فمن اعتنى بدينه وتعلَّمه كان ذلك دليلاً على أنَّ الله أراد به خيراً. ومن لم يتعلَّم ولم يتفقَّه أمور دينه كان ذلك دليلاً على أنَّ الله أراد به شرّاً، فمنطوق الحديث أنَّ من علامة الخير هو تفقُّه الإنسان في دينه، ومن علامة الشرّ أن يجهل الإنسان أمور دينه.

والفقه على قسمين:

الأول: فرض عين على كل مسلم.

والثاني: فرض كفاية.

---

(١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

فالذي هو فرضٌ على الأعيان هو تعلُّم أركان الإسلام الخمسة: التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج، فيتفقّه المسلم في هذه الأركان ويعرف معناها لأجل وأن يؤدِّيها على بصيرة، وهذا لا يُعذر أحدٌ بجهله، فإن جهله أحدٌ فهو عل خطر عظيم، فتعلُّم الإنسان ما لا يستقيم دينه إلاّ به فهو فرضُ عينٍ.

وأمّا ما زاد على ذلك من فقه المعاملات والمواريث والأنكحة والطلاق والقضاء فهو فرض كفاية، إذا قام به مَنْ يكفي من الأمّة سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركوه كلُّهم أَثِموا جميعاً؛ لأنه لا بدَّ وأن يوجد هذا العلم حتى يقوم العلماء في الحكم به بين الناس في معاملاتهم ومواريثهم وأنكحتهم وفي القضاء فيما بينهم.

١٠٥- وفيهما(١) عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ ما بَعثَني الله به مِنَ الهُدى والعلم كمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلَتِ الماءَ فأنبَتَتِ الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادبُ أمسَكَتِ الماءَ، فنفَع الله به النّاس فشَربوا وسَقَوا وزَرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِك ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، فذلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله ونَفَعَه ما بَعثَني الله به فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَنْ لم يَرفعْ بذلك رأساً ولم يَقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به». [١٢٢]

[١٢٢] هذا الحديث متضمِّن للامثلة النبوية؛ والله جلَّ وعلا يَضرب الأمثالَ للنّاس، وكذلك النبيُّ ﷺ يضرب الأمثال لتَوضيح الأحكام وترسيخها في الأذهان، وهذا مثلٌ عظيم من الأمثال النبوية.

فقد شبَّه النبيُّ ﷺ العلمَ الذي جاء به من الكتاب والسُّنة بالغيث الكثير الذي أصاب الأرض فأحياها، وكذلك العلم فإنه تُحيى به القلوب، ثم قسَّم ﷺ الناس مع العلم إلى ثلاثة أقسام كأقسام الأرض

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

تماماً، فالأرض إذا نزل عليها المطر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يحفظ الماء في الخوابي والأتربة فيُنبت الكلأ والعشب. فيجتمع فيه حفظ الماء والإنبات، فينتفع الناس بالسقي والرِّي، وينتفعون بالعشب والكلأ، وهذا مثله كمثل الفقهاء المحدِّثين الذين حفظوا النُّصوص وتفقَّهوا فيها وبيَّنوا فقهها للناس فشرحوها ووضَّحوها، كالأرض التي جمعت الماء وأنبتت الكلأ، فحفظُ العلماء للنصوص والأحاديث مَثَله كمَثَل جَمع الماء في الغدران وفي باطن الأرض، وتفقُّههم مثلُه كمثل إنبات الكلأ، فهؤلاء يقال لهم فقهاء الحديث كالإمام أحمد والشافعي ومالك والبخاري ونحوهم ممن جمع بين الحفظ والفهم الذي هو الفقه، وهؤلاء أفضل طبقات العلماء.

والقسم الثاني: هي الأرض الصُّلبة التي لا تُنبت ولا تُنتج ولكنها مشتملةٌ على مخابي الماء التي ينتفع بها الناس فيشربون منها، ومَثَل ذلك كمَثَل حُفّاظ الحديث والنصوص الذين اعتنوا بأسانيدها وميَّزوا الصحيح منها عن غيره، فاعتَنَوا بحفظ السُّنة دون أن يكون لديهم فقه بهذه النصوص، فكما تنفع الأرض الجدباء التي تحتفظ بالماء الذي ينتفع به الناس فكذلك ينفع هؤلاء الحفّاظ الناسَ بما حفظوه لهم

من النصوص التي نفع الله بها بسبب حفظهم لسُنَّة نبيِّه ﷺ، وتدوينهم لها، فهؤلاء فيهم خير كثير لا يصل إلى درجة الصنف الأول الذين جمعوا بين الحفظ والفقه.

والقسم الثالث: الأرض الجدباء التي لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأً، وهذه مَثَلُها كمثل الذين لا يحفظون ولا يتفقَّهون، وهذا القسم هو شرُّ الأقسام، الذي لا يُستفاد منه بشيء كالأرض السَّبِخة التي لا تنتفع بالماء ولا تُمسِكُه لينتفع به الناس، وكذا هذا النوع الثالث من الناس الذين ليس هم قلوب حافظة ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه فلا هم نفعوا أنفسهم ولا غيرهم.

وفي هذا الحديث أنواعٌ من العلم منها ضربُ الأمثال، وفضل العلم والتعليم، وشدَّةُ الحثِّ عليه وذمّ الإعراض عنه.

١٠٦- ولهما[(١)] عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمّى الله فاحذروهم». [١٢٣]

[١٢٣] هذا الحديث سبق ذكره في مسألة المتشابه من القرآن، وذكرنا أن المتشابه هو الذي لا يتَّضح معناه بنفسه، وإنما بإرجاعه إلى غيره من النصوص، وهذا لا يُستدلُّ به منفرداً بل يُرجع فيه إلى المـُحكم فيُردُّ إليه ليُفسِّره، فالراسخون في العلم يجمعون بين النصوص فيردُّون المتشابه إلى المـُحكَم، وأمّا أهل الزَّيغ فيأخذون المتشابه ويتركون المـُحكَم؛ ولهذا قال ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله»، والمراد من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ [آل عمران: ٧]؛ يعني: تفسيره بمفرده، وهو لا يفسَّر إلاّ بردِّه إلى المـُحكَم، ولا يفسَّر بالرأي، هذا إذا أُريد بالتأويل: التفسير، وأمّا إذا أُريد بالتأويل ما تؤول إليه هذه الأخبار في المستقبل فهذا لا يعلمه إلاّ الله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ والمراد بتأويله هنا: مآلُهُ، ويوسف عليه السَّلام لـمّا رفع أبويه على العرش وخرُّوا له سجداً ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ ﴾ وتأويلها: مآلها ﴿ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالتأويل على قسمين:

الأول: تأويل يُراد به التفسير، وهذا يعرفه العلماء الراسخون في العلم.

الثاني: تأويل يراد به ما يؤول إليه المغيَّب من الأخبار كأخبار الآخرة والجنة والنار، فهذه لا تُعلمُ حقيقته إلاّ إذا وقعت مستقبلاً، وهذا لا يعلمه إلا الله جلَّ وعلا.

[مَنْ هم حواريُّو الأنبياء]

١٠٧- وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ نبيٍّ بعثَه الله في أُمَّتِه قبلي إلاّ كان له مِنْ أُمَّتِه حواريُّون يأخذون بسُنَّتِه ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُفُ مِنْ بَعدِهم خُلوفٌ يقولون ما لا يَفعلون ويَفعلونَ ما لا يؤمرون، فمَن جاهدَهم بيده فهو مؤمنٌ، ومَنْ جاهَدَهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومَنْ جاهدَهم بقَلبه فهو مؤمنٌ، وليس وراءَ ذلك مِنَ الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رواه مسلم[1] [١٢٤].

---

[١٢٤] في هذا الحديث بيان أنَّ الأنبياء عليهم السَّلام يكون لهم أصحاب وحواريُّون، أي: أنصار ينصرونهم ويأخذون عنهم العلم، ويتلقَّون عنهم الشريعة ويعملون بها، وهؤلاء الذين أخذوا عن رسول الله ﷺ هم خير القرون، كما قال ﷺ: «خيرُكم قَرْني، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم»[2]، وذلك لأنهم تلقَّوا عنه ﷺ الكتابَ والسُّنَّة والشريعة فبلَّغوها بأمانةٍ وعملوا بها، فهؤلاء الذين

---

(١) برقم (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

يكونون مع الأنبياء من الحواريِّين والأنصار وهم أفضل الأمم.

وقوله ﷺ: «تَخلُفُ مِنْ بعدهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون» وهم المتأخِّرون الذين يخالف قولُهم فِعلَهم، فلا يعملون بما علموه من الحقِّ، وإنما يعملون أشياء لم يؤمروا بها، ويتعبَّدون بأشياء ابتدعوها من عند أنفسهم وبمُحدثات أحدثوها، فيتركون السُّنن ويعملون بالبدع والمحدثات، وهذا شيء واقع، فنجد كثيراً من هؤلاء الآن لا يلتفتون إلى السُّنن وإنما يحرصون على العمل بالبدع، فلا يُبالون بالسُّنن والأوامر الإلهية وإنما يعبدون الله على حسب ما تستحسنه أهواؤهم وما يأمرهم به أكابرهم وقادتهم، فهم يفعلون ما لا يؤمرون، وفي هذا بيان الفَرْق بين السَّلف والخَلَف، وهو أنَّ السَّلف يتقيَّدون بأوامر الله وسُنَّة رسوله ﷺ في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم فيتمثَّلون الكتاب والسُّنة ويتجنَّبون البدع والمُحدثات، وأمّا الخَلَف فعلى العكس من ذلك، فهم يتركون السُّنن ويعملون بالبدع والـمُحدَثات.

وقوله ﷺ: «فمَن جاهدَهم بيَدِه فهو مؤمن، ومن جاهدَهم بلسانه فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن» وهذا كقوله ﷺ:

«مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّرْه بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[1]؛ فعلى أصحاب السلطة مجاهدة هؤلاء المبتدعة وأصحاب الضلال باليد ومَنْعِهم من هذه الأمور، ومَنْ لم يكن عنده سلطة ولديه علم فإنه يجاهدهم باللسان، وذلك بالردِّ والتعقيب عليهم وبيان الباطل الذي يعملون به، ومَنْ لم يكن عنده علم ولا سلطة فإنه يكرههم بقلبه ويترك ما هم عليه.

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

[النهي عن الأخذ من اليهود والنصارى]

١٠٨- وعن جابرٍ ﷺ أنَّ عمرَ ﷺ قال: يا رسولَ الله، إنَّا نَسمعُ أحاديثَ من يهودَ تُعجِبُنا، أفترى أنْ نكتبَ بعضَها؟ فقال ﷺ: «أمُتَهوِّكون أنتم كما تَهوَّكتِ اليهودُ والنَّصارى، لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيَّةً، ولو كان موسى حيّاً ما وَسِعَه إلاّ اتِّباعي» رواه أحمد[١]. [١٢٥]

---

[١٢٥] لقد قال ما قاله ﷺ في هذا الحديث، لأن شريعته شريعة كاملة؛ وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهي شريعة كاملة وشاملة لمتطلَّبات النَّاس إلى أن تقوم السَّاعةُ وهي أيضاً شريعة ناسخة لِمَا قبلها من الشرائع، فيجب العمل بالناسخ وتَرْكِ المنسوخ، فلا يجوز لنا أن نأتي بشيء من التوراة أو من الإنجيل وننشره بين الناس؛ لأن في شريعتنا ما يكفي الجنَّ والإنس، ويكفي لجميع الأزمان إلى أن تقوم الساعة، فينبغي الاقتصار على سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لأن النبيَّ ﷺ أنكر على عمر بن الخطاب ﷺ لـمَّا رأى معه أوراقاً من التوراة،

---

(١) في «المسند» برقم (١٥١٥٦).

وقال له: إنّا نسمع أحاديث من يهود فتُعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال ﷺ: «لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتّباعي» وذلك لأن شريعة موسى نُسخت، وأمر الجميع باتّباع الرّسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال عليه الصّلاة والسلام: «لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[(١)]؛ فالذي يبقى على النصرانية بعد بعثة الرسول ﷺ، أو يبقى على اليهودية إنما هو من أهل النار؛ لأنه ترك ما أمره الله به من اتّباع هذا الرّسول ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[أقسام أمور الدِّين]

١٠٩- وعن أبي ثعلبة الخُشَنيّ ﷺ مرفوعاً: «إنَّ الله فَرَضَ فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحَدَّ حُدوداً فلا تعتدُوها، وحرَّم أشياءَ فلا تنْتَهِكُوها، وسَكَتَ عن أشياءَ رحمةً لكم غيرَ نسيانٍ فلا تبحثوا عنها» حديث حسن رواه الدارقطني وغيره[1]. [١٢٦]

---

[١٢٦] ذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ أمور الدِّين على أربعة أقسام:

الأول: الواجبات والفرائض، وهذه لا يجوز أن يُضيَّعَ شيء منها، بل يجب الإتيان بها.

والثاني: المحرَّمات التي حرَّمها الله، وهذه يجب تجنُّبها والابتعاد عنها وعدم فِعْلِ شيءٍ منها.

الثالث: الحدود، وهي المباحات التي أباحها الله وأحلَّها للناس، فلا ينبغي تعدِّي الحلال إلى الحرام؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] وحدود الله تُطلق ويُراد بها المباحات فيقال: فلا تعتدوها، وتُطلق ويُراد بها المحرَّمات فيقال: فلا تقربوها؛ يعني: ابتعدوا عنها وعن الوسائل الموصلة إليها، وأمَّا المباحات فلا تتعدُّوها إلى الحرام.

---

(١) الدارقطني ٤/ ١٩٣ (٤٢)، والبيهقي في «الكبرى» ٣/ ١٢ (١٢٥٠٩).

الرابع: المسكوت عنه الذي لم يُفرض ولم يُحرَّم، ولا يوجد دليل على إباحته، وسكت الله عنه فنَسكتُ عنه، وهذا معفوٌّ عنه فلا نبحث فيه من حيث هو حلال أم حرام، فلا دليل على تحريمه ولا على إباحته، ولا على أنه واجب، فيَسَعُنا السكوت عنه. لأنه لو كان لنا به حاجة لبينه الله لنا.

وفي هذا الحديث أنه يجب فِعْلُ الواجبات وتَرْكُ المحرَّمات والاقتصار على المباحات، والسكوت عن المسكوت عنه: ومثل هذا كان في وقت النبيِّ ﷺ، ولهذا جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [المائدة: ١٠١]، فهل هذا يعني ترك البحث عن المسكوت عنه في عهد الرَّسول ﷺ أم هو عامٌّ إلى أن تقوم الساعة؟ الظاهر - والله أعلم - أنه عامٌّ إلى أن تقوم الساعةُ، فالمسكوت عنه الذي لا دليل على إيجابه ولا على تحريمه ولا على إباحته فإننا نسكت عنه كما سكت الله عنه، والله جلَّ وعلا لم يسكت عنه نسياناً، لأنَّ الله لا ينسى، وإنما سكت عنه رحمةً بالعباد، ولهذا قال عنه ﷺ: «رحمة لكم غير نسيان».

ومن هنا قال العلماء سؤال أهل العلم على قسمين:

الأول: السؤال الذي القصد منه التعنُّت والمباهاة وإظهار العلم مباهاة، وهذا لا يجوز، وهذا مثل أسئلة بني إسرائيل لأنبيائهم كما قال ﷺ: «إنما أهلك مَنْ كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نَهيتُكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»[1]، فالسؤال الذي يُقصد به التعنُّت أو التنطُّع أمر مرفوض ولا يجوز الثاني السؤال الذي يُقصد منه معرفة الحكم الشرعي فهو مأمورٌ به، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[النهي عن الاختلاف والتفرُّق]

١١٠- وفي «الصحيحين»[1] عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما نَهيتُكم عنه فاجتَنبوهُ، وما أمرتُكم به فأْتوا منه ما استَطعتُم، فإنَّما هَلكَ مَنْ كان قَبلَكُم بكثرة مسائِلهم واختلافِهم على أنبيائهم». [١٢٧]

[١٢٧] قوله ﷺ: «ما نَهيتُكم عنه فاجتنبوه» هذا كقوله ﷺ: «إنَّ الله حرَّم أشياء فلا تَنتهكوها»[2]، فالحرام يُجتنب كلُّه، وأمَّا المأمور به فيؤتى منه بالمستطاع، ولهذا قال ﷺ: «وما أمرتُكم به فأتوا منه ما استطعتم» بخلاف الحرام فإنه يُجتنب كلُّه، وذلك لأنَّ اجتنابه سهلٌ، ولكن قد يكون في المأمورات شيء لا يُستطاع، فقد لا يستطيع المريض أن يتوضَّأ فإنه يتيمَّم، ولا يستطيع أن يصلي قائماً فيصلِّي جالساً، فإن لم يستطع فإنه يصلِّي على جَنْبٍ، فقد تأتي أحياناً أحوالٌ لا يستطيع الإنسان فيها أن يُطبِّق الأمر تماماً فإنه يفعل ما يستطيع منه، وهذا من تيسير الله سبحانه وتعالى، فالأمر يؤتى منه ما يستطاع؛ قال تعالى:

(١) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه الدارقطني ٤/ ٩٣ (٤٢)، والبيهقي في «الكبرى» ١٠/ ١٢ (١٢٥٠٩) من حديث أبي ثعلبة الخشني ﷺ.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأمَّا النهي فإنه سهل تجنُّبه؛ ولهذا قال ﷺ: «وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» أي: كلَّه.

وأمَّا قوله ﷺ: «فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» هذا كحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه السابق في قوله ﷺ: «وسكت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» ويوضِّح ذلك أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «أيُّها النَّاسُ، قد فَرض الله عليكم الحَجَّ فحُجُّوا» فقال رجلٌ: أكُلَّ عام يا رسولَ الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو قلت نعم لوَجَبَتْ ولَـمَا استطعتمْ» ثم قال: «ذَروني ما تركتكم، فإنما هَلكَ مَنْ كان قَبلَكُم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيء فدَعوه»[1]، ومثل ذلك ما ذكره الله عن بني إسرائيل حينما أمرهم الله على لسان نبيِّه موسى عليه السلام بأن يذبحوا بقرة، فلو أنهم أخذوا أيَّ بقرةٍ وذبحوها لحصل المطلوب، ولكنهم قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

[البقرة: ٦٨ – ٧١] شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، وهذا من سوء أدبهم مع الله عزَّ وجلَّ، ولو أنهم أخذوا أيَّ بقرة وذبحوها لحصل المطلوب! وهذا من تعنُّتات بني إسرائيل، وقد نُهينا أن نفعل مثل فِعْلهم مع نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، بل أُمرنا أن نتأدَّب معه، ونفعل ما أُمرنا به، أو نفعل ما نستطيع، وما نهانا عنه اجتنبناه، وما سكت عنه نسكت عنه، هذا هو الأدب مع النبوة.

[فضيلة طلب الحديث والنصيحة للمسلمين]

١١١- وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نَضَّرَ الله عبداً سمِع مَقالتي فحَفظها ووَعاها وأدّاها، فرُبَّ حامِلِ فقهٍ غيرُ فقيهٍ، ورُبَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه، ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ: إخلاصُ العملِ لله، والنَّصيحةُ للمسلمين، ولُزومُ جماعتِهم، فإنَّ دَعوتَهم تُحيطُ مَنْ وَراءَهُم» رواه الشافعي والبيهقي في «المدخل»، ورواه أحمد وابن ماجه والدارمي عن زيد بن ثابت ﷺ(١).

١١٢- ورواه أحمد وأبوداود والترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه(٢). [١٢٨]

---

[١٢٨] هذا الحديث يشتمل على مسألتين:

الأولى: طلب الحديث.

الثانية: النصيحة لله وللمسلمين.

---

(١) الشافعي في «مسنده» ١/ ٢٤٠ (١١٩٠)، والبيهقي في «الدلائل» ١/ ٢٣، والترمذي (٢٦٥٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وأخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، وابن ماجه (٢٣٠)، والدارمي (٢٢٩) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٢) أبوداود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦) ولم يخرجه أحمد من حديث زيد.

أمَّا الأولى: ففي قوله ﷺ: «نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها» ففي هذا الحثُّ على العناية بسُنَّة الرسول ﷺ، فقوله ﷺ: «مقالتي» أي: حديثه ﷺ؛ لأنَّ أحاديث الرسول ﷺ هي الوحي الثاني بعد القرآن الكريم، فهي من عند الله عزَّ وجلَّ، والرَّسول ﷺ إنما هو مبلِّغ، قال الله جلَّ وعلا: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]؛ ولهذا يقول العلماء: السُّنة هي الوحي الثاني، فهي في الدَّرجة الثانية بعد القرآن في الاحتجاج والعمل، ولا بدَّ من العناية بها من خلال حفظ الأحاديث كما جاءت عن الرَّسول ﷺ بألفاظها من غير تغيير، والوعي الوارد في قوله ﷺ: «ووَعاها» معناه الفقه فيها؛ فلا يكفي الحفظ وحده وإنما الحفظ مع الفقه ومعرفة معانيها، وهذا فيه الحثُّ على الفقه مع الحفظ، لينتفع المسلمون بسُنَّتِه ﷺ.

ولا يكفي أن يحفظ المسلم الأحاديث ويفقه معناها بل لا بد وأن يُبلِّغها إلى غيره، فينبغي على طالب العلم إذا عَلم شيئاً أن لا يكتمه بل يُبلِّغه إلى غيره؛ لأنَّ هذا العلم للأمة إلى أن تقوم الساعة.

وقوله ﷺ: «فرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيه» لأنَّ حامل الفقه إذا

بلَّغه إلى غيره فربما يكون هذا المبلَّغ أعرف لمعناه وأفقه. وفي هذا بيان أنه لا ينبغي للمرء أن يُزكِّي نفسَه، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فقد يحفظ المرءُ الحديث ولا يتَّضح له معناه فيُبلِّغه إلى مَنْ هو أفقه منه فيستنبط منه ما لا يفهمه الحامل له، فإذا بلَّغه برئت ذمَّتُه وأوصل العلمَ إلى غيره، فيحصل بذلك الخير الكثير.

فيتَّضح من المسألة الأولى الحثُّ على حفظ الأحاديث النبويَّة والتفقُّه في معانيها وإبلاغها للغير من المسلمين، فيه أيضاً النهي عن كتمان العلم، والنهي عن تزكية النفس وأن لا يرى المرء نفسَه بأنه صار فقيهاً وأنه أفقه من غيره، بل هناك مَنْ هو أفقهُ منه؛ وهذه سُنة الله في خلقه حيث إنَّ النّاس يتفاضلون فيما يُعطيهم الله عزَّ وجلَّ، فإذا خَفِيَ على أحدهم شيءٌ فهناك من المسلمين مَنْ لا يخفى عليه هذا الشيء إذا بلغه الحديث أو الخبر، فلا ينبغي للمرء أن يقتصر على فهمه، أو أنْ يظنَّ أنَّ هذا الحديث لا يُفهم معناه، لأنَّ هناك مَنْ يفهم معناه.

المسألة الثانية: تتمثل في قوله ﷺ: «ثلاث لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ

مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تُحيطُ مِنْ ورائهم». فقوله ﷺ: «ثلاث» أي: ثلاث خصال «لا يَغِلُّ» من الغِلّ: وهو الحقد «عليهنَّ قَلْبُ مسلم» بمعنى أنَّ هذه الثلاث خصال تطهِّر قلب المسلم من الغِل الذي هو الحقد والبُغض للمسلمين.

الخصلة الأولى: «إخلاص العمل لله» وهي ممَّا يطهِّر القلب من الحقد، ويجمع القلوب، فإنَّ القلوب إنما اجتمعت على التَّوحيد، فالله جلَّ وعلا ألَّف بين قلوب المسلمين بكلمة لا إله إلا الله، فلمَّا صار المعبود واحداً، تألَّفت قلوبهم، ولـمَّا كانوا يعبدون آلهةً متفرِّقة تعادَوا فيما بينهم؛ فالتوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله يوحِّد القلوب ويجمعها على معبود واحد وعلى عبادة واحدة؛ فيجب أن يكون العمل خالصاً لله خالياً من الشِّرك، فلا يُعبد الله ويُعبد معه غيره، فيُذبح ويُنذَر لغير الله، ولا تجوز الاستغاثة بالأموات والأولياء والصالحين، لأنَّ هذا لا يكون فيه إخلاص لله عزَّ وجلَّ، والله جلَّ وعلا لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه وصواباً على سُنَّة رسوله ﷺ، وأمَّا ما كان فيه شرك فإنَّ الله لا يقبله

ولا يقبل من المشرك عبادة ولا عملاً، فيحبط عمل المشرك ولا تبقى لا عبادة ولا أجرٌ عند الله عزَّ وجلَّ.

والخصلة الثانية: متمثلة في قوله ﷺ: «النصيحة للمسلمين» وتعني: عدم الغش، والناصح ضد الغاشّ، فالمسلم لا يغش المسلمين في جميع تصرُّفاته معهم، وإنما تكون تصرُّفاته معهم على النصيحة وعدم الغشّ في جميع الأمور، فلا يخدعهم ولا يغشُّهم في البيع والمعاملات ولا في المشورة إذا استشاروه، ولا يرضى لهم الخطأ وإنما يريد لهم الصواب، لأنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه»[1]، فيكون مع المسلمين ناصحاً لهم في كلّ الأمور، ولا يُكِنُّ لهم الغدر والخيانة والغش والخديعة، فكما أنه لا يرضى لنفسه بذلك فإنه يجب أن لا يرضاه لإخوانه المسلمين.

والخصلة الثالثة: متمثِّلة في قوله ﷺ: «ولزوم جماعتهم» وهذه خصلة عظيمة، ولذلك فإنه يجب لزوم جماعة المسلمين وعدم مخالفتهم والشُّذوذ عنهم ولو برأي أو قول أو فعل، وكذلك لا يجوز الخروج على إمام المسلمين؛ لأنَّ فيه خروجاً على جماعة المسلمين،

(١) أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولأنه لا تكون جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، وعليه يجب عدم الذهاب مع الأحزاب والجماعات والمذاهب المختلفة، واتباع الأقوال الشاذَّة، بل يجب البقاء مع المسلمين وعلى ما هم عليه في القول والعمل؛ لا سيَّما عند الفتن والاختلاف، فإنَّ النبيَّ ﷺ لـمَّا أخبر عن الفتن التي تحدث قال له حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: فما تأمُرني إنْ أدركني ذلك؟ قال: «تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم»، قال: فإنْ لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام؟ قال: «فاعتزِلْ تلك الفِرَقَ كلَّها ولو أنْ تَعَضَّ بأصلِ شَجرةٍ حتى يُدركَك الموتُ وأنتَ على ذلك»[(١)]، فعلى المسلم أن يتجنَّبَ الاختلاف والشِّقاق ومخالفة المسلمين، ويلزم الجماعة، لأنَّ هذا أنجى وأسلم له وأبعد له عن الفتن، وهذا نحتاجه في هذه الأيام وما بعدها، لكثرة الأهواء والآراء والدَّعوات الـمُضلِّلة، ولتسلُّط الأعداء وإثارة الشُّبهات والأحقاد، فعلى المرء أن يلزم جماعة المسلمين وأن لا يفترق ويخالف جماعتهم.

وقوله ﷺ: «فإنَّ دعوتَهم تُحيط مَنْ وراءَهم» المراد بالدَّعوة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

هنا: الدَّعوة إلى الإسلام، وأنه إذا اجتمع المسلمون فإنَّ دعوتهم إلى الإسلام «تُحيط مَنْ وراءهم» بمعنى أنها تصل إلى مَنْ سواهم من الخلْق، وأنهم إذا اختلفوا فإنهم سيشتغلون بأنفسهم وستنقطع الدَّعوة التي أُمروا بها، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فنحن قد كُلِّفنا بدعوة البشرية، وهي مسؤولية حمَّلنا الله إيَّاها؛ لأن الله اختار الرسول ﷺ من العرب، وأنزل القرآن بلغتهم، وأمرهم أن يَدْعوا الناسَ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥]، والبيِّنات جاءت من عند الله تعالى، فيجب التمسُّك بها والاجتماع عليها، لتكون هي مصدر قولنا وفعلنا، وأمَّا الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات فقد توعَّدهم الله بأن لهم عذاباً عظيماً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: أهل الكتاب، وسبب تفرُّقهم وتركهم للبينات أنهم اتبعوا أهواءهم، فالواجب هو اتِّباع الهدى وعدم اتِّباع الهوى، قال

تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، ولهذا ينبغي التمسُّك بالهدى وهو الكتاب والسُّنة، ففيها البيِّنات التي أنزلها الله علينا، فلا عُذر لنا والكتاب والسُّنة بين أيدينا، فلا ينبغي أن نختلف ونتبع أهواءنا وأقوالَ الناس والقادة والأئمة من أهل الضلال ونترك حبل الله المتين الذي أمرنا بالتمسُّك به. لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[أصل علوم الدِّين ثلاث]

١١٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «العلمُ ثلاثٌ: آيةٌ مُحكَمةٌ، أو سُنَّة قائمةٌ، أو فريضةٌ عادلةٌ، وما كان سِوى ذلك فهو فَضلٌ» رواه الدارميّ وأبوداود(١). [١٢٩]

[١٢٩] قوله ﷺ: «العلمُ ثلاثٌ» أي: أصل علوم الدِّين ومسائل الشرع التي تَهُمُّ المسلم في دينه ودُنياه.

وقوله: «آيةٌ مُحكَمة» أي: من القرآن الكريم؛ والمُحكَم هو غير المنسوخ وغير المُتشابه، فالآية المحكمة هي غير المنسوخة ولا المتشابهة، وهي الدليل الصريح التي يجب الأخذُ بها، وأمّا الاستدلال بالمتشابه فهي طريقة أهل الزَّيغ، ومن المعلوم أن الأخذ بالمنسوخ لا يجوز، لأنه لا يُعمل به وإنما يُعمل بالناسخ، ومَنْ عمل بالمنسوخ اعتُبر ضالاً، والله جلَّ وعلا ينسخ ما يشاء لحكمة، فينبغي الأخذ بالناسخ وترك المنسوخ، والعمل بالمنسوخ ضلال، وهو عمل بغير دليل.

وقوله: «سُنَّة قائمة» أي: من سُنن الرَّسول ﷺ، والسُّنة تُطلق ويُراد بها الطريقة التي كان عليها الرَّسول ﷺ، وتطلق على ما ثبت

---

(١) أبوداود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، ولم نقف عليه عند الدارمي.

عن الرَّسول ﷺ من قولٍ أو فعْلٍ أو تقرير، وهي الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، فيجب العمل بها بعد كتاب الله جلَّ وعلا، وقوله: «قائمة» يعني: ثابتة، إسناداً أو حكماً بأن لا تكون منسوخة، وهي الدائمة المستمرة المتصل بها العمل.

وقوله: «فريضة عادلة» أي: في المواريث؛ لأن الله سبحانه وتعالى قسَّم المواريث في كتابه الكريم وفي سُنَّة نبيِّه ﷺ وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا يجوز التلاعب بالمواريث وحرمان الوارث وإعطاء غيره؛ لأن الله تعالى لـمَّا ذكر المواريث قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فسمَّاها حدوداً ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ - ١٤]

فالمواريث من حدود الله عزَّ وجل فلا يجوز تعدِّيها ولا التلاعب بها، وإنما يُعمل بها فيُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير.

وفي هذا الحثُّ على تعلُّم أحكام المواريث، وقد حث ﷺ على

تعلُّمه، وأخبر أنه أوّل علم يُرفع من الأمة حتى يتنازع الاثنان في فريضة فلا يجدان مَنْ يحكم بينهما. فتعلُّم المواريث يؤدي إلى وصول الحقوق إلى أصحابها، وهو علمٌ عظيم ولكنه يُنسى كما في الحديث: «تعلَّموا الفرائض وعلِّموها، فإنه نصفُ العلمِ، وهو يُنسى، وهو أول شيء يُنزع من أُمّتي»[1]، فهو علمٌ فيه صُعوبة ولا بدَّ من المِران والصبر عليه، لئلاّ تضيع الحقوق والمواريث.

وقوله: «وما سوى ذلك فهو فَضْلٌ» أي: وما سوى هذه العلوم الثلاث فهو زيادة وهي زيادة خير، وعلوم مكمِّلة لهذه الثلاث.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[تحريم تفسير القرآن بالرأي]

١١٤- وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قال في القرآن برَأيه، فليتبوأ مَقعدَه مِنَ النّار» رواه الترمذي[١].

١١٥- وفي روايةٍ: «مَنْ قال في القرآن بغير عِلْمٍ، فليتبوّأ مَقعدَه مِنَ النّار» رواه الترمذي[٢]. [١٣٠]

---

[١٣٠] في هذين الحديثين الوعيد الشديد على مَنْ فسَّر القرآن برأيه دون رجوع إلى مصادر التفسير الصحيحة، ولهذا شدَّد ﷺ على مَن يفسِّر القرآن بغير علم، وذكر أنه استوجب دخول النار فقال: «فليتبوّأ مقعده من النار»، وجاء في رواية أنه قال: «مَنْ قال في القرآن بَرأيِهِ فأصاب فقد أخطأ»[٣]، والحديث ساقه ابن كثير في أول «تفسيره» وجوَّد إسناده[٤].

---

(١) برقم (٢٩٥١).
(٢) برقم (٢٩٥٠).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب ﷺ.
(٤) انظر «تفسيره» ١/ ٦.

ففي الحديثين الوعيد الشديد على مَنْ يفسِّر القرآن بغير علم أو برأيه، لأنَّ القرآن يفسَّر بأربعة أشياء ذكرها ابن كثير رحمه الله في أول «تفسيره»:

الأول: تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضاً.

الثاني: تفسير القرآن بالسُّنة النبوية؛ لأن الرسول ﷺ مبيِّن للقرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

الثالث: تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، لأنهم تلقَّوا عن الرسول ﷺ تفسير القرآن.

الرابع: تفسير التابعين، لأنهم أخذوا التفسير عن صحابة رسول الله ﷺ.

وهناك طريقة خامسة لتفسير القرآن الكريم، وذلك باللغة العربية التي نزل بها. فأول ما يُبدأ به تفسير القرآن هو تفسير بعضه ببعض، فإن لم يوجد فمن السُّنة، وإن لم يوجد في السُّنة فإنه يُفسَّر بتفسير الصحابة، فإن لم يوجد فبتفسير التابعين، فإن لم يوجد فإنه يُرجع في ذلك إلى اللغة العربية التي نزل بها، فهذه هي مصادر التفسير،

وليس هناك مصدر آخر غير هذه المصادر، وأمّا تفسير القرآن بالرأي ففيه الوعيد الشديد.

ومن هنا نأخذ بأن الذين يفسّرون القرآن الآن بآرائهم وبالفرضيات الحديثة وبالنظريات أو ما يسمّى بالإعجاز العلمي إنما هم داخلون فيمَن قال في القرآن برأيه، فلا ينبغي أن نُجعل هذه الأمور تفسيراً لكلام الله تعالى؛ لأنها عمل بشريّ يخطىء ويصيب، وهذه النظريات تتغيّر فقد تأتي نظريات أخرى تغيّرها فلا نُجعل تفسيراً لكلام الله عزَّ وجل. الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

[خطورة الافتاء بغير علم]

١١٦ – وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُفتِيَ بغير علم كان إِثْمُه على مَنْ أفتاهُ، ومَنْ أشار على أخيه بأمرٍ يَعلمُ أنَّ الرُّشْدَ في غيرِه فقد خانَه» رواه أبوداود[(١)]. [١٣١]

[١٣١] قوله ﷺ: «مَن أُفتي بغير علم» هو الجاهل الذي يسأل مَنْ يؤمّل فيه العلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فالمستفتي عمل بما أُمر به إذا تحرّى أعلمَ مَنْ يجد وأتقاهم، وأمّا إذا لم يكن قد تحرّى وإنما بحث عمَّن يُرخِّص له ويبحث له عن المخارج فهذا ممّن لم يسأل أهل الذّكر، وإنما سأل أصحاب الهوى والجهل، فصار بذلك من أصحاب الهوى والجهل بخلاف الذي تحرَّى أهل العلم وأفضل مَنْ يجدهم ليسألهم، وتكون المسؤولية حينئذٍ على المفتي إذا أفتاه بغير علم أو بهوىً، ولهذا قال ﷺ: «كان إثْمُه على مَنْ أفتاه» فالمستفتي لم يُقصِّر بعد أن بحث في الناس واختار مَنْ يرى أنه الأحسن، فهو بَذَل وُسْعَه في تحرِّي المفتي الذي يبيِّن له الحقَّ، فيجب على المفتي حينئذٍ أن يُفتيه بعلم، وإذا لم يكن عنده علم في المسألة فإنه يجب عليه أن يتوقَّف ويقول:

(١) برقم (٣٦٥٧).

الله أعلم، أو: اذهب إلى غيري، بخلاف ما لو تسرَّع وأفتى بغير علم فإنه يكون الإثم حينئذٍ عليه، ولهذا لم يكن الرسول ﷺ يُجيب في المسائل التي يُسأل عنها ولم يكن نزل عليه الوحي بعدُ، وإنما كان ينتظر حتى ينزل عليه الوحي والعلم من الله جلَّ وعلا، فكيف بغيره؟ وقد جاء إلى الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رجل من بعيد، وسأل عن أربعين مسألة، فأفتاه في أربع مسائل، وقال في ستٍّ وثلاثين: لا أدري! فقال الرَّجل: جئتك من بعيد أسألك وتقول: لا أدري؟! فقال له: اركب راحلتك واذهب إلى البلد الذي جئت منه وقل: سألت مالكاً فقال: لا أدري! ولهذا قال سفيان بن عيينة رحمه الله: إذا ترك العالم لا أدري أُصيبت مَقاتلُه[1]. فعلى المرء أن يتوقَّف عن المسألة التي لا يعلمها ولو كان من أكثر أهل بلده علماً، أو يُحيلَ السائلَ إلى مَنْ هو أعلم منه، فإنه لو فعل ذلك دلَّ هذا على فَضْله لا على نَقْصِه، وقد كان العلماء وإلى وقت قريب إذا لم يكن عندهم جواب قالوا: لا ندري، ولا يعتبرون هذا نقصاً وإنما يعتبرونه من خوف الله عزَّ وجلَّ.

وفي هذا الحديث بيان شدَّة خطر الفتوى، وأنه يجب على المفتي

(١) انظر «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٧/ ٢٧٥.

أن يتثبَّت ولا يفتي إلا بما ظهر له من الحكم الشرعي، فإن كان عنده علمٌ قال به، وإلا اعتذر عن الإجابة خوف الوقوع في الإثم، وهذا ما كان يفعله سَلَفُنا الصالح بخلاف ما نشاهده في وقتنا الحاضر الذي كثُر فيه الجهل، وكثُر المفتون والمفتونون الذين يفتنون الناس، وكثُر المُتعالِمون لقلَّة الورع والخوف من الله سبحانه وتعالى، فعلى مَنْ سُئل وليس عنده معرفة بالجواب أن يقول: لا أدري؛ فهذا هو المَخرج له أمام الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «ومَنْ أشار على أخيه بأمرٍ يعلم أنَّ الرُّشد في غيره فقد خانه»، المشورة نوع من الاستفتاء إلاَّ أن المشورة في الاستفتاء تكون في مسائل الشرع، وأمَّا المشورة المذكورة هنا فتكون في أمور التجربة والأمور غير الشرعية، فالواجب على مَنِ استُشير أن يدلَّ من استشاره على ما يراه خيراً له، فإن دلَّه على غير ما يراه خيراً فقد خانه، لأن المستشير كان قد ائتمنه على أن يدلَّه على ما يراه، فإذا دلَّه على غير ما يراه كانت هذه خيانة من المستشار، فالواجب على المستشار أن يُبدي المشورة الصحيحة.

١١٧- وعن معاوية ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ نَهى عن الأُغلوطات. رواه أبو داود أيضاً[١]. [١٣٢]

---

[١٣٢] قوله: «الأُغلوطات» جمع أُغلوطة: وهي المسائل التي يُقصد بها غلط العلماء أو المسؤولين ليَزِلُّوا فيحصل بذلك شرٌّ وفتنة؛ وهذا لا يجوز، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن كثرة السؤال وقال: «إنما أُهلك الذين منْ قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»[٢]. فلا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا بقدر ما يحتاج، وأن يترك الأسئلة التي لا يكون بحاجةٍ إليها، ومن باب أَوْلى الأسئلة التي لا يقصد بها الاستفادة وإنما يقصد بها تغليط العالم، أو تغليط المعلِّم، وهذا أمرٌ لا يجوز.

ولا شكَّ أن العالم مهما بلغ من العلم فربما يغلط، لأنه لا يعلم كلَّ شيء، وقد يُفاجأ بسؤال وليس عنده له جواب، فإن أجاب بخطأ أُشْكِل، وإن قال: لا أدري، قد لا يحتمل بعض الناس قوله: لا أدري، فالواجب على السائلين أن يتأدَّبوا في السؤال، فيسألوا بقدر ما يحتاجون، وأن يقصدوا بسؤالهم التعلُّم، لا إظهار فهمهم أو تغليط المسؤول، فإنَّ هذا قد نهى عنه الرسول ﷺ.

---

(١) برقم (٣٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[فضيلة طلب العلم]

١١٨- ومن كثيرِ بنِ قيسٍ قال: كنت جالساً مع أبي الدَّرداء في مسجد دمشقَ، فجاء رجلٌ فقال: يا أبا الدَّرداء، إنِّي جئتُكَ مِنْ مدينة الرَّسول ﷺ لحديثٍ بَلَغَني عنك أنك تُحدِّثُه عن رسول الله ﷺ، ما جئتُكَ لحاجةٍ قال: فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طريقاً يَطلبُ فيه عِلماً سَلَكَ الله به طريقاً إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة لَتَضعُ أجنحتَها رِضىً لطالب العلم، وإنَّ العالِمَ لَيستغفرُ له مَنْ في السَّماوات ومَنْ في الأرضِ والحِيتانُ في جَوفِ الماءِ، وإنَّ فَضْلَ العالِم على العابد كَفَضْل القمرِ ليلةَ البَدْر على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ وَرثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثوا العلمَ، فمن أخذَه أخذَ بحَظٍّ وافرٍ» رواه أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وابن ماجه[1]. [١٣٣]

---

[١٣٣] هذا حديث مشهور قد شرحه العلاّمة الإمام ابن رجب الحنبليّ في رسالة مستقلّة اسمها «شرح حديث أبي الدَّرداء»، وأبو الدرداء

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧١٥)، والدارمي ١/ ١١٠ (٣٤٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

من أجِلَّةِ صحابة رسول الله ﷺ وعلمائهم، وقد ذهب ﷺ إلى الشام لنشر العلم وتعليم الناس.

قوله: «إنِّي جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك أنك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ» فيه فضل الرِّحلة في طلب العلم ولقاء العلماء مهما كانوا بعيدين، وإنَّ السَّفر وتحمُّل المشاقِّ لأجل طلب العلم ليس بكثير على هذا المطلب العظيم، وهذا الرجل الذي سأل أبا الدرداء ﷺ كان قد سافر من المدينة إلى الشام، ومِنَ الصحابة مَن سافر من المدينة إلى مصر لطلب حديث واحد، فقد كانوا رضي الله عنهم يرحلون لطلب العلم، ففي هذا فضلُ الرِّحلة لطلب العلم.

قوله ﷺ: «مَنْ سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة» أي: إنَّ مَشْيَ طالب العلم وسفرَه يؤدِّي به إلى الحق، لأنه يطلب العلم، وسلوك الطريق يشمل الطريق الحسِّي للسفر، ويشمل أيضاً الطريق المعنوي لحفظ الأدلَّة والتفقُّه فيها والجلوس بين يدي العلماء، فكل هذا من باب سلوك الطريق لطلب العلم وإن كان في البلد الواحد، فالطريق يشمل الطريق الحسِّي وهو السفر، ويشمل الطريق المعنوي الذي هو طلب التحصيل والتعب في فَهْم العلم

وتلقيه والسهر عليه وغير ذلك من المشاقّ، ومَنْ عمل ذلك فإن الله جل وعلا يُسهِّل طريقه إلى الجنة، لأن الوصول إلى الجنَّة إنما يحصل بالعلم النافع والعمل الصَّالح.

وفي الحديث دليلٌ على أنَّ العلم يؤخذ بالتلقِّي، لا مِنَ الكُتب، ولا من نَقْل فلان أو فلان، فبما أنَّ الأصل موجود فإنه ينبغي الذهاب إليه لتلقِّي العلم عنه.

وقوله: «وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم» أي: إنَّ الملائكة لتتواضع لطالب العلم توقيراً لعلمه، وتُجِلُّه وتُقدِّره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ أي: تواضع لهم وقدِّرهم، ولهذا ينبغي تقدير طالب العلم وأهل العلم الشرعي، وعدم ازدرائهم، أو اتهامهم بالغفلة لأنهم تركوا ما يحتاجونه من أمور الصناعات والحِرَف والمهارات، فهؤلاء يعظِّمون أمر الدُّنيا على أمر الآخرة، وهناك فريق آخر من المتصوِّفة الذين يُزهِّدون الناس في طلب العلم ويقولون: المطلوب هو العمل والعبادة

والذِّكر، وهؤلاء أشدُّ خطراً من الصِّنف الأوَّل، ويتحصَّل من هذا فريقان: فريق المُتحلِّين والزَّنادقة، وفريق أصحاب الضَّلال من المتصوِّفة.

وقوله: «وإنَّ العالِمَ ليَستغفرُ له مَنْ في السماوات والأرض والحيتان في جوف الماء» يستغفرون له؛ لأنه إذا نَشَرَ العلمَ أصلح الله به الأرضَ ودرَّت الخيراتُ والبركاتُ والأمطارُ فتشبع البهائم والحيتان في البحر والمخلوقات جميعاً من الطير وغيرها، فكلُّ هذا يحصل ببركة نَشرِ العلم والدِّين في الأرض، فيأتي لهذه الحيوانات رزقها فتستغفر لهؤلاء الذين كانوا سبباً في حصول الخير لها.

وقوله: «وإن فَضْلَ العالِمِ على العابد كفَضْل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» هذا فيه فضل الاشتغال بالعلم على الاشتغال بالعبادة، وفي هذا أيضاً ردٌّ على المتصوِّفة القائلين: إن الاشتغال بالعبادة أفضل من الاشتغال في تحصيل العلم، ولكن يتَّضح فَضْل العلم على العبادة من حيث إنَّ نَفع العلم يتعدَّى إلى كافَّة الخَلْق، فالعالم مثل القمر ليلة البدر الذي يُضيء الكون فيُساعد المسافرين ويطرد الظُّلمة عن الناس، وأمَّا الكوكب فإنه يُضيء لنفسه فعمله

قاصر على نفسه، وكذلك العابد الذي نَفْعُ عبادته قاصرٌ عليه، بخلاف العالِمِ الذي نَفْعُه يكون له ولغيره ولهذا شُبِّه بالقمر، وهذا وجه المشابهة في تمثيل الرسول ﷺ للعالم بالقمر ليلة البدر التي هي ليلة التمام على الكوكب الذي إنما ضوؤه حَولَه فقط ولا يتعدّاه.

وقوله: «وإنَّ العلماء وَرثةُ الأنبياء» هذا شرفٌ لهم، لأن العلماء ورثوا الرسول ﷺ، والرسول ﷺ لم يورِّث الدُّنيا ولا الأموال، لأنَّ هذا عَرَضٌ فانٍ وزائل، وإنما ورَّث الأنبياء «العلمَ» الذي يبقى ويدوم، ويدلُّ على الجنَّة وعلى السعادة، وهذا هو الميراث الصحيح، فالعالم وإن كان فقيراً فهو عنده خيرٌ كثير أفضل من التاجر الذي يملك المليارات وليس عنده علم، ولا مقارنة بينهما، لأنَّ التاجر الذي عنده الأموال سيتركها أو ربما تَتْلَف ثم إنه سيُحاسب عليها يوم القيامة، وأمَّا العالم وإن لم يكن عنده شيء من متاع الدُّنيا الزائل إلاّ أنه عنده خير الدُّنيا والآخرة وهو العلم الذي نَفَعَه ونفع غيره، والرسول ﷺ لم يكن يدَّخر شيئاً من الدُّنيا لنفسه، وإنما كان يعيش عيشة الفقراء، وربَّما يربط الحجر على بطنه من الجوع وإذا جاء شيء من الأموال أنفقه في سبيل الله، وقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند

يهوديّ بثلاثين صاعاً من شعير أخذها رزقاً لعياله[1]. ولو شاء لَمَلَكَ الدُّنيا بأسرها، ولكنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد الآخرة وما عند الله عزَّ وجل.

وقوله: «وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً» قوله: «ديناراً» يعني: من الذَّهب، و«درهماً» من الفضة، فلم يورِّثوا فضَّةً ولا ذهباً.

وقوله: «وإنما ورَّثوا العلمَ، فمَن أخذ أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ» يعني: مَنْ أخذ من ميراث النبوَّة فإنما أخذ الكثير الذي لا يعلم كثرته إلا الله سبحانه وتعالى. وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه مرَّ على الناس وهم يتبايعون في سوق المدينة، فقال: ما أعجزَكُم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسَّم وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه! قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سِراعاً إلى المسجد، ووقف أبوهريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٠٩)، والترمذي (١٢١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المسجدَ فدخلنا فلم نَرَ فيه شيئاً يُقسم! فقال لهم أبوهريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قوماً يصلُّون، وقوماً يقرؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبوهريرة ﷺ: وَيحكُم فذاكَ ميراث محمد ﷺ"[1].

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢/ ١١٤ (١٤٢٩).

[الحكمة ضالَّة المؤمن]

١١٩- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «الكلمةُ الحِكمةُ ضالَّةُ المؤمن؛ فحيثُ وَجَدها فهو أحقُّ بها» رواه الترمذي وقال: غريبٌ، وابنُ ماجه(١). [١٣٤]

١٣٤- قوله ﷺ: «الكلمة الحكمة» أي: ذات الحكمة المشتملة عليها، وهي الفقه في الدِّين، فينبغي أخذُ العلم أينما وُجد، ولو كان مَنْ يؤخذ عنه قليل الشأن والمكانة عند الناس.

وقوله: «ضالَّة المؤمن» الضالَّة: هي المال الضائع، والمراد مَطلوبُه «فهو أحقُّ بها» أي: بقبولها؛ يعني: أن المؤمن يطلب الحكمة فإذا وجدها «فهو أحقُّ بها» أي: بالعمل بها واتِّباعها، وقيل: المعنى أن الحكمة ربما صدرت ممَّن ليس بأهلٍ لها ثم وقعت إلى أهلها فهو أحق بها من قائلها من غير التفاتٍ إلى قلَّة شأن من وجدها عنده؛ والرسول ﷺ قَبِلَ من اليهود عندما قال له أحدُهم: نِعْم الأمَّة أمَّتُك لولا أنهم يَعْدِلون! قال: «كيف يعدلون»؟ قال: يقولون: ما شاء الله وشئت قال: «إنَّه ليقول قولاً، قولوا: ما شاء الله ثم شئت»، وقال أيضاً: نِعْم الأمَّةُ أمَّتُك لولا أنهم يُشركون، قال: «ما يقولون؟»

(١) الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩).

قال: يقولون: بحقِّ فلان وحياة فلانٍ، قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ كان حالفاً فلا يَحلِفْ إلاَّ بالله»(١)، فقد أخذ ﷺ الحقَّ وإن كان الذي جاء به يهوديٌّ! فاللائق بحالِ المؤمنِ أن يكون مطلوبُه الحقَّ أينما وحيثما وجده، وأن يكون نظره إلى القول لا إلى القائل.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٠/٢٠٣ (١٠٤٦٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

[صفة الفقيه الناجح]

١٢٠- وعن عليٍّ ﷺ قال: إنَّ الفَقيهَ من لم يُقنِّطِ النَّاسَ مِنْ رحمةِ الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي الله، ولم يُؤمِّنْهم مِنْ عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا عِلمٍ لا فَهْمَ فيه، ولا قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها. رواه الدارمي.[1] [١٣٥]

---

[١٣٥] قوله: «إنَّ الفَقيهَ مَنْ لم يُقنِّطِ النَّاسَ» إنَّ الفقيه كلَّ الفقيه مَنْ لم يُدخل اليأس إلى نفوس الناس من رحمة الله، وهو أيضاً مَنْ «لم يُرخِّص لهم في معاصي الله» بحيث لا يُسهِّل للناس المنكرات ويفتح لهم باب الرَّجاء على الرغم من كثرة معاصيهم واستغراقهم فيها، فالفقيه هو الذي يسلك الطريق الوسط في فتاويه بحيث لا يُدخل اليأس من رحمة الله إلى قلوب الناس ونفوسهم ولا يُسهِّل للناس ارتكاب المعاصي ويفتح لهم باب الرَّجاء، ويمثِّل الطرف الأول الخوارج الذين كفَّروا المسلمين وقتلوهم واستحلُّوا دماءهم، ويمثِّل الطرف الثاني المرجئة الذين يقولون: الإيمان في القلب وافعل ما شئت من المعاصي والسيئات.

ففي هذا الحديث الردُّ على المتساهلين والردُّ كذلك على المتشدِّدين،

---

(١) في «سننه» ١/ ١٠١ (٢٩٧).

وأن المطلوب الوسط والاعتدال.

وقوله: «ولم يؤمِّنهم من عذاب الله» كالمرجئة الذين يقولون: يكفي الإيمان بالقلب ولو فعل العبد ما فعل وقال من الكفر والشرك، فما دام القلب مؤمناً فالعبد من أهل الجنَّة!

وقوله: «ولم يَدَعِ القرآن رغبةً عنه إلى غيره» هذا هو الفقيه الذي يعتمد في أقواله على القرآن الكريم، ولا يعتمد على الآراء وأقوال الناس وعلى قواعد المنطق وعلم الكلام، وإنما يعتمد على كلام الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: «إنه لا خيرَ في عبادةٍ لا عِلمَ فيها»؛ لأن العبادة من غير علم ضلالٌ، وكذلك لا خيرَ في علم لا عبادة معه، وهي طريقة المغضوب عليهم.

وقوله: «ولا عِلمٍ لا فَهْمَ فيه، ولا قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها» لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، فينبغي تَفهُّم معاني القرآن وطَلَب تفسيره، فلا تنفع القراءة المجرَّدة عن الفهم، والتفكُّر والتدبُّر، لأنَّ القصدَ العملُ بالقرآن، وهذا لا يكون إلاَّ بفَهْم معانيه.

١٢١- وعن الحَسنِ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جاءَهُ الموتُ وهو يَطلبُ العلمَ ليُحيي به الإسلام، فَبَيْنَه وبين النَّبيِّين درجةٌ واحدةٌ في الجنَّة»(١). رواه الدارمي. [١٣٦]

---

[١٣٦] في هذا الأثر فضل طلب العلم، وأنَّ الإنسان إذا مات وهو يطلب العلم فإنه يلحق بالنبيِّين، إلاّ أنه لا يكون في درجتهم، لأنَّ النَّبيِّين لا يلحقهم أحد في درجتهم وإنما يكون في الدَّرجة التي تليهم. وفي هذا فضل طلب العلم، والاستمرار عليه إلى الموت، وعدم الاكتفاء بما تمَّ تحصيله وإنما المرغوب فيه هو الاستمرار فيه حتى يأتيه الموت، لأنَّ العلم ليس له نهاية ولا حدّ، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ومَنْ قال: أنا عالم، فهو جاهل، وطلب العلم ينبغي أن لا ينقطع لأنه عبادة.

---

(١) في «سننه» ١/ ١١٢ (٣٤٥).

[باب قَبْضِ العلم]

١٢٢- عن أبي الدَّرداء ﷺ قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فشَخصَ ببَصَرِه إلى السَّماء، ثم قال: «هذا أوانٌ يُختَلَسُ فيه العِلمُ مِنَ الناسِ حتَّى لا يَقدِروا منه على شيءٍ» رواه الترمذي[1]. [١٣٧]

---

[١٣٧] لا شكَّ أنَّ قيام الدِّين والحياة والعمل الصالح إنَّما هو بالعلم النافع، فالعلم النافع والعمل الصالح قرينان، فإذا ذهب أحدُهما لم ينفع الآخرُ، فإذا ذهب العلمُ لم ينفع العمل لأنه يكون على جهل وعلى غير هدًى وأصبح من البِدَع والمُحدَثات والضلال، وإذا ذهب العملُ وبقي العلمُ، فإنه يصبح لا فائدة من هذا العلم؛ لأنَّ ثمرة العلم العملُ، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾[التوبة: ٣٣]، فالهدى: هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح؛ فالرَّسول ﷺ جاء بالأمرين مقترنين، لا يغني أحدُهما عن الآخر، والنبيُّ ﷺ أخبرَ في هذا الحديث عن المستقبل، وهذا ممَّا أطلعه الله عليه ليُخبر

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

به الناسَ، وإلاّ فإنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله جلَّ وعلا، ولكنَّ الله يُطلع رسلَه على أشياء من الغيب لأجل تنبيه الناس وللدَّلالة على صدق رسالتهم، فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ حيث أخبر بأنَّ العلم سيُقبض في آخر الزمان، وليس معنى هذا أنْ يُرفع العلمُ نفسُه بل إنَّ كتاب الله تعالى يبقى والسُّنة كذلك تبقى، والكتب تبقى أيضاً بين أيدي الناس، ولكن يُقبض العلم بموت العلماء، لأنَّ العلم لا بدَّ له مِن حَمَلةٍ يُبيِّنونه ويوضِّحونه للناس، فإذا قُبض العلماء الذين يُبيِّنون للناس ويعلِّمونهم ويفقِّهونهم، فحينئذٍ يُقبض العلم بقَبْض أهله، فهذا خبرٌ معناه التحذير من أن يتساهل الناس في طلب العلم، وإنما ينبغي لهم الحرص عليه لأجل أن يبقى ببقاء العلماء ويستمر، وأمّا إذا أعرضوا عنه وتساهلوا فيه فإنه حينئذٍ يُقبض.

[النهي عن تلاوة القرآن دون تدارسه والعمل به]

١٢٣ - وعن زياد بن لبيد ﷺ قال: ذَكر النبيُّ ﷺ شيئاً فقال: «ذلك عند ذهاب أوانِ العلم» قلتُ: يا رسول الله، كيف يذهبُ العلمُ ونحن نقرأُ القرآنَ ونُقرئه أبناءَنا ويُقرئه أبناؤنا أبناءَهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زيادُ! إن كنتُ لأَراكَ مِنْ أَفقَهِ رجلٍ في المدينةِ، أوَ ليسَ هذه اليهودُ والنَّصارى يقرؤون التَّوراةَ والإنجيلَ لا يَعملونَ بشيءٍ ممّا فيهما» رواه أحمد وابن ماجه(١). [١٣٨]

---

[١٣٨] هذا الحديث يبيِّن أيضاً كيف يُقبض العلم، وأنه يُقبض أولاً بقبض العلماء، وثانياً بتَرْك العمل، فإذا تَرك الناسُ العملَ قُبض العلم، لأنَّ العلم إنما يكبرُ ويَزيد ويُبارك فيه مع العمل به، وليس بمجرَّد حفظه دون العمل به، ولأنه إذا ذهب أحدهما ذهب الآخر، وهذا ما وضَّحه النبيُّ ﷺ لزيادٍ ﷺ في هذا الحديث، فإنَّ زياداً قال للنبيِّ ﷺ: «كيف يذهب العلمُ ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبناءنا ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة» فقد ظنَّ ﷺ أنَّ قراءة القرآن

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨).

وتدارسه وحفظه يُبقي العلم، ولم يكن يعلم أنَّ العلم لا يبقى إذا لم يكن يُرافقه العمل، فتذهب بركته ونوره وزيادته بترك العمل به.

ثم ضرب ﷺ مثلاً ببني إسرائيل الذين عندهم علم من التوراة والإنجيل، فيتعلَّمون ويعلِّمون منها ولكنهم لا يعملون بها، فرحل عنهم العلمُ، لأن العلم لا يقتصر بقاؤه على وجوده في الذاكرة وإنما بقاؤه يكون من خلال العمل به، ولذلك هو نزل، وهو وسيلة والعمل به غاية، وهو المطلوب فإذا ذهبت الغاية لم تنفع الوسيلة.

وقوله ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زياد» الأصل في الثَّكل أنه فُقدان الحبيب، وأكثر ما يُستعمل في فُقدان المرأة زوجها أو ابنها، فالأصل في معنى «ثكلتك أمُّك»: فَقَدَتْكَ، ولكنها تُقال ولا يُراد معناها الحقيقي، وذلك عند التنبيه إلى أمر كان ينبغي أن يُنبَّه له ويُعرف، ولهذا لم يكن الرسول ﷺ يريد معناها الأصلي، وإنما هو لفظ صار يجري على اللسان من غير قصدٍ لمعناه. ويتبيَّن من هذا الحديث أنَّ العِلم يُفقد بأحد أمرين أو بهما معاً:

الأول: فَقْد العلماء الذين يُبيِّنونه ويوضحونه ويفسِّرونه للناس، ويبقى الجهّال الذين لا يعرفون معاني العلم، فيتكلّمون بجهل لا

فائدة منه، وهم أشبه بالقرّاء كما جاء في قول ابن مسعود: «إذا كثُر قرّاؤكم، وقلّ فقهاؤكم»[1].

الثاني: فَقْدُ العملِ به، فلا يبقى للعلم فائدة حينئذ، وإنما يكون لمجرَّد الاستعراض والتباهي به ولأجل الرياء والسُّمعة.

(١) أخرجه الدارمي ١/ ٧٥ (١٨٥).

[الحثُّ على طلب العلم قبل قبضه]

١٢٤ - وعن ابن مسعودٍ ﷺ قال: عليكم بالعلم قبلَ أنْ يُقبَضَ، وقَبضُه ذهابُ أهلِه، عليكم بالعلم فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يُفتقرُ إليه أو يُفتقرُ إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يَزعمون أنَّهم يَدعونَ إلى كتاب الله وقد نَبذُوه وَراءَ ظُهورهم، عليكم بالعلم وإيّاكم والبِدَعَ والتَّنطُّعَ والتَّعمُّقَ، وعليكم بالعَتيقِ. رواه الدارمي بنحوه(١).[١٣٩]

[١٣٩] قوله: «عليكم بالعمل قَبل أن يُقبض» أي: تعلَّموا من العلماء إذا ما وُجدوا بينكم، فاحمِلوا العلم عنهم، لأنَّ العلم إنَّما يؤخذ من العلماء ومن أهله الحاملين له، ولا يؤخذ من الكتب أو من الجهّال والمتعالمين.

وقد حثَّ ﷺ على الاقتداء بالأقدمين فقال: «وعليكم بالعتيق» يعني: بالقديم؛ لأنه كلَّما ارتفع الزمان، وقَرُب من زمان رسول الله ﷺ ومن أصحابه ومن التابعين، فإنه يكون أقرب إلى الصِّحة والثُّبوت وعدم وجود الدَّخيل فيه، فعِلمُ السَّلف لا شكَّ أنه هو العلم الصافي، وأمّا علمُ الخلَف فقد دَخَله ما دَخَله، فمنه ما هو صحيح ومنه ما هو

(١) في «سننه» ١/ ٦٦ (١٤٣).

غير ذلك، لأنه بعد القرون الثلاثة المفضَّلة دخلت الأهواء عند بعض المسلمين وانتشرت الفِرَق بخلاف وقت القرون المفضَّلة التي كان العلم فيها صافياً لا دَخيل فيه، لأنهم كانوا حرّاساً وأُمناء عليه، فكلّما تقادم القولُ كان أقربَ إلى الصواب، هذا معنى كلام ابن مسعود ﷺ، فحَثَّ أولاً على طلب العلم من أهله، وثانياً على أخذ العلم القديم؛ لأنه أقربُ إلى الصواب وإلى عهد الرَّسول ﷺ، وللإمام الحافظ ابن رجب رحمه الله رسالة جيدة في بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لأنه وُجد من أهل الضلال مَنْ يفضِّل علم الخلف على علم السَّلف مدَّعين أنَّ علم الخلف أكثر فهماً، وأنَّ السَّلف مجرَّد عُبَّاد، لأنَّ الجهاد كان يُشغلهم عن العلم وغير ذلك من الأمور التي تُزهِّد في علم السلف الذين يتَّهمونهم بأنهم لم يكونوا يستعملون العقل بخلاف الخلف الذين أخضعوا علومهم للعقل والفِكْر، وغير ذلك من الشُّبهات التي أثاروها، وقد ردَّ عليهم ابن رجب في رسالته هذه فأجاد وأفاد، وبيَّن فضل علم السَّلف على الخلف، وفنَّد مزاعم من يقول: إن علم السلف أسلم وعلم الخلف أعلم وأحكم، وقد كذبوا في هذا، لأنَّ السلامة لا تكون إلا مع العلم والحكمة.

وقوله: «وإيّاكم والبِدَع والتنطُّعَ والتعمُّق» وفي هذا نهي عن اتِّباع الأمور المحدَثة وعن كثرة التشقيقات والجدليات والافتراضات وكثرة الكلام؛ لأن العلم ليس بكثرة الكلام وإنما العلم بالتأصيل، ولذلك كان عِلمُ السَّلف أقل كلاماً وأكثر فائدة، وأقلّ لفظاً وأكثر معنىً. ومما ذكره الحافظ ابن رجب أن السَّلف كانوا أقلَّ كلاماً ولكنهم كانوا أغزر علماً وفائدة، والخلفُ على العكس فكانوا أكثر كلاماً وأقلَّ فائدة.

وممّا يُفهم أيضاً من كلام ابن مسعود ﷺ: دعوتُه إلى تحصيل العلم من أصوله، لأنه سيُحتاج إليه، وسيَحتاج الناسُ إلى العلماء، فيكون عند مَنْ حصَّله أهليَّةٌ لحَلِّ ما يَعرِضُ من المشكلات، فمَن لم يكن عنده أهليَّة وجاءته مشكلة أو معضلة تحيَّر وإن ادَّعى العلم والمعرفة، بخلاف أهل العلم الصحيح الذين يتصدَّون للمُلمات الصعبة، فالعلم ليس بالدَّعوى، وإنما هو حقيقة، ولسان حال ابن مسعود ﷺ أنه يقول: عليكم بالاستعداد من خلال التسلُّح بالعلم لأنه إذا ما حصلت مشكلة يكون حلها سهلاً، إمّا مشكلة عامّة وإما مشكلة فردية.

١٢٥ - وفي «الصَّحيحين»(١) عن ابنِ عمرَ مرفوعاً: «إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العلمَ انتزاعاً يَنتزعُه من العباد، ولكن يَقبِضُ العلمَ بموتِ العلماء، حتى إذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخذ النّاس رؤوساً جُهّالاً، فسُئلوا فأفتَوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضلُّوا». [١٤٠]

---

[١٤٠] بيَّن النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بأيِّ شيء يُمكن أن يُقبض العلم، ولا يعني قَبْضُ العلم رَفعُه كلُّه بحيث لا يبقى في الأرض العلم، وإنها يبقى موجوداً في الكتب وصدور الحفّاظ، وإنما المراد بقَبْضِ العلم هنا: قَبضُ أهله وهم العلماء، فيتَّخذ الناس رؤوساً جهّالاً يحكمون بجهالاتهم فيَضلُّون ويُضلُّون، فإذا ذهب العلماء بعد قبض أرواحهم حلَّ محلَّهم المُتعالِمون الجهّال، فتُعرض عليهم المشكلات والمسائل فيفتون بغير علم، وهذا ما سبق في كلام ابن مسعود رضي الله عنه في حثّه للاستعداد بالتسلُّح بالعلم.

وقوله ﷺ: «فضَلُّوا»: لأنهم أفتوا بغير علم «وأضلُّوا» غيرَهم، فتحصل منهم جريمتان في أنفسهم وفي غيرهم، فلا تجوز الفتوى بغير علم، ولا التخرُّص أو الاعتماد على الظَّنِّ، والله جلَّ وعلا أنزل الكتاب والسُّنة وسيأتي زمانٌ يُفقد فيه الذين يَفتُون على ضوئهما،

---

(١) البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

....

ولا يبقى إلّا القرّاء والرُّؤوس الجهّال في القضاء والمناصب التي يعتلونها والتي يُظَنُّ بسببها أنهم من أهل العلم، إلاّ أنهم يفتون بغير علم، ولهذا يُروى عن عمر بن الخطاب ﷺ: تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا[1]، يعني: تعلَّموا قبل أن تتولَّوا المناصب والمراتب.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٥/ ٢٨٤ (٢٦١١٦).

١٢٦- وعن عليٍّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُوشِكُ أنْ يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبقى مِنَ الإسلام إلا اسمُه، ولا يَبقى مِنَ القرآن إلاَّ رَسْمُه، مساجدُهم عامرةٌ وهي خرابٌ من الهُدى، علماؤهم شَرُّ مَنْ تَحتَ أديمِ السَّماءِ، مِنْ عندهم تَخرجُ الفتنةُ وفيهم تَعودُ» رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(١).

[١٤١]

[١٤١] قوله ﷺ: «يُوشك أن يأتي على الناس زمان» يوشك: من أفعال الشروع، يعني: يَقرُب أن يأتي على الناس وقت «لا يبقى من الإسلام إلا اسمه» وهذا واقع في زماننا؛ لأن الذين ينتسبون للإسلام كثير، ولكن الإسلام الصحيح غريب كما قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»(٢)، فالذين يدَّعون الإسلام كثير، ولكنهم ليس عندهم من الإسلام معرفة ولا بصيرة إلاّ مجرَّد الانتساب، فكثير منهم يعبدون غير الله عزَّ وجلَّ، فيدْعون الأولياء والصالحين ويبنون المشاهد على القبور، حتى جعلوها أوثاناً تُعبد من دون الله، ومنهم مَنْ يعبد الله بالبدع والمحدثات، ويترك السُّنن،

(١) «شعب الإيمان» ٢/ ٣١١ (١٩٠٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فتراهم يُقيمون الموالد والاحتفالات ويُسمُّونها بالمناسبات الدِّينية، ومن هؤلاء مَنْ يأكل الرِّبى ويتعاملون بالقمار والميسر ولا يُبالون بالحلال والحرام، وإنما يُجارون الكفّار ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله وهم يدَّعون الإسلام فيتعاملون بغير معاملة الإسلام، ومنهم مَنْ هو ليس على الإسلام أصلاً بل هو مشرك وخارج عن الدِّين بشركه، ومنهم من هو مسلم ولكنه ضعيف الإيمان وعمله غير صحيح يقوم على البدع والمحدثات، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ عَمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»[1]، والأدهى مِنْ ذلك - بعد الشِّرك - الذين لا يصلُّون ويقولون: إنَّ الدين ليس بالصَّلاة، والحقيقة أن تَرْك الصلاة كفر مُخرجٌ من الملَّة.

ثم إنَّنا لو دقَّقنا النظر في كثير من الناس في عالمنا الإسلامي إلا مَنْ رحم الله لوجدناهم من هذه الأصناف، فلم يَبْقَ إذاً من الإسلام إلا اسمُه.

وقوله: «ومِنَ القرآن إلاَّ رَسمُه» على الرَّغم من وجود القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

في المصاحف، ولم يُغيَّر منه شيء، فهو باقٍ كما أُنزل على محمد ﷺ، فرسمُه موجود، ولكن معرفته والعمل به مفقود، وليس المراد من وجود القرآن حفظُه أو تلاوته أو تجويده، وإنما المراد تدبُّره والعمل بما فيه، فإذا ذهب التدُّبر والعمل به لم يَبْقَ إلا وجود المصاحف، وهذا لا يُجدي شيئاً، كوجود السلاح مع الإنسان الذي لا يُحسن استعماله، فإذا غَدا عليه عدوٌّ لا يستخدمه، وهذا لا يُفيد شيئاً، وهذا يُشبه وجود القرآن عند مَنْ لا يعملون بما فيه ولا يفقهون معانيه.

وقوله: «مساجدهم عامرة وهي خراب من الهُدى» وهذه صفة أخرى من صفات هؤلاء الناس، فهم يبنون المساجد ويزخرفونها، ولكنها خالية من ذِكْر الله ولا يُدرَّس فيها العلم، بل ليس فيها صلاة، لأن بعض المساجد مغلقة ولا يصلَّى فيها، فالمساجد خَرِبَت مِنَ الهدى، ولكنها عامرة بالبنيان، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] هذه هي عمارة المساجد، وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ

فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] هكذا تكون المساجد عامرة، وإن كان عمارها المادي من أيِّ شيء، لأنها إن كانت عامرة بالهدى والنور وذكر الله فهي معمورة، فقد كان مسجد الرسول ﷺ قائماً على جذوع النخل وعلى الجريد، وكان المطر إذا نزل يتزل إلى داخل المسجد، فيسجد الرسول ﷺ وأصحابُه على الطِّين، ولم يكن للمسجد أبواب ولا مصابيح، وكانت الكلاب تدخل فيه، وكان ـ مع ذلك كلِّه ـ منارة الدُّنيا، وهو الذي شعَّ منه النُّورُ في العالم، وهو الذي خرج منه المجاهدون والأبطال، وخرج منه العلماء والأحبار، فالعِبْرة ليست في نوع البُنيان وضخامته، وإنما العبرة بما يحصل في هذه المساجد من العبادة والتعليم.

وقوله: «علماؤهم شَرُّ مَنْ تحت أديم السَّماء» لأنهم لا يقولون كلمة الحقِّ، ويتابعون هوى الناس، فيفتونهم بما يصلح لهم ولا يُغْضِبون المسؤولين، ويتلمَّسون لهم الرُّخصَ، بحُجَّة التوسعة لهم وللناس، فلا يفتونهم بالحقِّ والعلم الصحيح، فهم شَرُّ مَنْ تحت

أديم السماء، وإن كانوا علماء، وقد شبَّه الله مثل هؤلاء بالحمير والكلاب، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، هؤلاء هم شر مَن تحت أديم السماء.

وقوله: «مِنْ عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود» لأنهم يفتنون الناس بأعمالهم وأقوالهم فيصرفونهم عن دينهم، يفتوهم بأن الدُّعاء لغير الله هو من الدِّين وهو الذي عليه المسلمون، وينسون قول الرسول ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1]، وقوله ﷺ: «ألا وإنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنِّي أنهاكم عن ذلك»[2]، وعلماء الضلال أشدُّ خطراً على المسلمين،

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله ﷺ.

لأن الناس يقتدون بهم، وقد سمعنا مَنْ يقول: لو كان دعاء الحسن والحسين والبدوي شركاً لما سكت العلماء على ذلك، فصار العوام وكثير من الناس في ذمّة هؤلاء العلماء الضالّين.

باب التَّشديد في طلب العلم للمِراء والجدال

١٢٧- عن كعب بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجارِيَ به العلماءَ أو لِيُماريَ به السُّفَهاءَ أو يَصرفَ به وُجوهَ النَّاسِ إليه أدخلَه اللهُ النارَ» رواه الترمذي(١). [١٤٢]

---

[١٤٢] قوله: «باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال» التشديد: يعني: التحذير من طلب العلم لا لأجل العمل وإنما لأجل «المراء» وهو الشَّك، فإنَّ كل واحد من المتحاجِّين يَشُكُّ فيما يقوله الآخر ويُشكِّكُه، لِمَا في ذلك من حُبِّ الظهور «والجدال» أي: الدُّخول في المناظرات والمناكفات لإظهار العلم أمام الناس.

فمَن ساءت نيَّتُه في طلب العلم صار من أهل النار، ومن ذلك الذين يتعلَّمون العلم من أجل أن يُجاروا العلماء.

فقوله: «من طَلَب العلمَ» أي: ليس لوجه الله، وإنما «ليجاري به العلماء» أي: يجري معهم في المناظرة والجدال ليظهر علمه في الناس رياءً وسمعةً، «أو ليُماري به السُّفهاء» أي: ليُجادل به الجهَّال،

---

(١) برقم (٢٦٥٤).

أو لأجل أن «يصرف في وجوهَ الناسِ إليه» ليُعظِّموه ويُقدِّروه ويُجِلُّوه ليقولوا: هو عالمٌ؛ فإذا كان هذا هو قصد طالبِ العلم فإنه من أهل النار، ولهذا قال ﷺ: «أدخله الله النار»، لأن العلم لم ينزَّل لذلك، وإنما نزِّل للعمل الصالح والإخلاص لوجه الله والتواضع ونفع الناس.

[الجَدَل سبب الضَّلال]

١٢٨- وعن أبي أُمامة ﷺ مرفوعاً: «ما ضَلَّ قومٌ بَعد هدًى كانوا عليه إلاّ أُوتوا الجَدَل» ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه[١]. [١٤٣]

[١٤٣] في هذا الحديث بيان أنَّ الناس إذا تركوا العمل بالعلم، ولم يعملوا بالسُّنة فإنَّهم يُبتلَون بالضدِّ، وهو الجَدَل الذي هو بَدَل العلم النافع، فمَن تَرك سبيل الهُدى وركب سُنن الضلالة، ولم تَمش أحواله إلاّ بالجدل، أي: بالخصومة بالباطل، ليُروِّج للمذاهب الكاسدة والعقائد الفاسدة لا المناظرة لإظهار الحَقِّ واستعمال ما ليس معلوماً عنده، أو تعليم غيره ما عنده، ابتلاه الله بالجَدَل، ومن ترك السُّنة ابتُلي بالبدعة والمحدثات عقوبة له.

فالواجب على المسلمين عموماً وطلبة العلم خصوصاً العمل بالعلم والإخلاص لله عزَّ وجلَّ والحَذَر مِنَ البِدَع والمُحدَثات، وإلاّ فإنَّ الله سيُعاقبهم، فيُبدلهم الجَدَل بدل العلم، والجَدَل لا فائدة

(١) الإمام أحمد (٢٢١٦٤)، والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨).

فيه، فليس من سماته إلا المغالطات والمُهاترات ومحبَّة الغَلَبة والظُّهور على الخصم، فهذه عقوبة، وإذا تركوا السُّنة ابتُلوا بإحياء البِدَع والمُحدثات كما هو واقع ومشاهد.

ولمَّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩] قال المشركون: أَكُلُّ مَنْ عُبِد دون الله في جهنم مع مَنْ عَبَدَه؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عُزيراً والنصارى تعْبد المسيح عيسى ابن مريم!!

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾[1] [الزخرف: ٥٨] هم يعرفون أن قولهم هذا باطل، وإنما قصدهم الجدال، ودفع الحقِّ فقط، فهم يعرفون أن عيسى ابن مريم رسول الله وأنه ينهى عن عبادته ولا يرضى بالشِّرك، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] أي: أصحاب خصومة يريدون التغلُّب بالباطل، فهذا دليل على أنَّ مَنْ ترك الحق فإنه يُبتلى بالجَدَل، فهؤلاء لـمَّا تركوا ما

---

(١) انظر «تفسير» ابن جرير الطبري ٩/ ٩٠.

جاء به الرسول ﷺ من إخلاص التوحيد ابتلاهم الله بالجدَل. ولكن الله تعالى قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ومِنْ أوْلى هؤلاء عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد سبقت له الحسنى لأنه رسول الله، فالله جلَّ وعلا ردَّ عليهم بهذا الردِّ.

[أبغض الرِّجال إلى الله]

١٢٩- وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبغَضَ الرِّجال إلى الله الألَدُّ الخَصِمُ». متفق عليه(١). [١٤٤]

---

[١٤٤] في هذا الحديث النهي عن الجدَل والخصومات، وأنه ينبغي على المسلم إرادة الحقِّ، لا التغلُّب بحُجّته وإن كانت باطلة كما هو حال أهل الضلال.

قوله ﷺ: «الألَدُّ» أي: شديد الخصومة بالباطل.

وقوله: «الخَصِمُ» أي: الحاذق بالخصومة؛ والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حقٍّ أو إثبات باطل.

والله جلَّ وعلا يُبغض الألدَّ الخصم؛ لأنه ليس قصده الحقَّ وإنما حبُّ ظهور الحُجّة بالخصومة ولو بالباطل؛ ولأنَّ كثرة المخاصمة تُفضي غالباً إلى ما يُذَمُّ صاحبُه، لأنَّ أكثر المخاصمة تكون في باطلٍ من أحد الطرفين، ولهذا جاء النهي عنها.

---

(١) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

[النهي عن طلب العلم للمراء ونحوه]

١٣٠- وعن أبي وائلٍ عن عبد الله ﷺ قال: مَنْ طَلَبَ العِلمَ لأربعٍ دَخَلَ النَّارَ - أو نحوَ هذه الكلمةِ -: لِيُباهي به العلماءَ، أو ليُماريَ به السُّفهاءَ، أو ليَصْرِفَ به وُجوهَ النَّاسِ إليه، أو ليَأخُذَ به مِنَ الأُمراءِ. رواه الدارمي[١]. [١٤٥]

[١٤٥] قوله: «ليُباهي به العلماءَ، أو ليُماري به السُّفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه» سبق الكلام عليها في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في أول الباب.

وقوله: «أو ليأخذ به مِن الأمراء» أي: يطلب العلم الشرعي ليحصل به من فُتات الدُّنيا، أو لأجل أن يقدِّره الأمراء ويعطوه المالَ، فإذا كان هذا قَصدَه فهو في النار؛ لأنَّ العلم عبادة، والعبادة إنما ينبغي أن يُطلب بها ثواب الآخرة، لا طَمَعَ الدُّنيا.

(١) في «سننه» ١/ ١١٥ (٣٦٧).

[صفة العلماء المتقين]

١٣١- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لقوم سمعهم يتمارون في الدِّين: أَمَا علمتم أنَّ لله عباداً أسكتتهم خشيةُ الله من غير صَمَمٍ ولا بُكمٍ، وإنَّهم لَهُم العلماءُ والفُصحاءُ والطُّلقاءُ والنُّبلاءُ، العلماءُ بأيَّام الله، غيرَ أنَّهم إذا تذكَّروا عظمة الله طاشَتْ عُقولهُم وانكسَرتْ قُلوبهُم، وانقطعتْ ألسنَتُهم حتى إذا استَفاقوا مِنْ ذلك تَسارعوا إلى الله بالأعمال الزَّاكية، يَعدُّون أنفُسَهم مع المُفرِّطين، وأنَّهم لأكياسٌ أقوياءُ ومع الضَّالين والخطَّائين، وإنَّهم لأبرارٌ بُرءاءُ، ألا إنَّهم لا يَستكثِرون له الكثيرَ، ولا يَرضَون له بالقليل، ولا يُدِلُّون عليه بأعمالهم حيث ما لَقيتَهم مُهتَمُّون مُشفِقون، وَجِلون خائفون. رواه أبونعيم[1]. [١٤٦]

---

[١٤٦] هذا كلام عظيم من ابن عباس رضي الله عنهما يَصِفُ فيه العلماءَ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون.

قوله: «أسكتتهم خشيةُ الله من غير صَمَمٍ ولا بُكمٍ» لأن العلم قسمان:

---

(١) في «حلية الأولياء» ١/ ٣٢٥ (١٣١).

الأول: علمٌ على اللسان فقط، وهذا يكون مع المنافق ومع مَنْ يريد الدُّنيا أو مَنْ يريد الجدال والخصومة، وهذا علمٌ لا ينفع بل يَضُرُّ، والنبيُّ ﷺ يقول: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ على أُمَّتي كلُّ منافقٍ عليمِ اللسانِ»[(١)].

والثاني: علم القلب، وهو العلم النافع، وهو الذي ترافقُه الخشية من الله عزَّ وجل، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فإذا أُعطيَ الإنسانُ علمَ اللسانِ وعلمَ القلب والخشية كان عالماً، وأمّا إذا أُعطيَ علمَ اللسانِ ولم يُعطَ علم الخشية كان خاسراً، ولن ينفعه علمُه، وإنما يكون حجَّةً عليه يوم القيامة.

وقوله: «يَعُدُّون أنفسَهم مع المفرِّطين» أي: لا يستكثرون أعمالهم ولو كانت كثيرة، وإنما يستقلُّونها، لأنَّ حقَّ الله أعظم، ولا مقارنة بين أعمال العبادِ وبين حقِّ الله تعالى عليهم، فنِعَمه تعالى كثيرة ولن يؤدِّي حقَّها العبادُ مهما كانت أعمالهم كبيرة، وهو في جانب حقِّ الله قليل؛ ولذلك فإن من صفة هؤلاء العلماء الأتقياء أنهم لا يفتخرون

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بأعمالهم على الناس ولا بعلمهم، بل يعتبرون أنفسهم من أقلِّ الناس عملاً، وأدناهم منزلة، فلا يترفَّعون عليهم، وإنما يتواضعون لله عزَّ وجلَّ؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها لـمّا سمعت هذه الآيات: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا يا ابنةَ أبي بكر - أو يا ابنة الصِّديق - ولكنَّه الرَّجلُ يصوم ويصلِّي ويتصدَّق ويخافُ أن لا يُقبل منه»(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٩/ ٢٢٤.

١٣٢- قال الحسنُ - وسمع قوماً يتجادلونَ -: هؤلاء قومٌ مَلُّوا العبادةَ، وخَفَّ عليهم القولُ، وقَلَّ وَرَعُهم فتكلَّموا[1]. [١٤٧]

---

[١٤٧] قوله: «ملُّوا العبادة» ولذلك اشتغلوا بالجدل والمناقشات، فلمّا تركوا العبادة انصرفوا إلى الجَدَل.

قوله: «خَفَّ عليهم القولُ» أي: يستمرُّون في حلقات الجدال ولا يَمَلُّون منه، حتى أصبح أهون عليهم من أيِّ شيء آخر، بخلاف العبادة التي يَمَلُّون منها.

وقوله: «وقَلَّ وَرَعُهم فتكلَّموا» بسبب اشتغالهم بالجدل والكلام لم يَبقَ عندهم ورع، ولو كان عندهم ورع لعلموا أنَّ الله سيُسجِّل عليهم كلامهم، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، فلو تذكَّروا هذا لقلَّلوا من الكلام إلا في طاعته عزَّ وجلَّ.

ويدخل في هذا الأمر الذين يُصْدِرون الأحكام الشرعية ويُفْتون الناس دون علم أو تثبُّت لقلَّة ورعهم، إذ لو كان عندهم ورع لَما تساهلوا في الفتوى والتحليل والتحريم، الذي هو من أشدِّ ما يترتب على قلَّة الورع.

---

(١) أخرجه أبونعيم في «حلية الأولياء» ٢/ ١٥٧.

[التجوُّز في القول وتَركِ التكلُّف والتنطُّع]

١٣٣- وعن أبي أُمامةَ ﷺ مرفوعاً: «الحياءُ والعِيُّ شُعبتانِ مِن الإيمانِ، والبَذاءُ والبَيانُ شُعبتانِ مِنَ النِّفاقِ». رواه الترمذي(١). [١٤٨]

[١٤٨] قوله: «التجوُّز في القول» يعني: الاختصار، والمراد: الكلام بقَدْر الحاجة وعدم الزيادة في الكلام بشيءٍ لا يُحتاج إليه، لأنَّ هذا يُثقل السامع ويتسبَّب له بالملل وربما يُنسي المستمعين معنى الكلام الذي يقصده المتكلِّمُ، فالإطالة في الكلام تسبِّب في إضاعة المعنى، بخلاف قلَّة الكلام والاختصار التي يتَّضح فيها المعنى، ولهذا كان كلام النبيِّ ﷺ مختصراً ووجيزاً ومعدود الكلمات، ولم يكن ﷺ يتكلَّم لأكثر من الحاجة، ولهذا كانت خُطبُه وأحاديثُه ﷺ تُحفظ لأنها من جوامع الكلم كما قال ﷺ: «أُوتيت جَوامعَ الكَلِمِ»(٢).

وقوله: «وتَرْك التكلُّف والتنطُّع» التكلُّف: هو إظهار البلاغة

(١) برقم (٢٠٢٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٩٧)، وبنحوه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والفصاحة، والتنطُّع: هو التَّعمُّق والغُلوُّ في الكلام والتوسُّع فيه، وهذا حاصل عند بعض المتحدثين والخطباء في وقتنا الحاضر، مع أنَّ الأصل في المتكلمين والخطباء أن يؤدُّوا الكلام بأسلوب واضح وعبارات واضحة والابتعاد عن العبارات الغريبة والأساليب المعقَّدة، لإرادة إظهار الشخصية والفصاحة، فينبغي اختيار الألفاظ الواضحة التي لا لَبْسَ فيها، وعدم التَّعمُّق بالألفاظ الغامضة والغريبة بحيث يصعب على السامع فَهمُها، وهكذا كان النبيُّ ﷺ.

قوله ﷺ: «الحياءُ والعِيُّ» الحياء: خُلُقٌ يمنع الإنسان ممّا يُستحيى من قوله أو ظهوره وممّا لا يليق، هذا هو الحياء المحمود، وهو من الإيمان كما قال ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[(١)]، والمطلوب هو الحياء الذي يَكُفُّ صاحبَه عمّا لا يَليق، وهو الذي يكون من الإيمان. وأمّا الحياءُ الذي يمنع صاحبه من التعلُّم والسؤال عمّا يحتاج إليه، ومن التعليم والدَّعوة إلى الله ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو حياءٌ مذموم، وهو خجل

(١) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لا حياء، وهو غير مطلوب، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فالحياء الذي يمنع من الحقِّ هو حياء مذموم وليس هو الممدوح.

وقوله: «العِيّ» يعني: قلَّة الكلام، لا العجز عن الكلام، فيكون هذا شاهداً للباب، فينبغي الاقتصار على ما يُحتاج إليه من الكلام وعدم الزِّيادة فيه شيئاً لا يُحتاج إليه، وهذا من الإيمان أيضاً، وإنَّ صاحبه يكون متَّصفاً بالإيمان، فإن كان يريد المدح والثناء فهو من النِّفاق، لكن إذا كان يريد بيان الحقِّ لا المدح والثناء فهو من الإيمان؛ فقلَّة الكلام والاقتصار على ما يُحتاج إليه إنما هو من الإيمان، بخلاف كثرة الكلام التي هي من النِّفاق، لأن الغالب على صاحبه حُبُّ الظُّهور والمدح.

وقوله: «والبذاء والبيان» البذاء: هو مقابل الحياء، وهو من البذاءة التي هي الإساءة والفُحْش، وهو من خصال المنافقين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

و«البيان»: هو كثرة الكلام والتَّعمُّق في النُّطق والتَّفاصُح، وإظهار

التقدُّم فيه على الناس وكأنه نوع من العُجب والكِبْرِ، ولكن سيأتي أنَّ مِنَ البيان ما هو ممدوح، وهو البيان الذي يُظهر الحقَّ ويوضِّحه للناس، بخلاف البيان الذي يحمل صاحبه على حُبِّ المراء الذي هو من النِّفاق.

فقوله: «البذاء» يقابل قوله: «الحياء» وقوله: «البيان» يقابل «العِيِّ»؛ فالمراد بالبيان هنا: كثرة الكلام دون فائدة.

[بيان فضيلة حُسن الخُلق]

١٣٤- وعن أبي ثَعلبةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحبَّكمْ إليَّ وأقربَكُمْ منِّي يَوْمَ القيامةِ أحاسِنُكُمْ أخلاقاً، وإنَّ أبغضَكُم إليَّ وأبعدَكُم منِّي مَساوِءُكُم أخلاقاً، الثَّرثارونَ المُتَشدِّقونَ المُتَفيهِقُونَ» رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[(١)].

١٣٥- وللترمذي نحوه عن جابر ﷺ[(٢)]. [١٤٩]

---

[١٤٩] في أوَّل الحديث الحثُّ على حُسن الخُلق، وقوله ﷺ: «أحاسِنُكُم» جمع حَسَن؛ أي: حَسَن الخلق هو الذي يُحِبُّه الرَّسول ﷺ، ويكون منزله يوم القيامة قريباً من منزل الرسول ﷺ. وحُسن الخُلق مِيزة عظيمة امتنَّ الله بها على مَنْ يشاء من عباده؛ ولهذا امتدح الله تعالى نبيَّه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد كان ﷺ حَسَنَ الخُلقِ وأكملَ الناسِ خُلقاً، وهو يُحِبُّ محاسِنَ الأخلاق.

---

(١) «شعب الإيمان» ٤/ ٢٥٠ (٤٩٦٩).

(٢) برقم (٢٠١٨).

ففي هذا الحثُّ على حُسن الخُلق وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه، وهو نعمة من الله يُعطيها لـمَن يشاء، ولهذا ينبغي للعبد أن يُحسِّن أخلاقه ويُربِّيَ نفسَه على ذلك ويُعوِّدها على حُسن الخُلق، وإن كان أصل حُسن الخُلق من الله تعالى، وعلى العبد أن يتسبَّب في هذا فيتواضع ويبذل المعروف وأن يخالط الناس بالجميل والبِشْر.

وقوله: «وأبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مساوءَكُم أخلاقًا» أي: إن أصحاب الأخلاق السيئة هم أبغضهم إليه ﷺ في الدُّنيا وأبعدهم عنه يوم القيامة، وهم «الثَّرثارون» وهم الذين يُكثرون الكلامَ تكلُّفًا وخروجاً عن الحقِّ، «والمتشدِّقون» وهم المتوسِّعون في الكلام من غير احترازٍ واحتياط، ومما يُروى عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله:

وَزِنِ الكـلامَ إذا نَطقـتَ ولا تكُـنْ
ثَرْثــارةً في كــلِّ نــادٍ تَخطُــبُ

واحفَظْ لسانكَ واحتَرِزْ من لَفظِهِ
فـالمرءُ يَـسلمُ باللِّـسان ويَعطَـبُ

والمتشدِّق في الأصل: هو الذي يملأ شِدقَه وفمَه تعاظُماً وإعجاباً بنفسه، وكذلك «المتفيهقون» هم الذين يتوسَّعون في الكلام ويفتحون به أفواههم تكبُّراً، وهي صفات ذميمة، والشاهد في الحديث آخره في قوله ﷺ: «الثَّرثارون المتشدِّقون المتفيهقون».

[ذمُّ المدّاحين غيرهم بما ليس فيهم]

١٣٦- وعن سعد بن أبي وقّاصٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتى يَخرجَ قومٌ يأكلونَ بألسِنَتِهم كما تأكلُ البَقَرُ بألسِنَتِها» رواه أحمد وأبوداود والترمذي(١). [١٥٠]

[١٥٠] في هذا الحديث ذمٌّ للذين يمدحون الناس بما ليس فيهم من أجل الحصول على عطائهم، فيأكل بلسانه، فيستعمل لسانه لأجل الأكل، فهو يمدح الناس ويُكثر الثناء عليهم لأجل هذا لا سيّما الأمراء والملوك، فهذه صفة ذميمة، لأن طلب الرزق لا يكون بهذه الطريقة، وإنما يكون بالطريقة المشروعة وليس بالنِّفاق والتَّملُّق وكثرة المدائح.

وقوله ﷺ: «كما تأكل البَقَرُ بألسنتها» هذا تمثيل يُقصد منه الذَّم، ووجه الشَّبه بينهما أن هؤلاء القوم يتَّخذون ألسنتهم ذريعةً إلى مأكلهم كما تأخذ البقر بألسنتها، ووجه الشبه بينهما لأنهم لا يهتدون مِنَ المآكل كما أنَّ البقرة لا تتمكّن من الاحتشاش إلّا بلسانها، والآخَرُ

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١٥٩٧)، وليس هذا الحديث عند أبي داود ولا الترمذي، ولعل المصنِّف رحمه الله أشار إلى حديث عبد الله بن عمرو التالي.

أنهم لا يميِّزون بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام كما لا تميِّز البقرةُ في رَعْيها بين رَطب ويابس وحلو ومُرٍّ، بل تَلُفُّ الكلَّ، وفي هذا تمثيل ذمٍّ لمن جعل لسانه سبباً لأكله وتكسُّبه كما تفعل البقرة باحتشاشها الأكل بلسانها، وخصَّ البقرة بالذِّكر لأن جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها وهي تجمع بلسانها.

١٣٧- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «إنَّ الله يُبغض البليغَ مِن الرِّجال الذي يتخلَّل بلسانِه كما تَتخلَّلُ البقرةُ بلسانها» رواه الترمذي وأبوداود(١). [١٥١]

[١٥١] وهذا الحديث مثل الذي قبله في ذمِّ المتكلِّف في الكلام، دون تمييز بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام.

وقوله ﷺ: «يُبغض البليغَ من الرِّجال» البليغ: هو الذي يُنمِّق الكلام والمبالغ في فَصاحته وبلاغته بالمدح والثناء طمعاً في الحصول على المكاسب والتأكُّل بذلك، فهذا مبغوضٌ ومذموم، بخلاف البلاغة الخَلْقية التي هي غير مذمومة. وكما في الحديث السابق فقد شبَّه ﷺ هذا الصِّنف من الناس الذين يتشدَّقون ويتكلَّفون بالكلام والفصاحة بالحيوان، والحقُّ أن الإنسان كرَّمه الله ولكن هذا الصِّنف من الناس لم يكرِّم نفسه فصار مثل البقرة البهيمة التي «تتخلَّل» أي: تَلُفُّ الكلأ بلسانها لفّاً، ووجه الشَّبه في ذلك إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلُّم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل!

(١) أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣).

١٣٨- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعلَّمَ صَرْفَ الكلامِ ليُسبيَ به قلوبَ الرِّجالِ أو النّاسِ لم يَقبلِ الله منه يومَ القيامةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً»(١) رواه أبوداود. [١٥٢]

[١٥٢] قوله ﷺ: «مَنْ تعلَّم صَرْفَ الكلام» يعني: تحسينَ الكلام وتنميقَه، وما يتكلَّفه الإنسان من الزِّيادة فيه وراء الحاجة، ولهذا سمِّي الفَضْل والزائد من النَّقدين صَرْفاً.

وقوله: «ليُسبيَ قلوب الرِّجال أو الناس» أي: ليستميلهم، وفي هذا وعيد شديد، حيث إن الله يوم القيامة لا يقبل منه «صَرْفاً» والصَّرف هو الفريضة أو التوبة، «ولا عَدْلاً» أي: ولا نافلة، حيث لا يقبل الله منه نافلةً ولا فريضة وهذا وعيد شديد بحقِّ مَنْ يتعلَّم البلاغة والخطابة والشعر من أجل أن يتأكَّل بلسانه، وأمّا مَنْ تعلَّم البلاغة من أجل أن يُحسن الخطاب فيما ينفع ويُفيد واستمالة قلوب الناس إلى الخير فهذا أمرٌ طيب؛ لأن حُسن الكلام يستميل الناس، فإن كانت الاستمالة لأجل الدِّين فهو أمرٌ مرغوب فيه، بخلاف استمالتهم لأجل الدُّنيا الذي جاء فيه الوعيد الشديد.

(١) برقم (٥٠٠٦).

[صفة كلام الرسول ﷺ]

١٣٩- وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان كلامُ رسول الله ﷺ فَصْلاً يَفهمُه كلُّ مَنْ سَمِعَه(١).

وقالت: كان يُحدِّثُنا حديثاً لو عدَّهُ العادُّ لأحصاهُ(٢).

وقالت: إنه لم يَكن يَسْرُدُ الحديث كسَرْدِكُم(٣). روى أبو داود بعضَه. [١٥٣]

---

[١٥٣] قولها: «فَصْلاً يفهمُه كلُّ مَنْ يسمعُه» أي: كان كلامه ﷺ بيّناً واضحاً، لكونه مأموراً بالبلاغ المبين، وهذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، أي: بين الحقّ والباطل، فهو واضح ليس فيه غموضٌ ولا التباسٌ، هكذا كان كلام الرَّسول ﷺ، فلم يكن يتكلَّف الألفاظ الغريبة، وإنما يختار الألفاظ التي يفهمها السامعون من العوامّ والمتعلّمين، وهذا هو المقصود إفهامُ السامعين، باختيار الألفاظ الواضحة البيِّنة في خطبة الجمعة والمحاضرات ومحادثة الناس، مع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠٧٧)، وأبو داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

الابتعاد عن الألفاظ التي لا يفهمها إلاَّ القليل من الناس.

ففي هذا الحديث الحثُّ على اختيار الألفاظ والأساليب التي يفهمها المخاطَبون، ولهذا قال عليٌّ ﷺ: حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبُّونَ أن يكذَّب الله ورسوله[1].

فينبغي للمتحدث والخطيب أن يختار الألفاظ الواضحة والبيِّنة التي لا لَبْسَ فيها؛ ليأخذ عنه المستمع ويحفظ، وأن يختار من الأدلَّة المحكَمة الواضحة، وعدم الإتيان بالأدلَّة المتشابهة بحيث تلتبس وتشتبه على الناس، وأن يراعي مستوى الحاضرين إن كانوا عواماً فيُخاطبهم بما يفهمون، وإن كانوا متعلِّمين فيُخاطبهم خطابَ العلماء، وإن كانوا مختلطين من العلماء والعوام فيأتي بالألفاظ والأساليب التي تَصلُح للجميع.

وقولها: «كان يُحدِّثنا حديثاً لو عَدَّه العادُّ لأحصاه» أي: لو أراد المستمع عدَّ كلماته أو حروفه لأمكنه ذلك بسهولة، فقد كان ﷺ يُقلِّل الكلام مع جزالته، وهذا بخلاف ما هو عليه بعض الخطباء في وقتنا الحاضر الذين يبالغون في إطالة خُطبهم، والتي غالباً لا يستفيد

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

منها الحاضرون، بل على العكس يتذمَّرون منها ويصفونها بالمُمِلَّة.

وقولها: «لم يكن يَسرُد الحديثَ كسَردِكُم» أي: لم يكن ﷺ يُتابع الحديث استعجالاً، وإنما كان يتكلَّم بكلام متتابع مفهوم واضح على سبيل التأنِّي، لئلا يَلتبسَ على المستمع، وقد كان من صفات خطابه ﷺ التَّرسُّل في الكلام، فلا يُسرع بحيث يَفوتُ على السامع، مع اختيار الألفاظ الفَصْل الواضحة التي لا تحتاج لأن يُسأل عن معناها، مع التمهُّل في إلقاء الخطاب لوصول الفائدة إلى المستمعين.

ولذلك فإنَّ الخُطبَ المرويَّة عن الرَّسول ﷺ، إذا قرأها القارىء لوجدها لا تتجاوز النصف صفحة أو أقلّ، ولكنها لو شُرحت لبلغت المجلَّدات، لأنها من جوامع الكَلِم، فليس الشأن في كثرة الكلام وإنما في الإفادة التي تتأتَّى من هذه الخُطَب، ولو كانت قليلة، وقد عوَّد الخطباء في وقتنا الحاضر الناسَ على التَّطويل في الخطابة، وهذا على خلاف ما نراه من خُطَب القدماء ـ وهي مدوَّنة ـ التي لو رجعنا إليها لوجدنا أن الطويلة منها لا تبلغ النصف صفحة، ومثال ذلك خُطب المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

[الترغيب في قلَّة الكلام]

١٤٠- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتُم العبدَ يُعطى زُهداً في الدُّنيا وقلَّةَ مَنْطِقٍ، فاقترِبوا منه فإنَّه يُلقَّى الحِكمةَ» رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(١). [١٥٤]

---

[١٥٤] وفي هذا الحديث الترغيب في قلَّة الكلام، فالذي لا يتعلَّق قلبُه في الدُّنيا وبجمع المال، وإنما بالعمل الصالح، فإنه لا يأخذ من الدُّنيا إلا بقَدْر ما يُعينه على العيش، لأنه ليس الزُّهد في تَرْك الدُّنيا وإنما في تَرْك ما لا يُحتاج إليه، فمَن اجتمعت فيه الصفتان: الزُّهد في الدُّنيا مع قلَّة الكلام فارغبوا فيه وفي مجالسته؛ لأنه «يُلقَّى الحكمة» من قِبَل الله سبحانه وتعالى.

فقوله ﷺ: «يُعطى زهداً» أي: مِن الله جلَّ وعلا «في الدُّنيا» أي: استصغاراً لشأنها وأهلها.

وقوله: «وقِلَّة مَنطِقٍ» أي: قليل من الكلام في غير طاعةٍ إلاَّ بقَدْر الحاجة.

وقوله: «فاقتربوا منه فإنه يُلقَّى الحكمة» أي: فارغبوا فيه والزَموه،

---

(١) «شعب الإيمان» ٤/ ٢٥٤ (٤٩٨٥).

لأنه لم يُحرم الإصابة في القول، ولا رؤية الأشياء في غير موضعها، وإنما يضع الأشياء كما هي، فإنه ينظر بنور الله، ومَنْ كان هذا وَصفُه أصاب في منطقه؛ والحكمة هي: الفقه في أمور الدِّين والدُّنيا. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، وتُطلق الحكمة ويراد بها وضعُ الشيء في موضعه، وتُطلق ويراد بها: الفقه في الدِّين، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢] قيل: الحكمة هي السُّنة. وقيل: الحكمة هي الفقه في الدِّين. ولا تعارض بين المعنيين، لأنَّ السُّنة هي الفقه في الدِّين.

١٤١- وعن بُريدةَ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أنَّ مِنَ البيانِ سِحراً، وإنَّ مِنَ العلمِ جهلاً، وإنَّ من الشِّعر حِكَماً، وإنَّ مِنَ القولِ عِيالاً»(١). [١٥٥]

[١٥٥] قوله ﷺ: «إنَّ مِنَ البيان سِحراً» البيان: هو البلاغة والفصاحة في القول، والسحر في الأصل: الصَّرف، وسمّي السِّحر سحراً لأنه يصرف قلوب الحاضرين ويجذب الأسماع ويُغيِّر الأشياء، فالبليغ يستطيع أن يصوِّر الحقَّ باطلاً والباطلَ حقّاً ببلاغته، وكذلك السِّحر يُغيِّر الحقائق، والبلاغة نوع من السِّحر من خلال تغيير الحقائق بتمويه اللفظ عن تدبُّر المعنى؛ ولذلك سمِّي سحراً، وهو سحر كلاميّ يسحر الناس ويستميلهم، ولهذا يقول الشاعر:

في زُخرفِ القولِ تَزيينٌ لباطِلِه والحقُّ قد يَعْتَرِيه سُوءُ تَعبيرِ
تقولُ هذا مُجاجُ النَّحلِ تَمْدَحُه وإنْ تشاء قلتَ ذا قَيءُ الزَّنابيرِ
مَدْحاً وذمّاً وما جاوزتَ وَصفَهما قولُ البليغ يجعل الظَّلْماءَ كالنُّورِ

فالبليغ يستطيع أن يغيِّر الأشياء عن حقائقها ببلاغته، هذا معنى «إنَّ من البيان لسحراً». وقد قال بعض العلماء: إنَّ هذا من باب الذَّمِّ

(١) أخرجه أبوداود (٥٠١٢).

للبلاغة، ويكون المقصود من هذا منع الناس من الإعجاب والاغترار بأصحاب البلاغة.

ففي هذا الحديث الحثُّ على أن يكون الاهتمام والإعجاب والاستقباح إلى جانب المعنى. والبعض الآخر يقول: هذا من المدح للبلاغة، والصواب أنَّ البلاغة لا تُمدح ولا تُذمُّ لذاتها وإنما تُمدح أو تُذمُّ لِمَا تُستعمل فيه، فإن استُعملت لبيان الحقِّ فهذا محمود، وإن استعملت لنُصرة الباطل فهذا مذموم، ولذلك كان من الخطباء والشعراء مَن اتَّخذهم الرَّسول ﷺ، فقد اتَّخذ من الخطباء مَنْ يَخطب عند الوفود، واتَّخذ من الشُّعراء كحسَّان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة، فقد اتَّخذ من شعرهم نُصرةً للدَّعوة.

وقوله: «وإنَّ مَن العلم جَهْلًا» لكونه مذمومًا والجهلُ به خيرٌ منه؛ والمراد من العلوم ما لا يحتاج إليه فيشتغل به عن تعلُّم ما يحتاجه في دينه، ويكون فيما إذا دخل العالِم فيما لم يَبلُغْهُ علمُه فإنه ينقلب إلى جهل، فعلى العالم أن يتوقَّف عند علمه ولا يتكلَّف ما لا يعلمه، فإن تكلَّف ما لا يعلمه صار جهلًا.

وقوله: «وإن من الشِّعر حِكماً» الشِّعر معروف أنه من أنواع الكلام على اعتبار أن الكلام ينقسم إلى قسمين: نثر، وشعر، والشِّعر إن استُعمل في نُصرة الحقِّ فهو محمود، كالدَّعوة إلى الله والرَّد على الباطل، كشعر حسّان بن ثابت ﷺ، وأمّا الذي يستعمل شعره في الباطل والمجون والغزل والعشق، أو لمدح الخمر والمعاصي فهو مذموم، فالشِّعر منه ما هو ممدوح وفيه حِكْمة؛ ولذلك نجد بعض الشعراء ينطق بالحكمة في شعره كالمتنبي، وكعب بن زهير وزهير بن أبي سُلمى، فالشعر كغيره من الكلام محمود ومذموم، والشعر هو ديوان العرب تُؤخذ اللغة منه وخصوصاً شعر الجاهلية وصدر الإسلام، فتؤخذ الشواهد منه على أنه حُجَّة في اللغة العربية، وتؤخذ منه الحِكَم والأمثال والمواعظ، فلا يُزهد فيه كلِّه ولا يُحمد كلُّه.

وقوله: «وإنَّ مِنَ القول عِيالاً» العايل: هو الذي يمشي على غير طريق كالضالِّ والضائع، وهو خطاب مَنْ لا يُصغي لك، وعَرْضُك حديثك على مَنْ لا يُريده وليس من شأنه، فينبغي عدم خطاب من لا يصغي إليك؛ لأنه من العِيَال؛ أي: من الضَّياع.

١٤٢- وعن عمرو بن العاصِ ﷺ: أنه قال يوماً - وقام رجلٌ فأكثرَ القول - فقال عمرٌو: لو قَصدَ في قوله لكان خيراً له، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لقد رأيتُ - أو أُمِرتُ - أنْ أتجوَّزَ في القول، فإنَّ الجوازَ هو خيرٌ» رواهما أبوداود[١].

آخره والحمد لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً. [١٥٦]

---

[١٥٦] في هذا الحديث أنه تكلَّم رجلٌ عند عمرو بن العاص ﷺ، وكان أميراً على مصر في زمن عمر بن الخطاب ﷺ، فأكثر الرَّجل الذي تكلَّم القولَ، فانتقده عمرٌو ﷺ، فقال: لو قَصدَ في قوله؛ وذكر الحديث عن رسول الله ﷺ.

قوله ﷺ: «لقد رأيت - أو أُمرتُ - أن أتجوَّز في القول» أي: علمت - أو أمرت - شكٌّ من الراوي «أن أتجوَّز في القول» أي: أختصر فيه وأُخفِّف عن السامع. وهذا من صفة كلام الرسول ﷺ كما سبق بيان ذلك.

وقوله: «فإنَّ التجوُّز فيه خيرٌ» وهو الاقتصار على قدر الكفاية، لأنه يحصل فيه المقصود دون تكلُّف ودون إتعابٍ للسامع.

---

(١) برقم (٥٠٠٨).

وقوله ﷺ: «فيه خيرٌ» دليل على أنَّ عدم التجوُّز فيه شرٌّ، وأن أمرَه يؤول إلى أمور مذمومة، وفيه خلطٌ للمعنى المراد، فهذا الاختصار من أعظم آداب الكلام، فعلى المرء أن لا يتكلَّم إلا بقَدْر الحاجة، ولا يتكلَّم إلا إذا كان للكلام مناسبة، وإلا يكون «مِنَ القول عيالاً» كما في الحديث السابق، فيضيع الكلام ولا يُستفاد منه، وأكثر مَن يُطالب بذلك الذين يتحدَّثون على المنابر وفي النَّدوات وفي الدروس، فينبغي اقتصارهم في الكلام بقَدْر ما يفيد السامعين ويتناسب مع مستواهم.

انتهى شرحنا على كتاب «أصول الإيمان»، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

فهرس الموضوعات